سورة الأحقاف

وهي ثلاثون وخمس آيات مكية وقيل اربع وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤﴾

اعلم أن نظم أول هذه السورة كنظم أول سورة الجاثية، وقد ذكرنا ما فيه.

وأما قوله: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ فهذا يدل على إثبات الإله بهذا العالم، ويدل على أن ذلك الإله يجب أن يكون عادلاً رحيمًا بعباده، ناظرًا لهم محسنًا إليهم، ويدل على أن القيامة حق.

أما المطلوب الأول: - وهو إثبات الإله بهذا العالم - وذلك لأن الخلق عبارة عن التقدير، وآثار التقدير ظاهرة في السموات والأرض من الوجوه العشرة المذكورة في سورة الأنعام، وقد بينا أن تلك الوجوه تدل على وجود الإله القادر المختار.

وأما المطلوب الثاني: - وهو إثبات أن إله العالم عادل رحيم - فيدل عليه قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ لأن قوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ معناه إلا لأجل الفضل والرحمة والإحسان، وأن الإله يجب أن يكون فضله زائدًا وأن يكون إحسانه راجحًا، وأن يكون وصول المنافع منه إلى المحتاجين أكثر من وصول المضار إليهم، قال الجبائي: هذا يدل على أن كل ما بين السموات والأرض من القبائح فهو ليس من خلقه بل هو من أفعال عباده، وإلا لزم أن يكون خالقًا لكل باطل، وذلك ينافي قوله: ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٩] أجاب أصحابنا وقالوا: خلق الباطل غير، والخلق بالباطل غير، فنحن نقول: إنه هو الذي خلق الباطل إلا أنه خلق ذلك الباطل بالحق؛ لأن ذلك تصرف من الله تعالى في ملك نفسه، وتصرُّف المالك في ملك نفسه يكون بالحق لا بالباطل. قالوا: والذي يقرر ما ذكرناه أن قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ يدل على كونه تعالى خالقًا لكل أعمال العباد؛ لأن أعمال العباد من جملة ما بين السموات والأرض، فوجب كونها مخلوقة لله تعالى، ووقوع التعارض في الآية الواحدة محال فلم يبق إلا أن يكون المراد ما ذكرناه. فإن قالوا: أفعال العباد أعراض، والأعراض لا توصف بأنها حاصلة بين

السموات والأرض . فنقول : فعلى هذا التقدير سقط ما ذكرتموه من الاستدلال ، والله أعلم .

وأما المطلوب الثالث: فهو دلالة الآية على صحة القول بالبعث والقيامة ، وتقريره أنه لو لم توجد القيامة لتعطل استيفاء حقوق المظلومين من الظالمين ، ولتعطل توفية الثواب على المطيعين وتوفية العقاب على الكافرين ، وذلك يمنع من القول بأنه تعالى خلق السموات والأرض وما بينها لا بالحق (١) .

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ فالمراد أنه ما خلق هذه الأشياء إلا بالحق وإلا لأجل مسمى ، وهذا يدل على أن إله العالم ما خلق هذا العالم ليبقى مخلدًا سرمدًا ، بل إنما خلقه ليكون دارًا للعمل ، ثم إنه سبحانه يفنيه ثم يعيده ، فيقع الجزاء في الدار الآخرة ، فعلى هذا الأجلُ المسمى هو الوقت الذي عَيَّنه الله تعالى لإفناء الدنيا .

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ والمراد أن مع نصب الله تعالى هذه الدلائل ومع إرسال الرسل وإنزال الكتب ومع مواظبة الرسل على الترغيب والترهيب والإعذار والإنذار ، بقي هؤلاء الكفار معرضين عن هذه الدلائل غير ملتفتين إليها ، وهذا يدل على وجوب النظر والاستدلال ، وعلى أن الإعراض عن الدليل مذموم في الدين والدنيا .

واعلم أنه تعالى لما قرر هذا الأصل الدال على إثبات الإله، وعلى إثبات كونه عادلاً رحيمًا، وعلى إثبات البعث والقيامة، بنى عليه التفاريع:

فالفرع الأول: الرد على عبدة الأصنام فقال : ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وهي الأصنام ﴿أَرُونِي﴾ أي أخبروني ﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ والمراد أن هذه الأصنام هل يُعقل أن يضاف إليها خلق جزء من أجزاء هذا العالم؟ فإن لم يصح ذلك فهل يجوز أن يقال : إنها أعانت إله العالم في خلق جزء من أجزاء هذا العالم؟! ولما كان صريح العقل حاكمًا بأنه لا يجوز إسناد خلق جزء من أجزاء هذا العالم إليها ، وإن كان ذلك الجزء أقل الأجزاء ، ولا يجوز أيضًا إسناد الإعانة إليها في أقل الأفعال وأذلها ، فحينئذٍ صح أن الخالق الحقيقي لهذا العالم هو الله سبحانه ، وأن المنعم الحقيقي بجميع أقسام النعم هو الله سبحانه ، والعبادة عبارة عن الإتيان بأكمل وجوه التعظيم ، وذلك لا يليق إلا بمن صدر عنه أكمل وجوه الإنعام ، فلما كان الخالق الحق والمنعم الحقيقي هو الله سبحانه وتعالى ، وجب أن لا يجوز الإتيان بالعبادة والعبودية إلا له ولأجله .

بقي أن يقال: إنا لا نعبدها لأنها تستحق هذه العبادة ، بل إنما نعبدها لأجل أن الإله الخالق المنعم أمَرنا بعبادتها . فعند هذا ذكر الله تعالى ما يجري مجرى الجواب عن هذا السؤال ، فقال : ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ وتقرير هذا الجواب أن ورود هذا الأمر لا سبيل

---

(١) في الأصل : (إلا بالحق) وهو خطأ ، والصواب حذف الألف وجعل (إلا) الاستثنائية (لا) النافية وهو الممنوع .

إلى معرفته إلا بالوحي والرسالة، فنقول: هذا الوحي الدال على الأمر بعبادة هذه الأوثان إما أن يكون على محمد أو في سائر الكتب الإلهية المنزلة على سائر الأنبياء، وإن لم يوجد ذلك في الكتب الإلهية لكنه من تقابل العلوم المنقولة عنهم والكل باطل، أما إثبات ذلك بالوحي إلى محمد ﷺ فهو معلوم البطلان، وأما إثباته بسبب اشتمال الكتب الإلهية المنزلة على الأنبياء المتقدمين عليه، فهو أيضًا باطل؛ لأنه عُلم بالتواتر الضروري إطباق جميع الكتب الإلهية على المنع من عبادة الأصنام، وهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ﴾ ، وأما إثبات ذلك بالعلوم المنقولة عن الأنبياء سوى ما جاء في الكتب فهذا أيضًا باطل؛ لأن العلم الضروري حاصل بأن أحدًا من الأنبياء ما دعا إلى عبادة الأصنام، وهذا هو المراد من قوله: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ ولما بطل الكل ثبت أن الاشتغال بعبادة الأصنام عمل باطل وقول فاسد.

وبقي في قوله تعالى: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ نوعان من البحث:

النوع الأول: البحث اللغوي، قال أبو عبيدة والفراء والزجاج: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي بقية. وقال المبرد: ﴿أَثَٰرَةٍ﴾ ما يؤثر من علم أي بقية. وقال المبرد ﴿أَثَٰرَةٍ﴾ تؤثر ﴿مِّنْ عِلْمٍ﴾ كقولك: هذا الحديث يؤثر عن فلان، ومن هذا المعنى سميت الأخبار بالآثار، يقال جاء في الأثر كذا وكذا، قال الواحدي: وكلام أهل اللغة في تفسير هذا الحرف يدور على ثلاثة أقوال: الأول: البقية، واشتقاقها من أثرت الشيء أثيره إثارة، كأنها بقية تُستخرج فتثار. الثاني: من الأثر الذي هو الرواية. والثالث: هو الأثر بمعنى العلامة. قال صاحب (الكشاف): وقرئ (أَثَرَةٍ) أي من شيء أوثرتم به وخُصصتم من علم لا إحاطة به لغيركم. وقرئ (أَثْرَةٍ) بالحركات الثلاث مع سكون الثاء فالإثرة بالكسر بمعنى الأثر، وأما الإثر فالمرأة، من مصدر أثر الحديث إذا رواه، وأما الأُثرة بالضم فاسم ما يؤثر كالخطبة اسم لما يخطب به.

وهاهنا قول آخر في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ وهو ما روي عن ابن عباس أنه قال: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ هو علم الخط الذي يخط في الرمل، والعرب كانوا يخطونه وهو علم مشهور، وعن النبي ﷺ أنه قال: «كَانَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ يَخُطُّ، فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ خَطَّهُ عُلِّمَ عِلْمَهُ»[1].

وعلى هذا الوجه فمعنى الآية: ائتوني بعلم من قِبل هذا الخط الذي تخطونه في الرمل يدل على صحة مذهبكم في عبادة الأصنام. فإن صح تفسير الآية بهذا الوجه كان ذلك من باب التهكم بهم وبأقوالهم ودلائلهم، والله تعالى أعلم.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (المساجد)، باب: (تحريم الكلام في الصلاة) (١/ ٣٣/ ٣٨١)، وأبو داود في كتاب (الصلاة)، باب: (تشميت العاطس في الصلاة) (١/ ٤٠٧)، حديث رقم (٩٣٠)، والنسائي في كتاب (السهو)، باب: (الكلام في الصلاة) (٣/ ١٩)، حديث رقم (١٢١٧)، وأحمد في (مسنده) (٥/ ٤٤٧)، ومالك في (الموطأ) (٢/ ٧٧٦)، جميعًا عن هلال... به.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨﴾

اعلم أنه تعالى بيّن فيما سبق أن القول بعبادة الأصنام قول باطل، من حيث إنها لا قدرة لها ألبتة على الخلق والفعل والإيجاد والإعدام والنفع والضر، فأردفه بدليل آخر يدل على بطلان ذلك المذهب، وهي أنها جمادات فلا تسمع دعاء الداعين، ولا تعلم حاجات المحتاجين، وبالجملة فالدليل الأول كان إشارة إلى نفي العلم من كل الوجوه، وإذا انتفى العلم والقدرة من كل الوجوه لم تبق عبادة معلومة ببديهة العقل، فقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ استفهام على سبيل الإنكار، والمعنى أنه لا أمراً أبعد عن الحق وأقرب إلى الجهل ممن يدعو من دون الله الأصنام، فيتخذها آلهة ويعبدها، وهي إذا دُعيت لا تسمع، ولا تصح منها الإجابة لا في الحال ولا بعد ذلك اليوم إلى يوم القيامة. وإنما جعل ذلك غاية لأن يوم القيامة قد قيل: إنه تعالى يحييها وتقع بينها وبين من يعبدها مخاطبة فلذلك جعله تعالى حدًّا، وإذا قامت القيامة وحُشر الناس فهذه الأصنام تعادي هؤلاء العابدين، واختلفوا فيه: فالأكثرون على أنه تعالى يحيي هذه الأصنام يوم القيامة وهي تُظهر عداوة هؤلاء العابدين وتتبرأ منهم. وقال بعضهم: بل المراد عبدة الملائكة وعيسى فإنهم في يوم القيامة يُظهرون عداوة هؤلاء العابدين. فإن قيل: ما المراد بقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ وكيف يُعقل وصف الأصنام وهي جمادات بالغفلة؟ وأيضًا كيف جاز وصف الأصنام بما لا يليق إلا بالعقلاء؟ وهي لفظة (مَن) وقوله: (هم)؟ قلنا: إنهم لما عبدوها ونَزَّلوها منزلة من يضر وينفع، صح أن يقال فيها إنها بمنزلة الغافل الذي لا يسمع ولا يجيب. وهذا هو الجواب أيضًا عن قوله إن لفظة (مَن) ولفظة (هم) كيف يليق بها، وأيضًا يجوز أن يريد كل معبود من دون الله من الملائكة وعيسى وعزير والأصنام، إلا أنه غلَّب غير الأوثان على الأوثان.

واعلم أنه تعالى لما تكلم في تقرير التوحيد ونفي الأضداد والأنداد، تكلم في النبوة وبيّن أن محمدًا ﷺ كلما عرض عليهم نوعًا من أنواع المعجزات زعموا أنه سحر فقال: وإذا تتلى عليهم الآيات البينة وعُرضت عليهم المعجزات الظاهرة سموها بالسحر، ولما بيّن أنهم يسمون المعجزة بالسحر بيّن أنهم متى سمعوا القرآن قالوا: إن محمدًا افتراه واختلقه من عند نفسه. ومعنى الهمزة في (أم) للإنكار والتعجب كأنه قيل: دع هذا واسمع القول المنكر العجيب، ثم إنه

تعالى بيّن بطلان شبهتهم فقال: إن افتريته على سبيل الفرض، فإن الله تعالى يعاجلني بعقوبة بطلان ذلك الافتراء وأنتم لا تقدرون على دفعه عن معاجلتي بالعقوبة، فكيف أُقْدم على هذه الفرية، وأُعَرض نفسي لعقابه؟ يقال: فلان لا يملك نفسه إذا غضب ولا يملك عِنانه إذا صمم. ومثله: ﴿فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]، ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: ٤١] ومن قوله ﷺ: «لاَ أَمْلِكُ لَكُم مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»(١).

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي تندفعون فيه من القدح في وحي الله تعالى والطعن في آياته وتسميته سحرًا تارة وفرية أخرى ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ يشهد لي بالصدق ويشهد عليكم بالكذب والجحود، ومعنى ذكر العلم والشهادة وعيد لهم على إقامتهم في الطعن والشتم.

ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بمن رجع عن الكفر وتاب، واستعان بحكم الله عليهم مع عظم ما ارتكبوه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم (شكُّوا) في كون القرآن معجزًا، بأن قالوا: إنه يختلقه من عند نفسه ثم ينسبه إلى أنه كلام الله على سبيل الفرية، حكى عنهم نوعًا آخر من الشبهات، وهو أنهم كانوا يقترحون منه معجزات عجيبة قاهرة، ويطالبونه بأن يخبرهم عن المغيبات، فأجاب الله تعالى عنه بأن قال: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ والبدع والبديع من كل شيء المبدأ، والبدعة ما اخترع مما لم يكن موجودًا قبله بحكم السنة، وفيه وجوه: الأول: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي ما كنت أولهم، فلا ينبغي أن تنكروا إخباري بأني رسول الله إليكم، ولا تنكروا دعائي لكم إلى التوحيد، ونهيي عن عبادة الأصنام، فإن كل الرسل إنما بُعثوا بهذا

---

(١) صحيح: أخرجه النسائي في (السنن الكبرى) كتاب: (الوصايا)، باب: (إذا أوصى بعشيرته الأقربين) (٤/ ١٠٨)، حديث رقم (٦٤٧٢)، وأيضًا في كتاب (الوصايا)، باب: (إذا أوصى لعشيرته الأقربين) (٣/ ٦٠٧)، حديث رقم (٣٦٤٧) من طريق أحمد بن سليمان قال: حدثنا عبيد الله بن موسى... به.

الطريق. الوجه الثاني: أنهم طلبوا منه معجزات عظيمة وأخبارًا عن الغيوب فقال: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ والمعنى أن الإتيان بهذه المعجزات القاهرة والإخبار عن هذه الغيوب ليس في وسع البشر، وأنا من جنس الرسل، وأحد منهم لم يقدر على ما تريدونه فكيف أقدر عليه؟ الوجه الثالث: أنهم كانوا يعيبونه أنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق وبأن أتباعه فقراء فقال: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ وكلهم كانوا على هذه الصفة وبهذه المثابة، فهذه الأشياء لا تقدح في نبوتي كما لا تقدح في نبوتهم.

ثم قال: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: في تفسير الآية وجهان: أحدهما: أن يُحمل ذلك على أحوال الدنيا. والثاني: أن يُحمل على أحوال الآخرة.

أما الأول ففيه وجوه: الأول: لا أدري ما يصير إليه أمري وأمركم، ومَن الغالب منا والمغلوب. والثاني: قال ابن عباس في رواية الكلبي: لما اشتد البلاء بأصحاب النبي ﷺ بمكة، رأى في المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء، فقصها على أصحابهِ فاستبشروا بذلك ورأوا أن ذلك فرج مما هم فيه من أذى المشركين، ثم إنهم مكثوا برهة من الدهر لا يرون أثر ذلك، ، فقالوا: يا رسول الله ما رأينا الذي قلتَ ومتى نهاجر إلى الأرض التي رأيتها في المنام؟ فسكت النبي ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ وهو شيء رأيته في المنام، وأنا لا أتبع إلا ما أوحاه الله إليّ. الثالث: قال الضحاك: لا أدري ما تؤمرون به ولا أؤمر به في باب التكاليف والشرائع والجهاد ولا في الابتلاء والامتحان، وإنما أنذركم بما أعلمني الله به من أحوال الآخرة في الثواب والعقاب. والرابع: المراد أنه يقول: لا أدري ما يُفعل بي في الدنيا أأموت أم أُقتل كما قُتل الأنبياء قبلي، ولا أدري ما يُفعل بكم أيها المكذبون، أتُرمون بالحجارة من السماء، أم يُخسف بكم أم يُفعل بكم ما فُعل بسائر الأمم.

أما الذين حملوا هذه الآية على أحوال الآخرة: فروي عن ابن عباس أنه قال: لما نزلت هذه الآية فرح المشركون والمنافقون واليهود وقالوا: كيف نتبع نبيًّا لا يدري ما يُفعل بهِ وبنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ [الفتح: ١-٢] إلى قوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٥] فبيّن تعالى ما يفعل به وبمن اتبعه ونسخت هذه الآية، وأرغم الله أنف المنافقين والمشركين.

وأكثر المحققين استبعدوا هذا القول واحتجوا عليه بوجوه: الأول: أن النبي ﷺ لا بد وأن يعلم من نفسه كونه نبيًّا ومتى علم كونه نبيًّا علم أنه لا تصدر عنه الكبائر وأنه مغفور له، وإذا كان كذلك امتنع كونه شاكًّا في أنه هل هو مغفور له أم لا. الثاني: لا شك أن الأنبياء أرفع حالاً من الأولياء، فلما قال في هذا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣] فكيف يُعقل أن يبقى الرسول الذي هو رئيس الأتقياء وقدوة الأنبياء والأولياء شاكًّا

في أنه هل هو من المغفورين أو من المعذبين؟ الثالث: أنه تعالى قال: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] والمراد منه كمال حاله ونهاية قربه من حضرة الله تعالى، ومَن هذا حاله كيف يليق به أن يبقى شاكًا في أنه من المعذبين أو من المغفورين؟ فثبت أن هذا القول ضعيف.

المسألة الثانية: قال صاحب (الكشاف): قرئ (ما يَفعل) بفتح الياء، أي يفعل الله عزّ وجلّ.

فإن قالوا: ﴿مَا يُفۡعَلُ﴾ مثبت وغير منفي، وكان وجه الكلام أن يقال: ما يفعل بي وبكم؟ قلنا: التقدير ما أدري ما يفعل بي وما أدري ما يفعل بكم.

ثم قال تعالى: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ يعني إني لا أقول قولاً ولا أعمل عملاً إلا بمقتضى الوحي. واحتج نفاة القياس بهذه الآية فقالوا: النبي ﷺ ما قال قولاً ولا عمل عملاً إلا بالنص الذي أوحاه الله إليه، فوجب أن يكون حالنا كذلك، بيان الأول: قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ بيان الثاني: قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقوله تعالى: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ﴾ [النور: ٦٣].

ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ كانوا يطالبونه بالمعجزات العجيبة وبالإخبار عن الغيوب فقال: قل: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ والقادر على تلك الأعمال الخارجة عن قدرة البشر والعالم بتلك الغيوب - ليس إلا الله سبحانه.

ثم قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: جواب الشرط محذوف والتقدير أن يقال: إن كان هذا الكتاب من عند الله ثم كفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على صحته ثم استكبرتم، لكنتم من الخاسرين. ثم حذف هذا الجواب، ونظيره قولك: إن أحسنتُ إليك وأسأتَ إليّ وأقبلتُ عليك وأعرضتَ عني، فقد ظلمتني، فكذا هاهنا التقدير: أخبروني إن ثبت أن القرآن من عند الله بسبب عجز الخلق عن معارضته ثم كفرتم به وحصل أيضًا شهادة أعلم بني إسرائيل بكونه معجزًا من عند الله، فلو استكبرتم وكفرتم ألستم أضل الناس وأظلمهم؟ واعلم أن جواب الشرط قد يُحذف في بعض الآيات وقد يُذكر: أما الحذف فكما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾ [الرعد: ٣١] وأما المذكور، فكما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ﴾ [فصلت: ٥٢] وقوله: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۖ﴾ [القصص: ٧١].

المسألة الثانية: اختلفوا في المراد بقوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ على قولين: الأول: - وهو الذي قال به الأكثرون - أن هذا الشاهد عبد الله بن سلام، روى صاحب (الكشاف) أنه لما قدم رسول الله ﷺ المدينة نظر إلى وجهه، فعلم أنه ليس بوجه كذاب، وتأمله وتحقق أنه هو النبي ﷺ المنتظر، فقال له: إني سائلك عن ثلاث ما يعلمهن إلا نبي: ما أول

أشراط الساعة، وما أول طعام يأكله أهل الجنة، والولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ فقال ﷺ: «أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُهُمْ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ الْحُوتِ، وَأَمَّا الْوَلَدُ فَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ نَزَعَ لَهُ، وَإِنْ سَبَقَ مَاءُ الْمَرْأَةِ نَزَعَ لَهَا» فقال: أشهد أنك لرسول الله حقًّا! ثم قال: يا رسول الله إن اليهود قوم بهت، وإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني عندك. فجاءت اليهود فقال لهم النبي ﷺ: «أي رجل عبد الله فيكم؟» فقالوا: خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا. فقال: «أرأيتم إن أسلم عبد الله؟» فقالوا: أعاذه الله من ذلك! فخرج عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله. فقالوا: شرنا وابن شرنا! وانتقصوه فقال: هذا ما كنت أخاف يا رسول الله. فقال سعد بن أبي وقاص: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام، وفيه نزل ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ (١).

واعلم أن الشعبي ومسروقًا وجماعة آخرين أنكروا أن يكون الشاهد المذكور في هذه الآية هو عبد الله بن سلام، قالوا: لأن إسلامه كان بالمدينة قبل وفاة رسول الله ﷺ بعامين، وهذه السورة مكية فكيف يمكن حمل هذه الآية المكية على واقعة حدثت في آخر عهد رسول الله ﷺ بالمدينة؟! وأجاب الكلبي بأن السورة مكية إلا هذه الآية فإنها مدنية، وكانت الآية تنزل فيؤمر رسول الله ﷺ بأن يضعها في سورة كذا، فهذه الآية نزلت بالمدينة وإن الله تعالى أمر رسوله ﷺ بأن يضعها في هذه السورة المكية في هذا الموضع المعين. ولقائل أن يقول: إن الحديث الذي رويتم عن عبد الله بن سلام مشكل، وذلك لأن ظاهر الحديث يوهم أنه لما سأل النبي ﷺ عن المسائل الثلاثة، وأجاب النبي ﷺ بتلك الجوابات، [عرف عبد الله بن سلام بهذا الطريق كون النبي ﷺ رسولاً حقًّا من عند الله]؛ لأجل أن النبي ﷺ ذكر تلك الجوابات، وهذا بعيد جدًّا لوجهين: الأول: أن الإخبار عن أول أشراط الساعة وعن أول طعام يأكله أهل الجنة إخبار عن وقوع شيء من الممكنات، وما هذا سبيله فإنه لا يُعرف كون ذلك الخبر صدقًا إلا إذا عرف أولاً كون المخبر صادقًا فلو أنا عرفنا صدق المخبر يكون ذلك الخبر صدقًا، لزم الدور وإنه محال. والثاني: أنا نعلم بالضرورة أن الجوابات المذكورة عن هذه المسائل لا يبلغ العلم بها إلى حد الإعجاز ألبتة، بل نقول: الجوابات القاهرة عن المسائل الصعبة لما لم تبلغ إلى حد الإعجاز؟ فأمثال هذه الجوابات عن هذه السؤالات كيف يمكن أن يقال إنها بلغت إلى حد الإعجاز والجواب: يحتمل أنه جاء في بعض كتب الأنبياء المتقدمين أن رسول آخر الزمان يُسأل عن هذه المسائل وهو يجيب عنها بهذه الجوابات، وكان عبد الله بن سلام عالمًا بهذا المعنى،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (فضائل الصحابة)، باب: (مناقب عبد الله بن سلام رضي الله عنه) (٣/ ١٣٨٧)، حديث رقم (٣٦٠١)، ومسلم في (صحيحه) (٤/ ١٩٣٠/ ٢٤٨٣)، كلاهما من طريق عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه... به.

فلما سأل النبي ﷺ وأجاب بتلك الأجوبة عرف بهذا الطريق كونه رسولاً حقًّا من عند الله، وعلى هذا الوجه فلا حاجة بنا إلى أن نقول: العلم بهذه الجوابات معجز، والله أعلم.

القول الثاني في تفسير قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أنه ليس المراد منه شخصًا معينًا، بل المراد منه أن ذكر محمد ﷺ موجود في التوراة والبشارة بمقدمه حاصلة فيها، فتقدير الكلام: لو أن رجلاً منصفًا عارفًا بالتوراة، أقر بذلك واعترف به، ثم إنه آمن بمحمد ﷺ وأنكرتم ألستم كنتم ظالمين لأنفسكم ضالين عن الحق؟ فهذا الكلام مقرر سواء كان المراد بذلك الشاهد شخصًا معينًا أو لم يكن كذلك؛ لأن المقصود الأصلي من هذا الكلام أنه ثبت بالمعجزات القاهرة أن هذا الكتاب من عند الله وثبت أن التوراة مشتملة على البشارة بمقدم محمد ﷺ ومع هذين الأمرين كيف يليق بالعقل إنكار نبوته؟!

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ ذكروا فيه وجوهًا، والأقرب أن نقول: إنه ﷺ قال لهم: أرأيتم إن كان هذا القرآن من عند الله كما أقول، وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثل ما قلت فآمن واستكبرتم، ألستم كنتم ظالمين أنفسكم؟

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: أنه تهديد، وهو قائم مقام الجواب المحذوف، والتقدير: قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به، فإنكم لا تكونون مهتدين بل تكونون ضالين.

المسألة الثانية: قالت المعتزلة: هذه الآية تدل على أنه تعالى إنما منعهم الهداية بناء على الفعل القبيح الذي صدر منهم أولاً، فإن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ صريح في أنه تعالى لا يهديهم لكونهم ظالمين أنفسهم. فوجب أن يعتقدوا في جميع الآيات الواردة في المنع من الإيمان والهداية أن يكون الحال فيها كما ههنا، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: هذه شبهة أخرى للقوم في إنكار نبوّة محمد ﷺ، وفي سبب نزوله وجوه: الأول: أن هذا كلام كفار مكة، قالوا: إن عامة من يتبع محمدًا الفقراء والأراذل، مثل عمار وصهيب وابن مسعود، ولو كان هذا الدين خيرًا ما سبقنا إليه هؤلاء. الثاني: قيل: لما أسلمت جُهينة ومُزينة وأسلم وغِفار، قالت بنو عامر وغطفان وأسد وأشجع: لو كان هذا خيرًا ما سبقنا إليه رعاء البهم. الثالث: قيل: إن أمَة لعمر أسلمت وكان عمر يضربها حتى يفتر، ويقول: لولا أني فترت لزدتك ضربًا!! فكان كفار قريش يقولون: لو كان ما يدعو محمد إليه حقًّا ما سبقتنا إليه فلانة. الرابع: قيل: كان اليهود يقولون هذا الكلام عند إسلام عبد الله بن سلام.

المسألة الثانية: اللام في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ذكروا فيه وجهين: الأول: أن يكون المعنى: وقال الذين كفروا للذين آمنوا، على وجه الخطاب كما تقول: قال زيد لعمرو. ثم تترك الخطاب وتنتقل إلى الغيبة، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢] الثاني:

قال صاحب (الكشاف): ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ لأجلهم، يعني أن الكفار قالوا لأجل إيمان الذين آمنوا: لو كان خيرًا ما سبقونا إليه. وعندي فيه وجه الثالث: وهو أن الكفار لما سمعوا أن جماعة آمنوا برسول الله ﷺ خاطبوا جماعة من المؤمنين الحاضرين، وقالوا لهم: لو كان هذا الدين خيرًا لما سبقنا إليه أولئك الغائبون الذين أسلموا.

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم هذا الكلام، أجاب عنه بقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ والمعنى أنهم لما لم يقفوا على وجه كونه معجزًا، فلا بد من عامل في الظرف في قوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ﴾ ومن متعلق لقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ وغير مستقيم أن يكون ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ هو العامل في الظرف لتدافع دلالتي المضي والاستقبال، فما وجه هذا الكلام؟ وأجاب عنه بأن العامل في (إذ) محذوف لدلالة الكلام عليه، والتقدير ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ﴾ ظهر عنادهم ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ كتاب موسى مبتدأ، (ومِن قبله) ظرف واقع خبرًا مقدمًا عليه، وقوله: ﴿إِمَامًا﴾ نصب على الحال، كقولك: في الدار زيد قائمًا، وقرئ: (ومَن قبله كتاب موسى) والتقدير: وآتينا الذي قبله التوراة، ومعنى ﴿إِمَامًا﴾ أي قدوة ﴿وَرَحْمَةً﴾ يؤتم به في دين الله وشرائعه، كما يؤتم بالإمام ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمن به وعمل بما فيه.

ووجه تعلق هذا الكلام بما قبله أن القوم طعنوا في صحة القرآن، وقالوا: لو كان خيرًا ما سبقنا إليه هؤلاء الصعاليك. وكأنه تعالى قال: الذي يدل على صحة القرآن أنكم لا تنازعون في أن الله تعالى أنزل التوراة على موسى عليه السلام، وجعل هذا الكتاب إمامًا يقتدى به، ثم إن التوراة مشتملة على البشارة بمقدم محمد ﷺ فإذا سلمتم كون التوراة إمامًا يقتدى به، فاقبلوا حكمه في كون محمد ﷺ حقًّا من الله.

ثم قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي هذا القرآن مصدق لكتاب موسى في أن محمدًا رسول حقًّا من عند الله. وقوله تعالى: ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ نصب على الحال، ثم قال: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ قال ابن عباس: مشركي مكة. وفي قوله: ﴿لِّيُنذِرَ﴾ قراءتان: التاء لكثرة ما ورد من هذا المعنى بالمخاطبة، كقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢] والياء لتقدم ذكر الكتاب فأسند الإنذار إلى الكتاب كما أسند إلى الرسول، وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلى قوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ [الكهف: ١، ٢].

ثم قال تعالى: ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ قال الزجاج: الأجود أن يكون قوله: ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ في موضع رفع، والمعنى: وهو بشرى للمحسنين. قال: ويجوز أن يكون في موضع نصب على معنى ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ وحاصل الكلام أن المقصود من إنزال هذا الكتاب إنذار المعرضين وبشارة المطيعين.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما قرر دلائل التوحيد والنبوّة وذكر شبهات المنكرين وأجاب عنها، ذكر بعد ذلك طريقة المحقين والمحققين فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ وقد ذكرنا تفسير هذه الكلمة في سورة السجدة، والفرق بين الموضعين أن في سورة السجدة ذكر أن الملائكة ينزلون ويقولون: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ [فصلت: ٣٠] وهاهنا رفع الواسطة من البين وذكر أنه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فإذا جمعنا بين الآيتين حصل من مجموعهما أن الملائكة يبلغون إليهم هذه البشارة، وأن الحق سبحانه يسمعهم هذه البشارة أيضًا من غير واسطة.

واعلم أن هذه الآيات دالة على أن من آمن بالله وعمل صالحًا، فإنهم بعد الحشر لا ينالهم خوف ولا حزن، ولهذا قال أهل التحقيق: إنهم يوم القيامة آمنون من الأهوال. وقال بعضهم: خوف العقاب زائل عنهم، أما خوف الجلال والهيبة فلا يزول ألبتة عن العبد، ألا ترى أن الملائكة مع علو درجاتهم وكمال عصمتهم لا يزول الخوف عنهم فقال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] وهذه المسألة سبقت بالاستقصاء في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

ثم قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ قالت المعتزلة: هذه الآية تدل على مسائل: أولها: قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ وهذا يفيد الحصر، وهذا يدل على أن أصحاب الجنة ليسوا إلا الذين قالوا: ربنا الله ثم استقاموا. وهذا يدل على أن صاحب الكبيرة قبل التوبة لا يدخل الجنة. وثانيها: قوله تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ وهذا يدل على فساد قول من يقول: الثواب فضل لا جزاء. وثالثها: أن قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ يدل على إثبات العمل للعبد. ورابعها: أن هذا يدل على أنه يجوز أن يحصل الأثر في حال المؤثر، أو أي أثر كان موجودًا قبل ذلك بدليل أن العمل المتقدم أوجب الثواب المتأخر. وخامسها: كون العبد مستحقًّا على الله تعالى، وأعظم أنواع هذا النوع الإحسان إلى الوالدين، لا جرم أردفه بهذا

المعنى، فقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ وقد تقدم الكلام في نظير هذه الآية في سورة العنكبوت، وفي سورة لقمان.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ عاصم وحمزة والكسائي (بِوالِدَيْهِ إِحْسانًا) والباقون (حُسْنًا).

واعلم أن الإحسان خلاف الإساءة والحسن خلاف القبيح، فمن قرأ (إِحْسانًا) فحجته قوله تعالى في سورة بني إسرائيل: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] والمعنى أمرناه بأن يوصل إليهما إحسانًا. وحجة القراءة الثانية قوله تعالى في العنكبوت: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨] ولم يختلفوا فيه، والمراد أيضًا أنا أمرناه بأن يوصل إليهما فعلاً حسنًا، إلا أنه سمى ذلك الفعل الحسن بالحسن على سبيل المبالغة، كما يقال: هذا الرجل عِلم وكَرَم. وانتصب حسنًا على المصدر؛ لأن معنى (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ) أمرناه أن يحسن إليهما (إِحسانًا).

ثم قال تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي ﴿كُرْهًا﴾ بضم الكاف، والباقون بفتحها، قيل: هما لغتان: مثل الضَّعف والضُّعف، والفَقر والفُقر، ومن غير المصادر: الدَّف والدُّف، والشَّهد والشُّهد، قال الواحدي: الكره مصدر من كرهت الشيء أكرهه، والكره الاسم كأنه الشيء المكروه قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] فهذا بالضم، وقال: ﴿أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ [النساء: ١٩] فهذا في موضع الحال، ولم يقرأ الثانية بغير الفتح، فما كان مصدرًا أو في موضع الحال فالفتح فيه أحسن، وما كان اسمًا نحو ذهبت به على كُره. كان الضم فيه أحسن.

المسألة الثانية: قال المفسرون. حملته أمه على مشقة ووضعته في مشقة، وليس يريد ابتداء الحمل، فإن ذلك لا يكون مشقة، وقد قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ [الأعراف: ١٨٩] يريد ابتداء الحمل، فإن ذلك لا يكون مشقة، فالحمل نطفة وعلقة ومضغة، فإذا أثقلت فحينئذٍ ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ يريد شدة الطلق.

المسألة الثالثة: دلت الآية على أن حق الأم أعظم؛ لأنه تعالى قال أولاً: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ فذكرهما معًا، ثم خص الأم بالذكر فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ وذلك يدل على أن حقها أعظم، وأن وصول المشاق إليها بسبب الولد أكثر، والأخبار مذكورة في هذا الباب.

ثم قال تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: هذا من باب حذف المضاف، والتقدير: ومدة حمله وفصاله ثلاثون شهرًا. والفصال: الفطام وهو فصله عن اللبن، فإن قيل: المراد بيان مدة الرضاعة لا الفطام، فكيف عبّر عنه بالفصال؟ قلنا: لما كان الرضاع يليه الفصال ويلائمه لأنه ينتهي ويتم به، سمي فصالاً.

المسألة الثانية: دلت الآية على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر؛ لأنه لما كان مجموع مدة الحمل والرضاع ثلاثين شهرًا، قال: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] فإذا أسقطت الحولين الكاملين وهي أربعة وعشرون شهرًا من الثلاثين، بقي أقل مدة الحمل ستة أشهر. روي عن عمر أن امرأة رُفعت إليه، وكانت قد ولدت لستة أشهر، فأمر برجمها، فقال علي: لا رجم عليها. وذكر الطريق الذي ذكرناه، وعن عثمان أنه هَمَّ بذلك، فقرأ ابن عباس عليه ذلك.

واعلم أن العقل والتجربة يدلان أيضًا على أن الأمر كذلك، قال أصحاب التجارب: إن لتكوين الجنين زمانًا مقدرًا، فإذا تضاعف ذلك الزمان تحرك الجنين، فإذا انضاف إلى ذلك المجموع مثلاه انفصل الجنين عن الأم، فلنفرض أنه يتم خلقه في ثلاثين يومًا، فإذا تضاعف ذلك الزمان حتى صار ستين تحرك الجنين، فإذا تضاعف إلى هذا المجموع مثلاه وهو مائة وعشرون حتى صار المجموع مائة وثمانين وهو ستة أشهر، فحينئذٍ ينفصل الجنين، فلنفرض أنه يتم خلقه في خمسة وثلاثين يومًا فيتحرك في سبعين يومًا، فإذا انضاف إليه مثلاه وهو مائة وأربعون يومًا صار المجموع مائة وثمانين وعشرة أيام، وهو سبعة أشهر انفصل الولد، ولنفرض أنه يتم خلقه في أربعين يومًا، فيتحرك في ثمانين يومًا، فينفصل عند مائتين وأربعين يومًا، وهو ثمانية أشهر، ولنفرض أنه تمت الخلقة في خمسة وأربعين يومًا، فيتحرك في تسعين يومًا، فينفصل عند مائتين وسبعين يومًا، وهو تسعة أشهر، فهذا هو الضبط الذي ذكره أصحاب التجارب. قال جالينوس: إني كنت شديد التفحص عن مقادير أزمنة الحمل، فرأيت امرأة ولدت في المائة والأربع والثمانين ليلة. وزعم أبو علي بن سينا أنه شاهد ذلك، فقد صار أقل مدة الحمل بحسب نص القرآن وبحسب التجارب الطبية شيئًا واحدًا، وهو ستة أشهر، وأما أكثر مدة الحمل، فليس في القرآن ما يدل عليه، قال أبو علي بن سينا في الفصل السادس من المقالة التاسعة من عنوان الشفاء، بلغني من حيث وثقت به كل الثقة، أن امرأة وضعت بعد الرابع من سني الحمل ولدًا قد نبتت أسنانه وعاش. وحكي عن أرسطاطاليس أنه قال: أزمنة الولادة وحبل الحيوان مضبوطة سوى الإنسان، فربما وضعت الحبلى لسبعة أشهر، وربما وضعت في الثامن، وقلما يعيش المولود في الثامن إلا في بلاد معينة مثل مصر، والغالب هو الولادة بعد التاسع. قال أهل التجارب: والذي قلناه من أنه إذا تضاعف زمان التكوين تحرك الجنين، وإذا انضم إلى المجموع مثلاه انفصل الجنين، إنما قلناه بحسب التقريب لا بحسب التحديد، فإنه ربما زاد أو نقص بحسب الأيام؛ لأنه لم يقم على هذا الضبط برهان، إنما هو تقريب ذكروه بحسب التجربة، والله أعلم.

ثم قال: المدة التي فيها تتم خلقة الجنين تنقسم إلى أقسام، فأولها: أن الرحم إذا اشتملت على المني ولم تقذفه إلى الخارج استدار المني على نفسه منحصرًا إلى ذاته وصار كالكرة، ولما

كان من شأن المني أن يفسده الحركات، لا جرم يثخن في هذا الوقت، وبالحري أن خلق المني من مادة تجف بالحر إذا كان الغرض منه تكون الحيوان واستحصاف أجزائه ويصير المني زبدًا في اليوم السادس. وثانيها: ظهور النقط الثلاثة الدموية فيه، إحداها: في الوسط وهو الموضع الذي إذا تمت خلقته كان قلبًا والثاني: فوق وهو الدماغ والثالث: على اليمين وهو الكبد، ثم إن تلك النقط تتباعد ويظهر فيما بينها خيوط حمر، وذلك يحصل بعد ثلاثة أيام أخرى فيكون المجموع تسعة أيام. وثالثها: أن تنفذ الدموية في الجميع فيصير علقة وذلك بعد ستة أيام أخرى حتى يصير المجموع خمسة عشر يومًا. ورابعها: أن يصير لحمًا وقد تميزت الأعضاء الثلاثة، وامتدت رطوبة النخاع، وذلك إنما يتم باثني عشر يومًا فيكون المجموع سبعة وعشرين يومًا. وخامسها: أن ينفصل الرأس عن المنكبين والأطراف عن الضلوع والبطن يميز الحس في بعض ويخفى في بعض، وذلك يتم في تسعة أيام أخرى، فيكون المجموع ستة وثلاثين يومًا. وسادسها: أن يتم انفصال هذه الأعضاء بعضها عن بعض ويصير بحيث يظهر ذلك الحس ظهورًا بينًا، وذلك يتم في أربعة أيام أخرى، فيكون المجموع أربعين يومًا وقد يتأخر إلى خمسة وأربعين يومًا. قال: والأقل هو الثلاثون. فصارت هذه التجارب الطبية مطابقة لما أخبر عنه الصادق المصدوق في قوله ﷺ: «يُجْمَعُ خَلْقُ أَحَدِكُمْ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا»(١) قال أصحاب التجارب: إن السقط بعد الأربعين إذا شق عنه السلالة ووُضع في الماء البارد ظهر شيء صغير متميز الأطراف.

المسألة الثالثة: هذه الآية دلّت على أقل الحمل وعلى أكثر مدة الرضاع، أما أنها تدل على أقل مدة الحمل فقد بيناه، وأما أنها تدل على أكثر مدة الرضاع فلقوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ﴾ [البقرة: ٢٣٣] والفقهاء ربطوا بهذين الضابطين أحكامًا كثيرة في الفقه، وأيضًا فإذا ثبت أن أقل مدة الحمل هو الأشهر الستة، فبتقدير أن تأتي المرأة بالولد في هذه الأشهر يبقى جانبها مصونًا عن تهمة الزنا والفاحشة، وبتقدير أن يكون أكثر مدة الرضاع ما ذكرناه، فإذا حصل الرضاع بعد هذه المدة لا يترتب عليها أحكام الرضاع فتبقى المرأة مستورة عن الأجانب، وعند هذا يظهر أن المقصود من تقدير أقل الحمل ستة أشهر وتقدير أكثر الرضاع حولين كاملين - السعي في دفع المضار والفواحش وأنواع التهمة عن المرأة، فسبحان من له تحت كل كلمة من هذا الكتاب الكريم أسرار عجيبة ونفائس لطيفة، تعجز العقول عن الإحاطة بكمالها!!

وروى الواحدي في (البسيط) عن عكرمة أنه قال: إذا حملت تسعة أشهر أرضعته أحدًا وعشرين شهرًا، وإذا حملت ستة أشهر أرضعته أربعة وعشرين شهرًا. والصحيح ما قدمناه.

---

(١) تقدم تخريجه.

ثم قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ .

وفيه مسائل:

المسألة الأولى : اختلف المفسرون في تفسير الأشد : قال ابن عباس في رواية عطاء : يريد ثماني عشرة سنة . والأكثرون من المفسرين على أنه ثلاثة وثلاثون سنة ، واحتج الفراء عليه بأن قال : إن الأربعين أقرب في النسق إلى ثلاث وثلاثين منها إلى ثمانية عشر ، ألا ترى أنك تقول : أخذت عامة المال أو كله ، فيكون أحسن من قولك : أخذت أقل المال أو كله ، ومثله قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ [المزمل : ٢٠]فبعض هذه الأقسام قريب من بعض فكذا هاهنا . وقال الزجاج : الأولى حمله على ثلاث وثلاثين سنة ؛ لأن هذا الوقت الذي يكمل فيه بدن الإنسان . وأقول : تحقيق الكلام في هذا الباب أن يقال : إن مراتب سن الحيوان ثلاثة ، وذلك لأن بدن الحيوان لا يتكون إلا برطوبة غريزية وحرارة غريزية ، ولا شك أن الرطوبة الغريزية غالبة في أول العمر وناقصة في آخر العمر ، والانتقال من الزيادة إلى النقصان لا يُعقل حصوله إلا إذا حصل الاستواء في وسط هاتين المدتين ، فثبت أن مدة العمر منقسمة إلى ثلاثة أقسام .

أولها: أن تكون الرطوبة الغريزية زائدة على الحرارة الغريزية ، وحينئذٍ تكون الأعضاء قابلة للتمدد في ذواتها وللزيادة بحسب الطول والعرض والعمق ، وهذا هو سن النشوء والنماء .

والمرتبة الثانية: وهي المرتبة المتوسطة أن تكون الرطوبة الغريزية وافية بحفظ الحرارة الغريزية من غير زيادة ولا نقصان . وهذا هو سن الوقوف وهو سن الشباب .

والمرتبة الثالثة: وهي المرتبة الأخيرة أن تكون الرطوبة الغريزية ناقصة عن الوفاء بحفظ الحرارة الغريزية . ثم هذا النقصان على قسمين : فالأول : هو النقصان الخفي وهو سن الكهولة . والثاني : هو النقصان الظاهر وهو سن الشيخوخة ، فهذا ضبط معلوم . ثم ههنا مقدمة أخرى وهي أن دور القمر إنما يكمل في مدة ثمانية وعشرين يومًا وشيء ، فإذا قسمنا هذه المدة بأربعة أقسام كان كل قسم منها سبعة ؛ فلهذا السبب قدروا الشهر بالأسابيع الأربعة ، ولهذه الأسابيع تأثيرات عظيمة في اختلاف أحوال هذا العالم ، إذا عرفت هذا فنقول : إن المحققين من أصحاب التجارب قسموا مدة سن النماء والنشوء إلى أربعة أسابيع ، ويحصل للآدمي بحسب انتهاء كل سابوع من هذه السوابيع الأربعة نوع من التغير يؤدي إلى كماله ، أما عند تمام السوابيع الأُول من العمر فتتصلب أعضاؤه بعض الصلابة ، وتقوى أفعاله أيضًا بعض القوة ، وتتبدل أسنانه الضعيفة الواهية بأسنان قوية وتكون قوة الشهوة في هذا السابوع أقوى في الهضم مما كان قبل ذلك ، وأما في نهاية السابوع الثاني فتقوى الحرارة وتقل الرطوبات وتتسع المجاري وتقوى قوة الهضم وتقوى الأعضاء وتصلب قوة وصلابة كافية ويتولد فيه مادة الزرع ، وعند هذا يحكم الشرع عليه

بالبلوغ على قول الشافعي رضي الله عنه، وهذا هو الحق الذي لا محيد عنه؛ لأن هذا الوقت لما قويت الحرارة الغريزية قلَّت الرطوبات واعتدل الدماغ، فتكمل القوى النفسانية التي هي الفكر والذكر، فلا جرم يحكم عليه بكمال العقل، فلا جرم حكمت الشريعة بالبلوغ وتوجه التكاليف الشرعية، فما أحسن قول من ضبط البلوغ الشرعي بخمس عشرة سنة!!

واعلم أنه يتفرع على حصول هذه الحالة أحوال في ظاهر البدن: أحدها: انفراق طرف الأرنبة لأن الرطوبة الغريزية التي هناك تنتقص فيظهر الانفراق. وثانيها: نتوء الحنجرة وغلظ الصوت لأن الحرارة التي تنهض في ذلك الوقت توسع الحنجرة فتنتؤ ويغلظ الصوت. وثالثها: تغير ريح الإبط وهي الفضلة العفنية التي يدفعها القلب إلى ذلك الموضع، وذلك لأن القلب لما قويت حرارته، لا جرم قويت على إنضاج المادة، ودفعها إلى اللحم الغددي الرخو الذي في الإبط. ورابعها: نبات الشعر وحصول الاحتلام، وكل ذلك لأن الحرارة قويت فقدرت على توليد الأبخرة المولدة للشعر وعلى توليد مادة الزرع، وفي هذا الوقت تتحرك الشهوة في الصبايا وينهد ثديهن وينزل حيضهن، وكل ذلك بسبب أن الحرارة الغريزية التي فيهن قويت في آخر هذا السابوع، وأما في السابوع الثالث فيدخل في حد الكمال وينبت للذكَر اللحية ويزداد حسنه وكماله، وأما في السابوع الرابع فلا تزال هذه الأحوال فيه متكاملة متزايدة، وعند انتهاء السابوع الرابع نهاية أن لا يظهر الازدياد، أما مدة سن الشباب وهي مدة الوقوف السابوع واحد فيكون المجموع خمسة وثلاثين سنة. ولما كانت هذه المدة إما قد تزداد، وإما قد تنقص بحسب الأمزجة جعل الغاية فيه مدة أربعين سنة. وهذا هو السن الذي يحصل فيه الكمال اللائق بالإنسان شرعًا وطبًّا، فإن في هذا الوقت تسكن أفعال القوى الطبيعية بعض السكون وتنتهي له أفعال القوة الحيوانية غايتها، وتبتدئ أفعال القوة النفسانية بالقوة والكمال. وإذا عرفت هذه المقدمة ظهر لك أن بلوغ الإنسان وقت الأشد شيء، وبلوغه إلى الأربعين شيء آخر، فإن بلوغه إلى وقت الأشد عبارة عن الوصول إلى آخر سن النشوء والنماء، وأن بلوغه إلى الأربعين عبارة عن الوصول إلى آخر مدة الشباب، ومن ذلك الوقت تأخذ القوى الطبيعية والحيوانية في الانتقاص، وتأخذ القوة العقلية والنطقية في الاستكمال، وهذا أحد ما يدل على أن النفس غير البدن، فإن البدن عند الأربعين يأخذ في الانتقاص، والنفس من وقت الأربعين تأخذ في الاستكمال، ولو كانت النفس عين البدن لحصل للشيء الواحد في الوقت الواحد الكمال والنقصان وذلك محال، وهذا الكلام الذي ذكرناه ولخصناه مذكور في صريح لفظ القرآن؛ لأنا بينا أن عند الأربعين تنتهي الكمالات الحاصلة بسبب القوى الطبيعية والحيوانية، وأما الكمالات الحاصلة بحسب القوى النطقية والعقلية فإنها تبتدئ بالاستكمال، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ فهذا يدل على أن توجه الإنسان إلى عالم العبودية والاشتغال بطاعة الله إنما يحصل من هذا الوقت، وهذا تصريح بأن القوة النفسانية

العقلية النطقية إنما تبتدئ بالاستكمال من هذا الوقت، فسبحان من أودع في هذا الكتاب الكريم هذه الأسرار الشريفة المقدسة! قال المفسرون: لم يُبعث نبي قط إلا بعد أربعين سنة. وأقول: هذا مشكل بعيسى عليه السلام فإن الله جعله نبيًّا من أول عمره إلا أنه يجب أن يقال: الأغلب أنه ما جاءه الوحي إلا بعد الأربعين، وهكذا كان الأمر في حق رسولنا ﷺ ويروى أن عمر بن عبد العزيز لما بلغ أربعين سنة كان يقول: اللّهم أوزعني أن أشكر نعمتك. . . إلى تمام الدعاء، وروي أنه جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: «**يُؤْمَرُ الْحَافِظَانِ أَنِ ارْفِقَا بِعَبْدِي مِنْ حَدَاثَةِ سِنِّهِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْأَرْبَعِينَ قِيلَ احْفَظَا وَحَقِّقَا**»[1] فكان راوي هذا الحديث إذا ذكر هذا الحديث بكى حتى تبتل لحيته، رواه القاضي في (التفسير).

المسألة الثانية: اعلم أن قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ يدل على أن الإنسان كالمحتاج إلى مراعاة الوالدين له إلى قريب من هذه المدة، وذلك لأن العقل كالناقص، فلا بد له من رعاية الأبوين على رعاية المصالح ودفع الآفات، وفيه تنبيه على أن نعم الوالدين على الولد بعد دخوله في الوجود تمتد إلى هذه المدة الطويلة، وذلك يدل على أن نعم الوالدين كأنه يخرج عن وسع الإنسان مكافأتهما إلا بالدعاء والذكر الجميل.

المسألة الثالثة: حكى الواحدي عن ابن عباس وقوم كثير من متأخري المفسرين ومتقدميهم أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قالوا: والدليل عليه أن الله تعالى قد وقَّت الحمل والفصال ههنا بمقدار يعلم أنه قد ينقص وقد يزيد عنه بسبب اختلاف الناس في هذه الأحوال، فوجب أن يكون المقصود منه شخصًا واحدًا حتى يقال إن هذا التقدير إخبار عن حاله فيمكن أن يكون أبو بكر كان حمله وفصاله هذا القدر.

ثم قال تعالى في صفة ذلك الإنسان: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ ومعلوم أنه ليس كل إنسان يقول هذا القول، فوجب أن يكون المراد من هذه الآية إنسانًا معينًا قال هذا القول، وأما أبو بكر فقد قال هذا القول في قريب من هذا السن؛ لأنه كان أقل سنًّا من النبي ﷺ بسنتين وشيء، والنبي ﷺ بُعث عند الأربعين وكان أبو بكر قريبًا من الأربعين وهو قد صَدَّق النبي ﷺ وآمن به، فثبت بما ذكرناه أن هذه الآيات صالحة لأن يكون المراد منها أبو بكر، وإذا ثبت القول بهذه الصلاحية فنقول: ندعي أنه هو المراد من هذه الآية، ويدل عليه أنه تعالى قال في آخر هذه الآية: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ وهذا يدل على أن المراد من هذه الآية أفضل الخلق لأن الذي يتقبل الله عنه أحسن أعماله ويتجاوز عن كل سيئاته - يجب أن يكون من أفاضل الخلق وأكابرهم، وأجمعت الأمة على أن أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ إما أبو بكر وإما علي، ولا يجوز أن يكون المراد من هذه الآية علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأن هذه الآية إنما تليق بمن

---

(١) لم أجده.

أتى بهذه الكلمة عند بلوغ الأشد وعند القرب من الأربعين، وعلي بن أبي طالب ما كان كذلك لأنه إنما آمن في زمان الصبا أو عند القرب من الصبا، فثبت أن المراد من هذه الآية هو أبو بكر، والله أعلم.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾ قال ابن عباس: معناه ألهمني. قال صاحب (الصحاح): أوزعته بالشيء أغريته به فأوزع به فهو موزع به، أي مغرى به، واستوزعت الله شكره، فأوزعني، أي استلهمته فألهمني.

المسألة الخامسة: اعلم أنه تعالى حكى عن هذا الداعي أنه طلب من الله تعالى ثلاثة أشياء: أحدها: أن يوفقه الله للشكر على نعمه. والثاني: أن يوفقه للإتيان بالطاعة المرضية عند الله. الثالث: أن يصلح له في ذريته.

وفي ترتيب هذه الأشياء الثلاثة على الوجه المذكور وجهان:

الأول: أنا بينا أن مراتب السعادات ثلاثة، أكملها النفسانية وأوسطها البدنية وأدونها الخارجية والسعادات النفسانية هي اشتغال القلب بشكر آلاء الله ونعمائه، والسعادات البدنية هي اشتغال البدن بالطاعة والخدمة، والسعادات الخارجية هي سعادة الأهل والولد، فلما كانت المراتب محصورة في هذه الثلاثة لا جرم رتبها الله تعالى على هذا الوجه.

والسبب الثاني لرعاية هذا الترتيب: أنه تعالى قَدَّم الشكر على العمل؛ لأن الشكر من أعمال القلوب، والعمل من أعمال الجوارح، وعمل القلب أشرف من عمل الجارحة، وأيضًا المقصود من الأعمال الظاهرة أحوال القلب، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ [طه: ١٤] بيَّن أن الصلاة مطلوبة لأجل أنها تفيد الذكر، فثبت أن أعمال القلوب أشرف من أعمال الجوارح، والأشرف يجب تقديمه في الذكر، وأيضًا الاشتغال بالشكر اشتغال بقضاء حقوق النعم الماضية، والاشتغال بالطاعة الظاهرة اشتغال بطلب النعم المستقبلة، وقضاء الحقوق الماضية يجري مجرى قضاء الدين، وطلب المنافع المستقبلة طلب للزوائد، ومعلوم أن قضاء الدين مقدم على سائر المهمات؛ فلهذا السبب قدم الشكر على سائر الطاعات، وأيضًا أنه قدم طلب التوفيق على الشكر، وطلب التوفيق على الطاعة على طلب أن يصلح له ذريته، وذلك لأن المطلوبين الأولين اشتغال بالتعظيم لأمر الله، والمطلوب الثالث اشتغال بالشفقة على خلق الله، ومعلوم أن التعظيم لأمر الله يجب تقديمه على الشفقة على خلق الله.

المسألة السادسة: قال أصحابنا: إن العبد طلب من الله تعالى أن يلهمه الشكر على نعم الله، وهذا يدل على أنه لا يتم شيء من الطاعات والأعمال إلا بإعانة الله تعالى، ولو كان العبد مستقلاً بأفعاله لكان هذا الطلب عبثًا، وأيضًا المفسرون قالوا: المراد من قوله: ﴿أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ هو الإيمان أو الإيمان يكون داخلاً فيه، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] والمراد صراط الذين

أنعمت عليهم بنعمة الإيمان. وإذا ثبت هذا فنقول: العبد يشكر الله على نعمة الإيمان، فلو كان الإيمان من العبد لا من الله، لكان ذلك شكرًا لله تعالى على فعله لا على فعل غيره، وذلك قبيح لقوله تعالى: ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾ [آل عمران: ١٨٨] فإن قيل: فهب أن يشكر الله على ما أنعم به عليه فكيف يشكره على النعم التي أنعم بها على والديه؟ وإنما يجب على الرجل أن يشكر ربه على ما يصل إليه من النعم. قلنا: كل نعمة وصلت من الله تعالى إلى والديه، فقد وصل منها أثر إليه؛ فلذلك وصاه الله تعالى على أن يشكر ربه على الأمرين.

وأما المطلوب الثاني من المطالب المذكورة في هذا الدعاء: فهو قوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾.

واعلم أن الشيء الذي يعتقد أن الإنسان فيه كونه صالحًا على قسمين: أحدهما: الذي يكون صالحًا عنده ويكون صالحًا أيضًا عند الله تعالى. والثاني: الذي يظنه صالحًا ولكنه لا يكون صالحًا عند الله تعالى، فلما قسم الصالح في ظنه إلى هذين القسمين طلب من الله أن يوفقه لأن يأتي بعمل صالح يكون صالحًا عند الله ويكون مرضيًّا عند الله.

والمطلوب الثالث من المطالب المذكورة في هذه الآية: قوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ لأن ذلك من أجل نعم الله على الوالد، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] فإن قيل: ما معنى ﴿فِى﴾ في قوله: ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾؟ قلنا: تقدير الكلام هب لي الصلاح في ذريتي وأوقعه فيهم.

واعلم أنه تعالى لما حكى عن ذلك الداعي أنه طلب هذه الأشياء الثلاثة، قال بعد ذلك: ﴿إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ والمراد أن الدعاء لا يصح إلا مع التوبة، وإلا مع كونه من المسلمين، فتبين أني إنما أقدمت على هذا الدعاء بعد أن تبت إليك من الكفر ومن كل قبيح، وبعد أن دخلت في الإسلام والانقياد لأمر الله تعالى ولقضائه.

واعلم أن الذين قالوا: (إن هذه الآية نزلت في أبي بكر)، قالوا: إن أبا بكر أسلم والداه، ولم يتفق لأحد من الصحابة والمهاجرين إسلام الأبوين إلا له، فأبوه أبو قحافة عثمان بن عمرو، وأمه أم الخير بنت صخر بن عمرو، وقوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ قال ابن عباس: فأجابه الله إليه فأعتق تسعة من المؤمنين يعذبون في الله، منهم بلال وعامر بن فهيرة، ولم يترك شيئًا من الخير إلا أعانه الله عليه، وقوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ قال ابن عباس: لم يبق لأبي بكر ولد من الذكور والإناث إلا وقد آمنوا، ولم يتفق لأحد من الصحابة أن أسلم أبواه وجميع أولاده الذكور والإناث إلا لأبي بكر.

ثم قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي أهل هذا القول ﴿ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ﴾ قرئ بضم الياء على بناء الفعل للمفعول وقرئ بالنون المفتوحة، وكذلك (نتجاوز) وكلاهما في المعنى واحد؛ لأن الفعل وإن كان مبنيًّا للمفعول فمعلوم أنه لله سبحانه وتعالى، فهو كقوله: ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] فبيّن تعالى بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ أن من تقدم ذكره ممن يدعو بهذا

الدعاء، ويسلك هذه الطريقة التي تقدم ذكرها ﴿نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ﴾ والتقبل من الله هو إيجاب الثواب له على عمله، فإن قيل: ولم قال تعالى: ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ والله يتقبل الأحسن وما دونه؟ قلنا: الجواب من وجوه: الأول: المراد بالأحسن: الحسن، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾[الزمر: ٥٥] كقولهم: الناقص والأشج أعدلا بني مروان، أي عادلا بني مروان. الثاني: أن الحسن من الأعمال هو المباح الذي لا يتعلق به ثواب ولا عقاب، والأحسن ما يغاير ذلك، وهو وكل ما كان مندوبًا واجبًا.

ثم قال تعالى: ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ﴾ والمعنى أنه تعالى يتقبل طاعاتهم ويتجاوز عن سيئاتهم. ثم قال: ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ قال صاحب (الكشاف): ومعنى هذا الكلام مثل قولك: أكرمني الأمير في مائتين من أصحابه، يريد أكرمني في جملة من أكرم منهم وضمني في عدادهم، ومحله النصب على الحال، على معنى كائنين في أصحاب الجنة ومعدودين منهم، وقوله: ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ﴾ مصدر مؤكد؛ لأن قوله: ﴿نَتَقَبَّلُ﴾ ﴿وَنَتَجَاوَزُ﴾ وعد من الله لهم بالتقبل والتجاوز، والمقصود بيان أنه تعالى يعامل من صفته ما قدمناه بهذا الجزاء، وذلك وعد من الله تعالى، فبيّن أنه صدق ولا شك فيه.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما وصف الولد البار بوالديه في الآية المتقدمة، وصف الولد العاق لوالديه في هذه الآية، فقال: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ وفي هذه الآية قولان: الأول: أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر، قالوا كان أبواه يدعوانه إلى الإسلام فيأبى، ويقول ﴿أُفٍّ لَّكُمَا﴾ واحتج القائلون بهذا القول على صحته بأنه لما كتب معاوية إلى مروان يبايع الناس ليزيد، قال عبد الرحمن بن أبي بكر: لقد جئتم بها هرقلية، أتبايعون لأبنائكم؟! فقال مروان: يا أيها الناس هو الذي قال الله فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾. والقول الثاني: أنه ليس المراد منه شخص معين، بل المراد منه كل من كان موصوفًا بهذه الصفة، وهو كل من دعاه أبواه إلى الدين الحق فأباه وأنكره، وهذا القول هو الصحيح عندنا، ويدل عليه وجوه: الأول: أنه تعالى وصف هذا الذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن

قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ ولا شك أن عبد الرحمن آمن وحسن إسلامه، وكان من سادات المسلمين، فبطل حمل الآية عليه، فإن قالوا: روي أنه لما دعاه أبواه إلى الإسلام وأخبراه بالبعث بعد الموت، قال: ﴿أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ﴾ من القبر، يعني أبعث بعد الموت ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ يعني الأمم الخالية، فلم أر أحدًا منهم بُعث فأين عبد الله بن جدعان، وأين فلان وفلان؟ إذا عرفت هذا فنقول: قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ المراد هؤلاء الذين ذكرهم عبد الرحمن من المشركين الذين ماتوا قبله، وهم الذين حق عليهم القول، وبالجملة فهو عائد إلى المشار إليهم بقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ لا إلى المشار إليه بقوله ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ هذا ما ذكره الكلبي في دفع ذلك الدليل، وهو حسن. والوجه الثاني في إبطال ذلك القول: ما روي أن مروان لما خاطب عبد الرحمن بن أبي بكر بذلك الكلام سمعت عائشة ذلك فغضبت وقالت: والله ما هو به، ولكن الله لعن أباك وأنت في صلبه. الوجه الثالث وهو الأقوى: أن يقال: إنه تعالى وصف الولد البار بأبويه في الآية المتقدمة، ووصف الولد العاق لأبويه في هذه الآية، وذكر من صفات ذلك الولد أنه بلغ في العقوق إلى حيث لما دعاه أبواه إلى الدين الحق، وهو الإقرار بالبعث والقيامة، أصر على الإنكار وأبى واستكبر، وعوَّل في ذلك الإنكار على شبهات خسيسة وكلمات واهية، وإذا كان كذلك كان المراد كل ولد اتصف بالصفات المذكورة ولا حاجة ألبتة إلى تخصيص اللفظ المطلق بشخص معين. قال صاحب (الكشاف): قرئ (أُفِّ) بالفتح والكسر بغير تنوين، وبالحركات الثلاث مع التنوين، وهو صوت إذا صَوَّت به الإنسان عُلم أنه متضجر، كما إذا قال (حس) عُلم أنه متوجع، واللام للبيان معناه هذا التأفيف لكما خاصة، ولأجلكما دون غيركما، وقرئ (أَتَعِدانِنِي) بنونين، و(أتعدانِي) بأحدهما و(أتعدانِّي) بالإدغام، وقرأ بعضهم: (أتعدانَني) بفتح النون كأنه استثقل اجتماع النونين والكسرين والياء، ففتح الأولى تحريًا للتخفيف كما تحراه من أدغم ومن طرح أحدهما.

ثم قال: ﴿أَنْ أُخْرَجَ﴾ أي أن أُبعث وأُخرج من الأرض. وقرئ (أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي) يعني ولم يبعث منهم أحد.

ثم قال: ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ أي الوالدان يستغيثان الله، فإن قالوا: كان الواجب أن يقال: يستغيثان بالله؟ قلنا: الجواب: من وجهين: الأول: أن المعنى أنهما يستغيثان الله من كفره وإنكاره، فلما حذف الجار وصل الفعل. الثاني: يجوز أن يقال الباء حذف، لأنه أريد بالاستغاثة ههنا الدعاء على ما قاله المفسرون (يَدْعُوَانِ اللَّهَ) فلما أريد بالاستغاثة الدعاء حذف الجار؛ لأن الدعاء لا يقتضيه، وقوله: ﴿وَيْلَكَ﴾ أي يقولان له ويلك ﴿ءَامِنْ﴾ وصدِّق بالبعث. وهو دعاء عليه بالثبور، والمراد به الحث والتحريض على الإيمان لا حقيقة الهلاك.

ثم قال: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث حق فيقول لهما: ما هذا الذي تقولان من أمر البعث وتدعوانني إليه ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ أي حقت عليهم كلمة العذاب، ثم ههنا قولان: فالذين يقولون: المراد بنزول الآية عبد الرحمن بن أبي بكر، قالوا: المراد بهؤلاء الذين حقت عليهم كلمة العذاب هم القرون الذين خلوا من قبله. والذين قالوا: المراد به ليس عبد الرحمن، بل كل ولد كان موصوفًا بالصفة المذكورة؛ قالوا: هذا الوعيد مختص بهم، وقوله: ﴿فِيٓ أُمَمٖ﴾ نظير لقوله: ﴿فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ وقد ذكرنا أنه نظير لقوله: أكرمني الأمير في أناس من أصحابه، يريد أكرمني في جملة من أكرم منهم.

ثم قال: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ وقرئ (أن) بالفتح على معنى آمِن بأن وعد الله حق.

ثم قال: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ﴾ وفيه قولان: الأول: أن الله تعالى ذكر الولد البار، ثم أردفه بذكر الولد العاق، فقوله: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ﴾ خاص بالمؤمنين، وذلك لأن المؤمن البار بوالديه له درجات متفاوتة، ومراتب مختلفة في هذا الباب. والقول الثاني: أن قوله: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ﴾ عائد إلى الفريقين، والمعنى ولكل واحد من الفريقين درجات في الإيمان والكفر والطاعة والمعصية. فإن قالوا: كيف يجوز ذكر لفظ الدرجات في أهل النار، وقد جاء في الأثر: الجنة الدرجات، والنار دركات؟ قلنا: فيه وجوه: الأول: يجوز أن يقال ذلك على جهة التغليب. الثاني: قال ابن زيد: درج أهل الجنة يذهب علوًّا، ودرج أهل النار ينزلون هبوطًا. الثالث: أن المراد بالدرجات المراتب المتزايدة، إلا أن زيادات أهل الجنة في الخيرات والطاعات، وزيادات أهل النار في المعاصي والسيئات.

ثم قال تعالى: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمۡ﴾ وقرئ بالنون وهذا تعليل معلله محذوف لدلالة الكلام عليه، كأنه: وليوفيهم أعمالهم ولا يظلمهم حقوقهم. قدر جزاءهم على مقادير أعمالهم فجعل الثواب درجات والعقاب دركات، ولما بيّن الله تعالى أنه يوصل حق كل أحد إليه بيَّن أحوال أهل العقاب أولاً فقال: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ قيل: يدخلون النار، وقيل تُعرض عليهم النار ليروا أهوالها ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا﴾ قرأ ابن كثير (أذهبتم) استفهام بهمزة ومدة، وابن عامر استفهام بهمزتين بلا مدة والباقون ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ﴾ بلفظ الخبر، والمعنى أن كل ما قُدر لكم من الطيبات والراحات فقد استوفيتموه في الدنيا وأخذتموه، فلم يبق لكم بعد استيفاء حظكم شيء منها، وعن عمر: لو شئت لكنت أطيبكم طعامًا وأحسنكم لباسًا، ولكني أستبقي طيباتي. وعن رسول الله ﷺ أنه دخل على أهل الصُّفة وهم يرقعون ثيابهم بالأدم، ما يجدون لها رقاعًا فقال: «أَنْتُمُ الْيَوْمَ خَيْرٌ أَمْ يَوْمَ يَغْدُو أَحَدُكُمْ فِي حُلَّةٍ وَيَرُوحُ فِي أُخْرَى، وَيُغْدَى عَلَيْهِ بِجَفْنَةٍ وَيُرَاحُ عَلَيْهِ بِأُخْرَى، وَيُسْتَرُ بَيْتُهُ كَمَا تُسْتَرُ الْكَعْبَةُ؟» قَالُوا: نَحْنُ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ. قَالَ: «بَلْ أَنْتُمُ الْيَوْمَ خَيْرٌ»[1]، رواه صاحب (الكشاف) قال الواحدي: إن الصالحين يؤثرون التقشف والزهد في الدنيا رجاء أن

---

(١) مرسل: رواه أحمد في (الزهد) (١/ ٣٧) من طريق عبد الوهاب عن سعيد عن قتادة قال: ذكر لنا نبي الله... فذكره.

يكون ثوابهم في الآخرة أكمل، إلا أن هذه الآية لا تدل على المنع من التنعم؛ لأن هذه الآية وردت في حق الكافر، وإنما وبخ الله الكافر لأنه يتمتع بالدنيا ولم يؤد شكر المنعم بطاعته والإيمان به، وأما المؤمن فإنه يؤدي بإيمانه شكر المنعم فلا يوبخ بتمتعه، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]نعم لا ينكر أن الاحتراز عن التنعم أولى؛ لأن النفس إذا اعتادت التنعم صعب عليها الاحتراز والانقباض، وحينئذٍ فربما حمله الميل إلى تلك الطيبات على فعل ما لا ينبغي، وذلك مما يجرُّ بعضه إلى بعض ويقع في البعد عن الله تعالى بسببه.

ثم قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي الهوان، وقرئ: (عذاب الهوان) ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ فعلَّل تعالى ذلك العذاب بأمرين: أولهما: الاستكبار والترفع وهو ذنب القلب. الثاني: الفسق وهو ذنب الجوارح، وقَدَّم الأول على الثاني لأن أحوال القلوب أعظم وقعًا من أعمال الجوارح، ويمكن أن يكون المراد من الاستكبار أنهم يتكبرون عن قبول الدين الحق، ويستنكفون عن الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام، وأما الفسق فهو المعاصي. واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع، قالوا: لأنه تعالى علل عذابهم بأمرين: أولهما: الكفر، وثانيهما: الفسق، وهذا الفسق لا بد وأن يكون مغايرًا لذلك الكفر؛ لأن العطف يوجب المغايرة، فثبت أن فسق الكفار يوجب العقاب في حقهم، ولا معنى للفسق إلا ترك المأمورات وفعل المنهيات، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما أورد أنواع الدلائل في إثبات التوحيد والنبوّة، وكان أهل مكة بسبب استغراقهم في لذات الدنيا واشتغالهم بطلبها، أعرضوا عنها ولم يلتفتوا إليها؛ ولهذا السبب قال

تعالى في حقهم: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠] فلما كان الأمر كذلك بيَّن أن قوم عاد كانوا أكثر أموالاً وقوة وجاهًا منهم، ثم إن الله تعالى سلّط العذاب عليهم بسبب شؤم كفرهم، فذكر هذه القصة ههنا ليعتبر بها أهل مكة، فيتركوا الاغترار بما وجدوه من الدنيا ويُقبلوا على طلب الدين؛ فلهذا المعنى ذكر الله تعالى هذه القصة في هذا الموضع، وهو مناسب لما تقدم لأن من أراد تقبيح طريقة عند قوم كان الطريق فيه ضرب الأمثال، وتقديره أن من واظب على تلك الطريقة نزل به من البلاء كذا وكذا، وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ أي واذكر يا محمد لقومك أهل مكة هودًا عليه السلام ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ﴾ أي حذرهم عذاب الله إن لم يؤمنوا، وقوله: ﴿بِٱلْأَحْقَافِ﴾ قال أبو عبيدة: الحقف: الرمل المعوج، ومنه قيل للمعوج محقوف. وقال الفراء: الأحقاف واحدها حقف وهو الكثيب المكسر غير العظيم وفيه اعوجاج. قال ابن عباس: الأحقاف وادٍ بين عمان ومهرة. والنُّذر جمع نذير بمعنى المنذر ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ من قبله ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ من بعده، والمعنى أن هودًا عليه السلام قد أنذرهم وقال لهم: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

واعلم أن الرسل الذين بُعثوا قبله والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو إنذاره.

ثم حكى تعالى عن الكفار أنهم قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾ الإفك: الصرف، يقال: أفكه عن رأيه أي صرفه، وقيل: بل المراد لتزيلنا بضرب من الكذب ﴿عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ وعن عبادتها ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ معاجلة العذاب على الشرك ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في وعدك. فعند هذا قال هود: ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وإنما صلح هذا الكلام جوابًا لقولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ لأن قولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ استعجال منهم لذلك العذاب فقال لهم هود: لا علم عندي بالوقت الذي يحصل فيه ذلك العذاب، إنما علم ذلك عند الله تعالى ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ وهو التحذير عن العذاب، وأما العلم بوقته فما أوحاه الله إليّ ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ وهذا يحتمل وجوهًا: الأول: المراد أنكم لا تعلمون أن الرسل لم يُبعثوا سائلين عن غير ما أُذن لهم فيه وإنما بُعثوا مبلغين. الثاني: أراكم قومًا تجهلون من حيث إنكم بقيتم مصرين على كفركم وجهلكم، فيغلب على ظني أنه قرب الوقت الذي ينزل عليكم العذاب بسبب هذ الجهل المفرط والوقاحة التامة. الثالث: ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ حيث تصرون على طلب العذاب، وهب أنه لم يظهر لكم كوني صادقًا، ولكن لم يظهر أيضًا لكم كوني كاذبًا، فالإقدام على الطلب الشديد لهذا العذاب جهل عظيم.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ ذكر المبرّد في الضمير في (رأوه) قولين: أحدهما: أنه عائد إلى غير مذكور وبيّنه قوله: ﴿عَارِضًا﴾ كما قال: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥] ولم يذكر الأرض لكونها معلومة، فكذا هاهنا الضمير عائد إلى السحاب، كأنه قيل: فلما رأوا السحاب عارضًا. وهذا اختيار الزجاج، ويكون من باب الإضمار لا على شريطة التفسير. والقول الثاني:

أن يكون الضمير عائدًا إلى (ما) في قوله ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ أي فلما رأوا ما يوعدون به عارضًا، قال أبو زيد: العارض: السحابة التي تُرى في ناحية السماء ثم تطبق. وقوله: ﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ قال المفسرون: كانت عاد قد حُبس عنهم المطر أيامًا، فساق الله إليهم سحابة سوداء فخرجت عليهم من وادٍ يقال له المغيث ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ استبشروا و ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ والمعنى ممطر إيانا، قيل: كان هود قاعدًا في قومه فجاء سحاب مكثر فقالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ فقال: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ من العذاب ثم بيّن ماهيته فقال: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ثم وصف تلك الريح فقال: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ﴾ أي تهلك كل شيء من الناس والحيوان والنبات ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ والمعنى أن هذا ليس من باب تأثيرات الكواكب والقرانات، بل هو أمر حدث ابتداء بقدرة الله تعالى لأجل تعذيبكم ﴿فَأَصْبَحُوا۟﴾ يعني عادًا ﴿لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: روي أن الريح كانت تحمل الفسطاط فترفعها في الجو حتى يُرى كأنها جرادة، وقيل: أول من أبصر العذاب امرأة منهم قالت: رأيت ريحًا فيها كشهب النار. وروي أن أول ما عرفوا به أنه عذاب أليم أنهم رأوا ما كان في الصحراء من رجالهم ومواشيهم يطير به الريح بين السماء والأرض، فدخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابهم فعلقت الريح الأبواب وصرعتهم، وأحال الله عليهم الأحقاف، فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام لهم أنين، ثم كشفت الريح عنهم فاحتملتهم فطرحتهم في البحر. وروي أن هودًا لما أحس بالريح خط على نفسه وعلى المؤمنين خطًا إلى جنب عين تنبع فكانت الريح التي تصيبهم ريحًا لينة هادئة طيبة، والريح التي تصيب قوم عاد ترفعهم من الأرض وتطيرهم إلى السماء وتضربهم على الأرض، وأثر المعجزة إنما ظهر في تلك الريح من هذا الوجه، وعن النبي ﷺ أنه قال: «**مَا أَمَرَ اللَّهُ خَازِنَ الرِّيَاحِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَى عَادٍ إِلاَّ مِثْلَ مِقْدَارِ الْخَاتَمِ**»(١) ثم إن ذلك القدر أهلكهم بكليتهم، والمقصود من هذا الكلام إظهار كمال قدرة الله تعالى، وعن النبي ﷺ أنه كان إذا رأى الريح فزع وقال: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَمِنْ شَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ**»(٢).

المسألة الثالثة: قرأ عاصم وحمزة (لاَ يُرى) بالياء وضمها (مَساكِنُهُمْ) بضم النون، قال الكسائي: معناه لا يُرى شيء إلا مساكنهم. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر والكسائي (لاَ تَرى) على الخطاب، أي لا ترى أنت أيها المخاطب، وفي بعض الروايات عن عاصم (لاَ تُرَى) بالتاء (مَساكِنُهُمْ) بضم النون وهي قراءة الحسن، والتأويل لا تُرى من بقايا عاد أشياء إلا مساكنهم. وقال الجمهور: هذه القراءة ليست بالقوية.

---

(١) ذكره بعض أهل التفسير بدون إسناد.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٢/ ٦١٦/ ٨٩٩)، والترمذي في (سننه) (٥/ ٥٠٣)، حديث رقم (٣٤٤٩)، كلاهما من طريق ابن جريج عن عطاء عن عائشة... به، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن.

ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ والمقصود منه تخويف كفار مكة. فإن قيل: لما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] فكيف يبقى التخويف حاصلاً؟ قلنا: قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ إنما أنزل في آخر الأمر فكان التخويف حاصلاً قبل نزوله.

ثم إنه تعالى خَوَّف كفار مكة، وذكر فضل عاد بالقوة والجسم عليهم فقال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ قال المبرّد: (ما) في قوله: ﴿فِيمَآ﴾ بمنزلة الذي، و(إنْ) بمنزلة (ما) والتقدير: ولقد مكناهم في الذي ما مكناكم فيه، والمعنى أنهم كانوا أشد منكم قوة وأكثر منكم أموالاً، وقال ابن قتيبة: كلمة (إنْ) زائدة. والتقدير: ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه. وهذا غلط لوجوه: الأول: أن الحكم بأن حرفًا من كتاب الله عبث لا يقول به عاقل. والثاني: أن المقصود من هذا الكلام أنهم كانوا أقوى منكم قوة، ثم إنهم مع زيادة القوة ما نجوا من عقاب الله فكيف يكون حالكم؟ وهذا المقصود إنما يتم لو دلّت الآية على أنهم كانوا أقوى قوة من قوم مكة. الثالث: أن سائر الآيات تفيد هذا المعنى، قال تعالى: ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ [مريم: ٧٤] وقال: ﴿كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [غافر: ٨٢].

ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ والمعنى أنا فتحنا عليهم أبواب النعم، وأعطيناهم سمعًا فما استعملوه في سماع الدلائل، وأعطيناهم أبصارًا فما استعملوها في تأمل العبر، وأعطيناهم أفئدة فما استعملوها في طلب معرفة الله تعالى، بل صرفوا كل هذه القوى إلى طلب الدنيا ولذاتها، فلا جرم ما أغنى سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من عذاب الله شيئًا.

ثم بيّن تعالى أنه إنما لم يغن عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم لأجل أنهم كانوا يجحدون بآيات الله، وقوله: ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ﴾ بمنزلة التعليل، ولفظ (إذ) قد يُذكر لإفادة التعليل تقول: ضربته إذ أساء، والمعنى ضربته لأنه أساء، وفي هذه الآية تخويف لأهل مكة فإن قوم عاد لما اغتروا بدنياهم وأعرضوا عن قبول الدليل والحجة، نزل بهم عذاب الله، ولم تغن عنهم قوتهم ولا كثرتهم، فأهل مكة مع عجزهم وضعفهم أولى بأن يحذروا من عذاب الله تعالى ويخافوا.

ثم قال تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يعني أنهم كانوا يطلبون نزول العذاب، وإنما كانوا يطلبونه على سبيل الاستهزاء، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾

اعلم أن المراد: ولقد أهلكنا ما حولكم يا كفار مكة من القرى، وهي قرى عاد وثمود باليمن

والشام ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ﴾ بيناها لهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي لعلّ أهل القرى يرجعون، فالمراد بالتصريف الأحوال الهائلة التي وُجدت قبل الإهلاك. قال الجبائي: قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ معناه لكي يرجعوا عن كفرهم، دل بذلك على أنه تعالى أراد رجوعهم ولم يرد إصرارهم. والجواب: أنه فعل ما لو فعله غيره لكان ذلك لأجل الإرادة المذكورة، وإنما ذهبنا إلى هذا التأويل للدلائل الدالة على أنه سبحانه مريد لجميع الكائنات.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾ القربان ما يُتقرب به إلى الله تعالى، أي اتخذوهم شفعاء متقربًا بهم إلى الله حيث قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] **وفي إعراب الآية وجوه:**

الأول: قال صاحب (الكشاف): أحد مفعولي (اتخذ) الراجع إلى الذين هو محذوف.

والثاني: آلهة وقربانًا حال، وقيل عليه إن الفعل المتعدي إلى مفعولين لا يتم إلا بذكرهما لفظًا، والحال مشعر بتمام الكلام، ولا شك أن إتيان الحال بين المفعولين على خلاف الأصل. الثاني: قال بعضهم: ﴿قُرْبَانًا﴾ مفعول ثانٍ قُدم على المفعول الأول وهو آلهة، فقيل عليه إنه يؤدي إلى خلو الكلام عن الراجع إلى الذين.

والثالث: قال بعض المحققين: يضمر أحد مفعولي (اتخذوا) وهو الراجع إلى الذين، ويجعل قربانًا مفعولاً ثانيًا، وآلهة عطف بيان.

إذا عرفت الكلام في الإعراب فنقول: المقصود أن يقال: إن أولئك الذين أهلكهم الله هلا نصرهم الذين عبدوهم، وزعموا أنهم متقربون بعبادتهم إلى الله ليشفعوا لهم ﴿بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾ أي غابوا عن نصرتهم، وذلك إشارة إلى أن كون آلهتهم ناصرين لهم أمر ممتنع.

ثم قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ أي وذلك الامتناع أثر إفكهم الذي هو اتخاذهم إياها آلهة، وثمرة شركهم وافترائهم على الله الكذب في إثبات الشركاء له، قال صاحب (الكشاف): وقرئ (إفكهم) والإفك والأفك كالحَذر والحِذر، وقرئ (وذلك أَفَكهم) بفتح الفاء والكاف، أي ذلك الاتخاذ الذي هذا أثره وثمرته صرفهم عن الحق، وقرئ (إفّكهم) على التشديد للمبالغة أفكهم جعلهم آفكين وآفكهم، أي قولهم الإفك، أي ذو الإفك كما تقول قول كاذب.

ثم قال: ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ والتقدير: وذلك إفكهم وافتراؤهم في إثبات الشركاء لله تعالى، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣١ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٢﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما بيّن أن في الإنس من آمن وفيهم من كفر، بيّن أيضًا أن الجن فيهم من آمن وفيهم من كفر، وأن مؤمنهم مُعَرض للثواب، وكافرهم مُعَرض للعقاب، وفي كيفية هذه الواقعة قولان: الأول: قال سعيد بن جبير: كانت الجن تستمع فلما رُجموا قالوا: هذا الذي حدث في السماء إنما حدث لشيء في الأرض. فذهبوا يطلبون السبب، وكان قد اتفق أن النبي ﷺ لما أيس من أهل مكة أن يجيبوه خرج إلى الطائف ليدعوهم إلى الإسلام، فلما انصرف إلى مكة، وكان ببطن نخل، قام يقرأ القرآن في صلاة الفجر، فمرّ به نفر من أشراف جن نصيبين؛ لأن إبليس بعثهم ليعرفوا السبب الذي أوجب حراسة السماء بالرجم، فسمعوا القرآن وعرفوا أن ذلك هو السبب. والقول الثاني: أن الله تعالى أمر رسوله أن ينذر الجن ويدعوهم إلى الله تعالى ويقرأ عليهم القرآن، فصرف الله إليه نفرًا من الجن ليستمعوا منه القرآن وينذروا قومهم.

ويتفرع على ما ذكرناه فروع: الأول: نُقل عن القاضي في تفسيره الجن أنه قال: إنهم كانوا يهودًا؛ لأن في الجن مللاً كما في الإنس من اليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأصنام. وأطبق المحققون على أن الجن مكلفون، سئل ابن عباس: هل للجن ثواب؟ فقال: نعم لهم ثواب وعليهم عقاب، يلتقون في الجنة ويزدحمون على أبوابها. الفرع الثاني: قال صاحب (الكشاف): النفر دون العشرة، ويُجمع على أنفار. ثم روى محمد بن جرير الطبري عن ابن عباس: أن أولئك الجن كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين، فجعلهم رسول الله ﷺ رسلاً إلى قومهم. وعن زر بن حبيش كانوا تسعة، أحدهم ذوبعة. وعن قَتادة: ذُكر لنا أنهم صُرفوا إليه من ساوة. الفرع الثالث: اختلفوا في أنه هل كان عبد الله بن مسعود مع النبي ﷺ ليلة الجن؟ والروايات فيه مختلفة ومشهورة. الفرع الرابع: روى القاضي في (تفسيره) عن أنس قال: كنت مع رسول الله ﷺ في جبال مكة إذ أقبل شيخ متوكئ على عكازة، فقال النبي ﷺ: «مِشْيَةُ جِنّيٍّ وَنَغْمَتُهُ»، فقال: أجل. فقال: «مَنْ أَيِّ الْجِنِّ أَنْتَ؟» فقال: أنا هامة بن هيم بن لاقيس بن إبليس. فقال: «لاَ أَرَى بَيْنَكَ وَبَيْنَ إِبْلِيسَ إِلاَّ أَبَوَيْنِ، فَكَمْ أَتَى عَلَيْكَ؟» فقال: أكلتُ عُمْرَ الدنيا إلا أقلها، وكنت وقت قَتَلَ قابيلُ هابيلَ أمشي بين الآكام. وذكر كثيرًا مما مر به، وذكر في جملتهِ أن قال: قال لي عيسى بن مريم: إنْ لَقِيتَ محمدًا فأقرئه مني السلام، وقد بَلَّغْتُ سلامه وآمنت بك. فقال عَلَيْهِ السَّلاَمْ: «وَعَلَى عِيسَى السَّلاَمُ، وَعَلَيْكَ يَا هَامَةُ مَا حَاجَتُكَ؟» فقال: إن موسى عليه السلام

علَّمَنِي التوراة، وعيسى علمني الإنجيل، فعلِّمْنِي القرآن. فعَلَّمَهُ عَشْرَ سُورٍ، وقُبِضَ صلى الله عليه وسلم وَلَمْ يَنْعَهُ[1]. قال عمر بن الخطاب: ولا أراه إلا حيًّا واعلم أن تمام الكلام في قصة الجن مذكور في سورة الجن.

المسألة الثانية: اختلفوا في تفسير قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ فقال بعضهم: لما لم يقصد الرسول ﷺ قراءة القرآن عليهم، فهو تعالى ألقى في قلوبهم ميلاً وداعية إلى استماع القرآن، فلهذا السبب قال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ الضمير للقرآن أو لرسول الله ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي قال بعضهم لبعض: ﴿أَنصِتُوا۟﴾ أي اسكتوا مستمعين، يقال: أنصت لكذا واستنصت له، فلما فرغ من القراءة ﴿وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ ينذرونهم، وذلك لا يكون إلا بعد إيمانهم؛ لأنهم لا يدعون غيرهم إلى استماع القرآن والتصديق به إلا وقد آمنوا، فعنده ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ ووصفوه بوصفين: الأول: كونه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي مصدقًا لكتب الأنبياء، والمعنى أن كتب سائر الأنبياء كانت مشتملة على الدعوة إلى التوحيد والنبوّة والمعاد والأمر بتطهير الأخلاق، فكذلك هذا الكتاب مشتمل على هذه المعاني. الثاني: قوله: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

واعلم أن الوصف الأول يفيد أن هذا الكتاب يماثل سائر الكتب الإلهية في الدعوة إلى هذه المطالب العالية الشريفة، والوصف الثاني يفيد أن هذه المطالب التي اشتمل القرآن عليها مطالب حقة صدق في أنفسها، يعلم كل أحد بصريح عقله كونها كذلك، سواء وردت الكتب الإلهية قبل ذلك بها أو لم ترد، فإن قالوا: كيف قالوا: ﴿مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾؟ قلنا: قد نقلنا عن الحسن أنه قال: إنهم كانوا على اليهودية. وعن ابن عباس أن الجن ما سمعت أمر عيسى فلذلك قالوا: من بعد موسى. ثم إن الجن لما وصفوا القرآن بهذه الصفات الفاضلة قالوا: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ واختلفوا في أنه هل المراد بداعيْ الله الرسول أو الواسطة التي تبلغ عنه؟ والأقرب أنه هو الرسول لأنه هو الذي يطلق عليه هذا الوصف.

واعلم أن قوله: ﴿أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ فيه مسألتان:

المسألة الأولى: هذه الآية تدل على أنه ﷺ كان مبعوثًا إلى الجن كما كان مبعوثًا إلى الإنس، قال مقاتل: ولم يبعث الله نبيًّا إلى الإنس والجن قبله.

المسألة الثانية: قوله: ﴿أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ أمر بإجابته في كل ما أمر به، فيدخل فيه الأمر بالإيمان، إلا أنه أعاد ذكر الإيمان على التعيين لأجل أنه أهم الأقسام وأشرفها، وقد جرت عادة

---

(١) إسناده ضعيف جدًا: أخرجه العقيلي في (الضعفاء الكبير) (٨/ ١٢)، حديث رقم (١٨٠٩)، وابن أبي الدنيا في (هواتف الجنان) (١/ ١٠٤)، حديث رقم (١٠٠)، وابن الجوزي في (الموضوعات) (١/ ٢٠٨)، جميعًا من طريق محمد بن صالح بن النطاح، حدثنا أبو سلمة محمد بن عبد الله الأنصاري، حدثنا مالك بن دينار عن أنس بن مالك. . . به.

وفي إسناده محمد بن عبد الله قال العقيلي: محمد بن عبد الله عن مالك بن دينار منكر الحديث.

القرآن بأنه يذكر اللفظ العام، ثم يعطف عليه أشرف أنواعه، كقوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٨] وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧] ولما أمر بالإيمان به ذكر فائدة ذلك الإيمان وهي قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال بعضهم: كلمة (مِنْ) ههنا زائدة والتقدير: يغفر لكم ذنوبكم. وقيل: بل الفائدة فيه أن كلمة (مِنْ) هاهنا لابتداء الغاية، فكان المعنى أنه يقع ابتداء الغفران بالذنوب، ثم ينتهي إلى غفران ما صدر عنكم من ترك الأولى والأكمل.

المسألة الثانية: اختلفوا في أن الجن هل لهم ثواب أم لا؟ فقيل: لا ثواب لهم إلا النجاة من النار، ثم يقال لهم: (كونوا ترابًا) مثل البهائم. واحتجوا على صحة هذا المذهب بقوله تعالى: ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣١] وهو قول أبي حنيفة، والصحيح أنهم في حكم بني آدم فيستحقون الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية، وهذا القول قول ابن أبي ليلى ومالك، وجرت بينه وبين أبي حنيفة في هذا الباب مناظرة، قال الضحاك: يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون، والدليل على صحة هذا القول أن كل دليل على أن البشر يستحقون الثواب على الطاعة فهو بعينه قائم في حق الجن، والفرق بين البابين بعيد جدًّا.

واعلم أن ذلك الجني لما أمر قومه بإجابة الرسول والإيمان به، حَذَّرهم من تلك الإجابة فقال: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي لا ينجي منه مهرب ولا يسبق قضاءه سابق، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ [الجن: ١٢] ولا نجد له أيضًا وليًّا ولا نصيرًا ولا دافعًا من دون الله، ثم بيّن أنهم في ضلال مبين.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى ذكر في أول السورة ما يدل على وجود الإله القادر الحكيم المختار، ثم فَرَّع عليه فرعين: الأول: إبطال قول عبدة الأصنام، والثاني: إثبات النبوّة، وذكر شبهاتهم في الطعن في النبوة وأجاب عنها، ولما كان أكثر إعراض كفار مكة عن قبول الدلائل بسبب اغترارهم بالدنيا واستغراقهم في استيفاء طيباتهم وشهواتها، وبسبب أنه كان يثقل عليهم الانقياد لمحمد والاعتراف بتقدمه عليهم، ضرب لذلك مثلاً وهم قوم عاد فإنهم كانوا أكمل في منافع الدنيا من قوم محمد، فلما أصروا على الكفر أبادهم الله وأهلكهم، فكان ذلك تخويفًا

لأهل مكة بإصرارهم على إنكار نبوّة محمد عليه الصلاة والسلام، ثم لما قرر نبوته على الإنس أردفه بإثبات نبوته في الجن، وإلى ههنا قد تم الكلام في التوحيد وفي النبوة، ثم ذكر عقيبهما تقرير مسألة المعاد، ومن تأمل في هذا البيان الذي ذكرناه علم أن المقصود من كل القرآن تقرير التوحيد والنبوّة والمعاد، وأما القصص فالمراد من ذكرها ما يجري مجرى ضرب الأمثال في تقرير هذه الأصول.

المسألة الثانية: المقصود من هذه الآية إقامة الدلالة على كونه تعالى قادرًا على البعث، والدليل عليه أنه تعالى أقام الدلائل في أول هذه السورة على أنه هو الذي خلق السموات والأرض ولا شك أن خلقها أعظم وأفخم من إعادة هذا الشخص حيًّا بعد أن صار ميتًا، والقادر على الأقوى والأكمل لا بد وأن يكون قادرًا على الأقل والأضعف، ثم ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ والمقصود منه أن تعلق الروح بالجسد أمر ممكن إذ لو لم يكن ممكنًا في نفسه لما وقع أولاً، والله تعالى قادر على كل الممكنات، فوجب كونه قادرًا على تلك الإعادة، وهذه الدلائل يقينية ظاهرة.

المسألة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿بِقَـٰدِرٍ﴾ إدخاله الباء على خبر (أنَّ)، وإنما جاز ذلك لدخول حرف النفي على (أنَّ) وما يتعلق بها، فكأنه قيل: أليس الله بقادر. قال الزجاج: لو قلت: ما ظننت أن زيدًا بقائم جاز، ولا يجوز ظننت أن زيدًا بقائم، والله أعلم.

المسألة الرابعة: يقال: عييت بالأمر: إذا لم تعرف وجهه. ومنه ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾[ق: ١٥]. واعلم أنه تعالى لما أقام الدلالة على صحة القول بالحشر والنشر، ذكر بعض أحوال الكفار فقال: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فقوله: ﴿أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ التقدير يقال: لهم أليس هذا بالحق؟ والمقصود التهكم بهم والتوبيخ على استهزائهم بوعد الله ووعيده، وقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[الصافات: ٥٩].

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَـٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

واعلم أنه تعالى لما قرر المطالب الثلاثة وهي التوحيد والنبوة والمعاد، وأجاب عن الشبهات، أردفه بما يجري مجرى الوعظ والنصيحة للرسول ﷺ، وذلك لأن الكفار كانوا يؤذونه ويوجسون صدره، فقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي أولو الجد والصبر والثبات.

وفي الآية قولان:

الأول: أن تكون كلمة ﴿مِنَ﴾ للتبعيض، ويراد بأولو العزم بعض الأنبياء، قيل: هم نوح، صبر على أذى قومه وكانوا يضربونه حتى يغشى عليه، وإبراهيم على النار وذبح الولد، وإسحاق على

الذبح، ويعقوب على فقدان الولد وذهاب البصر، ويوسف على الجب والسجن، وأيوب على الضر، وموسى قال له قومه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾[الشعراء: ٦١] وداود بكى على زلته أربعين سنة، وعيسى لم يضع لبنة على لبنة وقال: إنها معبرة فاعبروها ولا تعمروها. وقال الله تعالى في آدم: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾[طه: ١١٥] وفي يونس: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾[القلم: ٤٨].

والقول الثاني: أن كل الرسل أولو عزم ولم يبعث الله رسولاً إلا كان ذا عزم وحزم، ورأي وكمال وعقل، ولفظة (مِن) في قوله ﴿مِّنَ الرُّسُلِ﴾ تبيين لا تبعيض، كما يقال: كسيته من الخز. وكأنه قيل: اصبر كما صبر الرسل من قبلك على أذى قومهم، ووَصَفهم بالعزم لصبرهم وثباتهم.

ثم قال: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ ومفعول الاستعجال محذوف، والتقدير لا تستعجل لهم بالعذاب، قيل: إن النبي ﷺ ضجر من قومه بعض الضجر، وأحب أن يُنزل الله العذاب بمن أبى من قومه فأُمر بالصبر وتَرْك الاستعجال، ثم أُخبر أن ذلك العذاب منهم قريب، وأنه نازل بهم لا محالة وإن تأخر، وعند نزول ذلك العذاب بهم يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا، حتى يحسبونها ساعة من نهار، والمعنى أنهم إذا عاينوا العذاب صار طول لبثهم في الدنيا والبرزخ كأنه ساعة من النهار، أو كأن لم يكن لهول ما عاينوا، أو لأن الشيء إذا مضى صار كأنه لم يكن، وإن كان طويلاً، قال الشاعر:

كَأَنَّ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ إِذَا مَضَى ... كَأَنَّ شَيْئًا لَمْ يَزَلْ إذا أتى

واعلم أنه تم الكلام هاهنا، ثم قال تعالى: ﴿بَلَـٰغٌ﴾ أي هذا بلاغ، ونظيره قوله تعالى: ﴿هَـٰذَا بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾[إبراهيم: ٥٢] أي هذا الذي وُعظتم به فيه كفاية في الموعظة، أو هذا تبليغ من الرسل، فهل يهلك إلا الخارجون عن الاتعاظ به والعمل بموجبه؟ والله أعلم.

قال المصنف رحمه الله تعالى: تم تفسير هذه السورة يوم الأربعاء، العشرين من ذي الحجة، سنة ثلاث وستمائة، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وأصحابه وأزواجه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

سورة الأحقاف

مكيةٌ في قول جميعهم. وهي أربع وثلاثون آية، وقيل: خمسٌ[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿حمٓ . تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ تقدَّم[2]. ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ تقدَّم أيضاً[3]. ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يعني القيامة؛ في قول ابنِ عباس وغيره[4]. وهو الأجلُ الذي تنتهي إليه السماواتُ والأرض[5]. وقيل: إنه هو الأجل المقدورُ لكلِّ مخلوقٍ[6]. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟﴾: خُوِّفوا ﴿مُعْرِضُونَ﴾: مُوَلُّون لاهُون غير مستعدِّين له. ويجوز أن تكون «ما» مصدرية، أي: عن إنذارهم ذلك اليوم[7].

---

(١) الكشاف ٣/ ٥١٤ ، وقوله : مكية في قول الجميع، فيه نظر ؛ فقد روي عن ابن عباس وقتادة أن فيها آية مدنية كما هو في النكت والعيون ٥/ ٢٧٠ ، وزاد المسير ٧/ ٣٦٨ . وروي أيضاً عن مقاتل: نزلت بمكة غير آيتين. ذكره ابن الجوزي أيضاً . وينظر المحرر الوجيز ٥/ ٩١ .

(٢) ص١٤٣ من هذا الجزء.

(٣) ١٢/ ٢٤٩ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٧١ .

(٥) الوسيط ٤/ ١٠٢ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٧١ .

(٧) الكشاف ٣/ ٥١٥ .

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما تعبدون من الأصنام والأندادِ من دون الله. ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: هل خَلَقوا شيئاً من الأرض؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ أي: نصيبٌ ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: في خلق السماوات مع اللهِ. ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ أي: من قبل هذا القرآن[١].

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ قراءة العامة: «أَوْ أثارةٍ» بألفٍ بعد الثاء.

قال ابن عباس عن النبيِّ ﷺ: «هو خطٌّ كانت تخطُّه العرب في الأرض»[٢]؛ ذكره المهدويُّ والثعلبيُّ. وقال ابن العربي[٣]: ولم يصحَّ. وفي مشهور الحديث عن النبيِّ ﷺ قال: «كان نبيٌّ من الأنبياء يَخُطُّ، فَمَنْ وافَق خطَّه فذاك» ولم يصحَّ أيضاً.

قلت: هو ثابتٌ من حديث معاوية بن الحَكَم السُّلمي؛ خَرَّجه مسلم[٤]. وأسند النحاس: حدَّثنا محمد بن أحمد ـ يعرف بالجرايحي[٥] ـ قال حدثنا محمد بن بندار قال: حدَّثنا يحيى بن سعيد، عن سفيان الثوري، عن صفوان بن سُلَيم، عن أبي سَلَمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ قال: «الخطّ» وهذا صحيحٌ أيضاً[٦].

---

(١) تفسير أبي الليث السمرقندي ٣/ ٢٢٩ - ٢٣٠.

(٢) أخرجه الطبري ٢١/ ١١٣، وسيذكره المصنف بلفظ: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾: الخط.

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٨٤.

(٤) برقم (٥٣٧)، وهو عند الإمام أحمد (٢٣٧٦٢).

(٥) في (خ) و(د) بالجريحي. وفي (ظ) بالحريجي.

(٦) أخرجه الإمام أحمد (١٩٩٢)، والبغدادي في تاريخ بغداد ٤/ ٣٥٥، وعبد الرزاق ٢/ ٢١٥، والطبري ٢١/ ١١٣، وسلف آنفاً.

قال ابن العربي[١]: واختلفوا في تأويله؛ فمنهم من قال: جاء لإباحة الضربِ؛ لأن بعضَ الأنبياء كان يفعله. ومنهم من قال: جاء للنهي عنه؛ لأنه ﷺ قال: «فمَنْ وافقَ خطَّه فذاك». ولا سبيلَ إلى معرفة طريق النبيِّ المتقدِّم فيه؛ فإذاً لا سبيل إلى العمل به. قال[٢]:

لَعمرك ما تدري الضواربُ بالحصا ولازاجراتُ الطير ما اللهُ صانعُ

وحقيقتُه عند أربابه ترجع إلى صور الكواكب، فيدلُّ ما يخرج منها على ما تدل عليه تلك الكواكبُ من سعدٍ أو نحسٍ يحلُّ بهم، فصار ظنًّا مبنيًّا على ظنّ، وتعلقًا بأمرٍ غائب قد دَرَسَتْ طريقُه وفات تحقيقُه؛ وقد نهت الشريعةُ عنه، وأخبرت أن ذلك مما اختصَّ الله به، وقطَعه عن الخَلق، وإن كانت لهم قبل ذلك أسبابٌ يتعلَّقون بها في درك الأشياء المغيَّبة؛ فإن الله قد رفعَ تلك الأسبابَ، وطمسَ تيك الأبوابَ، وأفرد نفسَه بعلم الغيب؛ فلا يجوز مزاحمتُه في ذلك، ولا يَحلُّ لأحدٍ دعواه. وطلبُه عناءٌ لو لم يكن فيه نهيٌ، فإذ وقد ورد النهي؛ فطلبه معصية أو كفرٌ بحسب قصد الطالب.

قلت: ما اختاره هو قول الخطابي[٣]. قال الخطابي: قوله عليه الصلاة والسلام: «فمن وافَق خطَّه فذاك» هذا يَحتمل الزجر إذ كان ذلك عَلَماً لنبوَّته، وقد انقطعت، فنُهينا عن التعاطي لذلك. قال القاضي عياض[٤]: الأظهر من اللفظ خلافُ هذا، وتصويب خط من يوافق خطَّه؛ لكن من أين تُعلم الموافقة والشرعُ منعَ من التخرُّص وادعاءِ الغيب جملةً؟ فإنما معناه: أن من وافق خطه فذاك الذي يجدون إصابته؛ لا أنه يريد إباحةَ ذلك لفاعله على ما تأوَّله بعضُهم.

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٨٤ - ١٦٨٥.

(٢) لبيد بن ربيعة، ديوانه ص ٩٠.

(٣) ينظر معالم السنن ١/ ٢٢٢.

(٤) في إكمال المعلم ٢/ ٤٦٤، ونقله أبو العباس في المفهم ٢/ ١٤١ - ١٤٢، والكلام وما قبله منهما.

وحكى مكيٌّ في تفسير قوله: «كان نبيٌّ من الأنبياء يخطُّ»: أنه كان يخطُّ بأصبعه السبابة والوسطى في الرمل ثم يَزْجُر. وقال ابن عباس في تفسير قوله: «ومنَّا رجالٌ يخطُّون»(١): هو الخطُّ الذي يَخطُّه الحازي(٢) فيعطيه(٣) حُلواناً فيقول: اقعد حتى أخطَّ لك؛ وبين يدي الحازي غلامٌ معه مِيلٌ، ثم يأتي إلى أرضٍ رَخْوةٍ، فيخطُّ الأستاذُ خطوطاً معجلةً لئلَّا يلحقَها العددُ، ثم يرْجع فيمحو على مَهَلٍ خطَّين خطَّين، فإن بقي خطَّان فهو علامة النُّجح، وإن بقي خطٌّ فهو علامة الخيبة. والعرب تسميه: الأسحم، وهو مشؤوم عندهم.

الثالثة: قال ابن العربي(٤): إن اللهَ تعالى لم يُبْقِ من الأسباب الدالة على الغيب التي أذن في التعلُّق بها والاستدلال منها إلا الرؤيا؛ فإنه أذِن فيها، وأخبر أنها جزء من النبوة(٥) وكذلك الفأل(٦)؛ وأما الطِّيَرة والزَّجر فإنه نَهى عنهما. والفَأْلُ: هو الاستدلال بما يَسْمَع من الكلام على ما يُريد من الأمر إذا كان حسناً؛ فإذا سمِع مكروهاً فهو تطيُّر، أمرَه الشرعُ بأن يفرح بالفأل ويمضيَ على أمره مسروراً. وإذا سمع المكروه أعرَض عنه ولم يرجع لأجْله، وقد قال النبيُّ ﷺ: «اللهمَّ لا طَيْرَ إلا طيرك، ولا خيرَ إلى خيرُك، ولا إله غيرُك»(٧). وقد روى بعضُ الأدباء:

الفَأْلُ والزَّجْرُ والكُهَّانُ كلُّهُمُ مضلِّلون ودون الغيبِ أقْفالُ(٨)

---

(١) هو قطعة من حديث معاوية بن الحكم السلمي السالف.

(٢) الحازي: هو الكاهن، ويقال له أيضاً: الحزَّاء، وهو الذي يحزر الأشياء ويُقدرها بظنه. النهاية (حزو).

(٣) في (م) و(د) و(ظ) فيعطى. والمثبت من (خ) و(ز) و(ق) والإكمال والمفهم. وهو في النهاية لابن الأثير (خطط) ذكره عن ابن عباس أيضاً.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٨٥.

(٥) سلف قوله ﷺ ١١/ ٢٤٧ عن الرؤيا «جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة».

(٦) سلف ٧/ ٢٩٠ - ٢٩١ حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «لا طِيرة، وخيرها الفأل» قيل: يا رسول الله، وما الفأل؟ قال: «الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم»، وهو في الصحيحين.

(٧) قطعة من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وسلف ٩/ ٣٠٧.

(٨) ذكره المبرد في الكامل ١/ ٤١٩، والبغدادي في الخزانة ١٠/ ٣٢١ دون نسبة.

وهذا كلامٌ صحيح، إلا في الفأل فإن الشرع استثناه وأقرَّبه، فلا يُقبل من هذا الشاعر ما نَظَمه فيه؛ فإنه تكلم بجهل، وصاحبُ الشرع أصدقُ وأعلم وأحكم.

قلت: قد مضى في الطِّيرَة والفأل وفي الفرق بينهما ما يكفي في «المائدة»[١] وغيرها. ومضى في «الأنعام»[٢] أنَّ الله سبحانه منفرِدٌ بعلم الغيب، وأن أحداً لا يعلم من ذلك إلا ما أعلمه اللهُ، أو يجعل على ذلك دلالةً عادية يعلم بها ما يكون على جري العادة، وقد يختلف، مثاله: إذا رأى نخلةً قد أطلَعَت، فإنه يعلم أنها ستثمر، وإذا رآها قد تناثر طَلْعُها عَلِم أنها لا تثمر. وقد يجوز أن يأتي عليها آفةٌ تُهلك ثمرَها فلا تثمر؛ كما أنه جائز أن تكون النخلة التي قد تناثر طَلْعُها يُطلع اللهُ فيها طلعاً ثانياً فتثمر. وكما أنه جائز ـ أيضاً ـ ألّا يلي شهرَه شهرٌ ولا يومَه يوم إذا أراد اللهُ إفناءَ العالَم ذلك الوقت. إلى غير ذلك مما تقدَّم في «الأنعام» بيانُه.

الرابعة: قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد: قوله تعالى: ﴿أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ يريد الخطَّ. وقد كان مالك رحمه اللهُ يحكم بالخطّ إذا عرَف الشاهدُ خطَّه. وإذا عرف الحاكم خطَّه أو خطَّ من كتب إليه حكَم به، ثم رجع عن ذلك حين ظهر في الناس ما ظهر من الحِيل والتزوير. وقد روي عنه أنه قال: يُحدِث الناس فجوراً فتحدث لهم أقضية. فأمّا إذا شهد الشهود على الخطِّ المحكوم به؛ مثل أن يشهدوا أن هذا خطُّ الحاكم وكتابُه، أَشهدنا على ما فيه وإن لم يعلَموا ما في الكتاب. وكذلك الوصية أو خطّ الرجل باعترافه بمالٍ لغيره يشهدون أنه خطه، ونحو ذلك، فلا يختلف مذهبه أنه يحكم به[٣].

وقيل: «أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْم»: أو بقية من علم؛ قاله ابن عباس والكلبي[٤] وأبو بكر

(١) ٧/ ٢٩٠.

(٢) ٨/ ٤٠٢ وما بعدها.

(٣) ينظر الكافي لابن عبد البرّ ٢/ ٩١٥.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٦٣.

ابن عياش[(١)] وغيرهم. وفي الصحاح[(٢)] «أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ»: بقية منه. وكذلك الأَثَرَة، بالتحريك. ويقال: سَمِنت الإبل على أثارة، أي: بقية شحم كان قبل ذلك. وأنشد الماورديُّ[(٣)] والثعلبي قولَ الراعي:

وذاتِ أثـارة أكـلـتْ عـلـيـهـا نـبـاتـاً فـي أكـمَّـتـه قِـفـارا[(٤)]

وقال الهَرَوي: والأثارة والأثر: البقيَّة؛ يقال: ما ثَمَّ عين ولا أثر. وقال ميمون ابن مِهرانَ وأبو سَلَمة بن عبد الرحمن وقتادة: «أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ»: خاصة من علم[(٥)]. وقال مجاهد: روايَةٍ تأثرونها عمَّن كان قبلكم[(٦)]. وقال عكرمة ومقاتل: رواية عن الأنبياء[(٧)]. وقال القُرَظِي: هو الإسناد[(٨)]. الحسن: المعنى شيء يثار أو يستخرج[(٩)]. وقال الزجاج[(١٠)]: «أَوْ أَثَارَةٍ» أي: علامة. والأثارة مصدر كالسماحة والشجاعة[(١١)]. وأصل الكلمة من الأَثَر، وهي الرواية؛ يقال: أثرت الحديث آثُرهُ أَثْرًا وأَثَارَةً وأُثْرة فأنا آثر؛ إذا ذكرتَه عن غيرك. ومنه قيل: حديث مأثور، أي: نقله خَلَف عن سَلَف. قال الأعشى:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٧١، وأخرجه عنه الطبري ٢١/ ١١٥.

(٢) مادة: (أثر).

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٢٧١.

(٤) ديوان الراعي النميري ص١٤٢، وجاء في النسخ الخطية: قصارا، بدل: قفارا، والمثبت من (م)، ونسب البيت أيضاً للشماخ، وهو في ديوانه ص٤٤٥.

قوله: في أكمّته أي: في غُلفه، جمع كِمام، وهو جمع كِمّ، والكِمّ: غطاء النَّور وغلافه. وقوله: قِفارا أي: خالياً من الناس. قَرَعَته الناقةُ وحدها. وقفار: وصف نبات. الخزانة ١٠/ ١٤١.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٧١، وأخرجه الطبري ٢١/ ١١٤.

(٦) أخرجه الطبري ٢١/ ١١٤ - ١١٥.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ١٦٣.

(٨) المحرر الوجيز ٥/ ٩٢.

(٩) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢١٥، والطبري ٢١/ ١١٤.

(١٠) في معاني القرآن له ٤/ ٤٣٨.

(١١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٥٠.

إن الـــذي فـيــه تَـمَــارَيْـتُـمَــا بُــيِّــن لـلـــســـامــع والآثــر

ويروى: «بَيَّنَ»[١] وقرئ: «أَوْ أُثْرَة» بضم الهمزة وسكون الثاء. ويجوز أن يكون معناه: بقية من علم. ويجوز أن يكون معناه: شيئاً مأثوراً من كتب الأوَّلين[٢]. والمأثور: ما يُتحدَّث به مما صحَّ سنده عمن تُحدِّث به عنه .

وقرأ السُّلَمِيُّ والحسن وأبو رجاء بفتح الهمزة والثاء من غير ألف[٣]، أي: خاصة من علم أُوتيتموها، أو أوثرتم بها على غيركم. وروي عن الحسن أيضاً وطائفة: «أَثْرةٍ» مفتوحة الألف ساكنة الثاء؛ ذكر الأولى الثعلبيُّ والثانية الماورديُّ[٤]. وحكى الثعلبي عن عكرمة: أو ميراث من علم[٥]. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ فيه بيان مسالك الأدلة بأسرها، فأوّلها المعقول، وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وهو احتجاجٌ بدليل العقل في أن الجمادَ لا يصحُّ أن يُدعى من دون الله؛ فإنه لا يَضرُّ ولا ينفع. ثم قال: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ فيه بيان أدلة السمع ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾[٦].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ أي: لا أحدَ أضلُّ وأجهل ﴿مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن

---

(١) الصحاح (أثر)، والبيت في ديوان الأعشى ص ١٩١، وغريب الحديث ٢/ ٥٩، والمحرر الوجيز ٥/ ٩٢، والخزانة ٣/ ٤٠٠، ورواية الديوان والخزانة: والناظر، بدل: والآثر.

(٢) زاد المسير ٧/ ٣٧٠.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٣٩، والمحتسب ٢/ ٢٦٤.

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٢٧١، وذكرها أيضاً ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٦٩.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٩٢.

(٦) أحكام القرآن للكيا ٤/ ٣٧١.

﴿لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ وهي الأوثان. ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ﴾ يعني لا يسمعون ولا يفهمون؛ فأخرجها ـ وهي جمادٌ ـ مخرجَ ذكورِ بني آدم؛ إذ قد مَثَّلَتها عبدتُها بالملوك والأمراء التي تُخدم[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ يريد يوم القيامة. ﴿كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ أي: هؤلاء المعبودون أعداء الكفارِ يومَ القيامة. فالملائكة أعداء الكفار، والجنُّ والشياطين يتبرؤون غداً من عبدتهم، ويلْعَن بعضُهم بعضاً. ويجوز أن تكون الأصنامُ للكفار الذين عبدوها أعداءً؛ على تقدير خلق الحياة لها؛ دليلُه قوله تعالى: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾[2] [القصص: ٦٣]. وقيل: عادوا معبوداتهم لأنهم كانوا سبب هلاكهم، وجحد المعبودون عبادتهم؛ وهو قوله: ﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ﴾ يعني القرآن. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ الميم صلةٌ، التقدير: أيقولون افتراه، أي: تقوَّله محمدٌ. وهو إضرابٌ عن ذكر تسميتهم الآيات سحراً. ومعنى الهمزة في «أم» الإنكارُ والتعجبُ، كأنه قال: دعْ هذا واسمع قولَهم المستنكَر المقضي[3] منه العجبُ، وذلك

---

(١) تفسير الطبري ٢١/١١٧ .

(٢) الكلام بنحوه في تفسير أبي الليث السمرقندي ٣/ ٢٣٠ ، والوسيط ٤/ ١٠٣ .

(٣) في (د)، والكشاف ٣/ ٥١٦ : «المفضي».

أن محمداً كان لا يقدرُ عليه حتى يقولَه ويفترِيَه على الله، ولو قدر عليه دون أُمّة العرب لكانت قدرته عليه معجزةً لخرقها العادة، وإذا كانت معجزة كانت تصديقاً من اللهِ له، والحكيم لا يصدِّق الكاذب فلا يكون مفترياً، والضمير للحق، والمراد به الآيات. ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ على سبيل الفَرْض. ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: لا تقدرون على أن تردُّوا عني عذابَ الله؛ فكيف أفتري على الله لأجلكم؟![1]. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: تقولونه؛ عن مجاهد[2]. وقيل: تخوضون فيه من التكذيب[3]. والإفاضة في الشيء: الخوض فيه والاندفاع. أفاضوا في الحديث، أي: اندفعوا فيه. وأفاض البعير، أي: دفع جِرَّته من كَرِشِه فأخرجها؛ ومنه قول الشاعر:

وأفَضْنَ بعد كُظُومِهِنَّ بِجِرَّةٍ[4]

وأفاض الناس من عرفاتٍ إلى مِنًى، أي: دفعوا، وكلُّ دَفْعة إفاضةٌ[5].

﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا﴾ نصب على التمييز. ﴿بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: هو يعلَمُ صدقي وأنكم مبطِلُون. ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لمن تاب ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: أوّل من أُرسل، قد كان قبلي رسل؛ عن ابن عباس وغيره[6]. والبِدْعُ: الأوّل.

---

(١) الوسيط ٤/١٠٣، وتفسير البغوي ٤/١٦٣.

(٢) تفسير مجاهد ٢/٥٩٣، وأخرجه عنه الطبري ٢١/١١٨.

(٣) تفسير البغوي ٤/١٦٣.

(٤) صدر بيت للراعي النميري، وهو في ديوانه ص ٢٢٤، وسلف ٥/٣١٨، وعجزه: من ذي الأبارق إذ رَعَيْن حقيلا وقوله: كظومهن بجرة. قال الفيروز: كظم البعير كظوماً: أمسَكَ عن الجِرة. والجِرَّة: وما يفيض به البعير فيأكله ثانيةً، واللقمة يتعلل بها البعير إلى وقت عَلَفِه. القاموس (كظم وجرر).

(٥) الصحاح (فيض)، وبنحوه في تهذيب اللغة ١٢/٧٧ - ٧٨.

(٦) أخرجه الطبري ٢١/١١٩ - ١٢٠، وابن أبي حاتم كما في تغليق التعليق ٤/٣١١.

وقرأ عكرمة وغيره: «بِدَعًا» بفتح الدال، على تقدير حذفِ المضاف؛ والمعنى: ما كنتُ صاحبَ بِدَعٍ[(١)].

وقيل: بِدْع وبديع بمعنًى؛ مثلُ: نصف ونصيف. وأبدع الشاعر: جاء بالبديع. وشيء بِدْع ـ بالكسر ـ أي: مبتدَع. وفلان بِدْعٌ في هذا الأمر، أي: بديع. وقوم أبداع؛ عن الأخفش[(٢)]. وأنشد قُطْرُب قولَ عديٍّ بن زيد:

فلا أنا بِدْعٌ من حوادثَ تعتري رجالاً غدت من بعد بؤسي بأسعدِ[(٣)]

﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ يريد يوم القيامة ـ ولـمَّا نزلَت فَرِحَ المشركون واليهود والمنافقون، وقالوا: كيف نتبع نبيًّا لا يدري ما يُفعل به ولا بِنا، وأنه لا فضل له علينا، ولولا أنه ابتدع الذي يقوله من تلقاء نفسه لأخبره الذي بعثه بما يفعلُ به؛ فنزلَت: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] فنسخت هذه الآية، وأرغم اللهُ أنفَ الكفارِ. وقالت الصحابة: هنيئًا لك يا رسولَ الله، لقد بيَّن اللهُ لك ما يَفعلُ بك يا رسولَ الله، فليت شِعرنا ما هو فاعلٌ بنا؟ فنزلت: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [الفتح: ٥] الآية. ونزلت: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا﴾[(٤)] [الأحزاب: ٤٧] ـ قاله أنسٌ وابن عباس وقتادة والحسن وعكرمة والضحاك[(٥)].

---

(١) المحتسب ٢/ ٢٦٤، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٣٩ عن أبي حيوة.

(٢) ينظر معاني القرآن له ٢/ ٦٩٣ ولم نقف على كلامه بتمامه ثمة، وهو بنحوه في تفسير الطبري ٢١/ ١١٩ والبغوي ٤/ ١٦٤ دون نسبة.

(٣) تفسير الطبري ٢١/ ١١٩، والمحرر الوجيز ٥/ ٩٢، والحماسة البصرية ٢/ ٤٩، وجمهرة أشعار العرب ١/ ٥٠٠، وفي بعضها: عرت، بدل: غدت، و«أسعدُ»، بدل: بأسعد، وهو بهذا اللفظ في النكت والعيون ٥/ ٢٧٢.

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ١٢١ عن عكرمة والحسن البصري بنحوه، وسيذكره المصنف عن عطاء عن ابن عباس أول سورة الفتح، وسيرد في الفتح أيضاً خبر قول الصحابة: هنيئاً لك يا رسول الله... الخ، وهو من حديث أنس ﷺ، وهو في الصحيح، وليس فيه ذكر لآية الأحقاف.

(٥) يعني قولهم في تفسير الآية أعلاه: يريد يوم القيامة، كما في المحرر الوجيز ٥/ ٩٤، وزاد المسير ٧/ ٣٧٣.

وقالت أمُّ العلاء ـ امرأة من الأنصار ـ: اقتسمنا المهاجرين، فطار لنا عثمان بن مَظْعُون بن حُذافة بن جُمَح، فأنزلناه أبياتنا، فَتُوفِّيَ، فقلت: رحمةُ الله عليك أبا السائب! إن الله أكْرَمك. فقال النبيُّ ﷺ: «وما يدريكِ أن الله أكرمه»؟ فقلت: بأبي وأمي يا رسولَ الله! فمن؟! قال: «أمَّا هو فقد جاءه اليقينُ، وما رأينا إلا خيراً، فواللهِ إني لأَرجو له الجَنَّة، وواللهِ إني لَرسولُ اللهِ، وما أدري ما يفعل بي ولا بكم». قالت: فواللهِ لا أزكّي بعدَه أحداً أبداً[1]. ذكره الثعلبيُّ، وقال: وإنما قال هذا حين لم يعلَم بغفران ذَنْبِه، وإنَّما غفَر اللهُ له ذنبَه في غَزْوَةِ الحُدَيْبِيَة قبل موته بأربع سنين.

قلت: حديثُ أمِّ العلاء خَرَّجه البخاريُّ، وروايتي فيه: «وما أدري ما يُفعل به» ليس فيه: «بي ولا بكم»، وهو الصحيح إن شاء اللهُ[2]، على ما يأتي بيانه. والآية ليست بمنسوخة؛ لأنها خبر.

قال النحاس[3]: محالٌ أن يكون في هذا ناسخ ولا منسوخ من جهتين: أحدهما أنه خبر، والآخر أنه من أوَّل السورة إلى هذا الموضع خطابٌ للمشركين واحتجاجٌ عليهم وتوبيخ لهم؛ فوجب أن يكون هذا ـ أيضاً ـ خطاباً للمشركين كما كان قبلَه وما بعده، ومحال أن يقولَ النبيُّ ﷺ للمشركين: ما أدري ما يُفعل بي ولا بكم في

---

(١) أخرجه بنحوه الإمام أحمد (٢٧٤٥٧)، والبخاري (١٢٤٣) عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أمّ العلاء. وأم العلاء الأنصارية، من المبايعات، حديثها عند أهل المدينة، وقيل: هي بنت الحارث بن ثابت. الإصابة ١٣/ ٣٥٥.

(٢) رواية: «وما أدري ما يفعل به» أخرجها البخاري - كما قال المصنف رحمه الله - (٢٦٨٧)، ورواية: «ما يفعل بي ولا بكم» أخرجها البخاري - أيضاً - (٧٠١٨) وهي عند الإمام أحمد (٢٧٤٥٨).

وأما قول المصنف - فيما يتعلق برواية: «ما يفعل به» -: وهو الصحيح؛ فقد قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٣/ ١١٥ - ١١٦: في رواية الكشميهني «به» وهو غلط منه... وإنما قال رسول الله ﷺ ذلك - أي: «ما يفعل بي ولا بكم» - موافقة لقوله تعالى في سورة الأحقاف. ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡ﴾ وكان ذلك قبل نزول قوله تعالى: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ ...

(٣) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٦٢٨ - ٦٢٩.

الآخرة، ولم يَزَل ﷺ من أوَّل مبعثه إلى مماته يخبر أنَّ مَن مات على الكفر مخلَّد في النار، ومن مات على الإيمان واتبعه وأطاعه فهو في الجنة، فقد رأى ﷺ ما يفعل به وبهم في الآخرة. وليس يَجوز أن يقول لهم: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الآخرة؛ فيقولون: كيف نتبعك وأنت لا تدري أتصير إلى خفضٍ ودَعة، أم إلى عذابٍ وعقاب؟!.

والصحيح في الآية قولُ الحسن، كما قرئ على محمد[١] بن جعفر بن حفص، عن يوسف بن موسى، قال حدَّثنا وكيع قال: حدَّثنا أبو بكر الهذلي، عن الحسن: «وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ فِي الدُّنْيَا»[٢] قال أبو جعفر[٣]: وهذا أصحُّ قولٍ وأحسنه، لا يدري ﷺ ما يَلحقه وإياهم من مرضٍ وصحَّة، ورُخصٍ وغلاء، وغنًى وفقر. ومثله: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [الأعراف:١٨٨]. وذكر الواحديُّ وغيره، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس: لمَّا اشتد البلاءُ بأصحاب رسولِ الله ﷺ رأى في المنام أنه يهاجر إلى أرضٍ ذات نخلٍ وشجر وماء، فقصَّها على أصحابه، فاستبشروا بذلك، ورأوا فيها فَرَجاً ممَّا هم فيه من أذى المشركين، ثم إنهم مَكَثوا بُرْهةً لا يرون ذلك، فقالوا: يا رسول الله، متى نُهاجر إلى الأرض التي رأيتَ؟ فسكت النبيُّ ﷺ، فأنزل اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ أي: لا أدري أأخرجُ إلى الموضع الذي رأيته في منامي أم لا. ثم قال: «إنما هو شيء رأيتُه في منامي ما أتبع إلا ما يُوحَى إليَّ»[٤] أي: لم يوح إليَّ ما أخبرتكم به. قال القُشَيريُّ: فعلى هذا لا نسخَ في الآية. وقيل: المعنى: لا أدري ما

---

(١) في النسخ: كما قرأ علي بن محمد، والمثبت من الناسخ والمنسوخ للنحاس.

(٢) وأخرجه أيضاً الطبري ٢١/ ١٢٢ - ١٢٣ مطولاً، وسيأتي قريباً.

(٣) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٦٢٩.

(٤) أسباب النزول للواحدي ص ٤٠١. وإسناده ضعيف، وذكره عن ابن عباس - أيضاً - البغوي في تفسيره ٤/ ١٦٤، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٧٢، والرازي ٢٨/ ٨، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩٥ عنه مختصراً، وأبو الليث السمرقندي ٣/ ٢٣٠ عن الكلبي.

يُفْرَض عليَّ وعليكم من الفرائض.

واختار الطبريُّ[1] أن يكون المعنى: ما أدري ما يَصيرُ إليه أمري وأمرُكم في الدنيا، أتؤمنون أم تكفرون، أم تُعاجَلون بالعذاب أم تؤخَّرون.

قلت: وهو معنى قولِ الحسن والسُّدِّيِّ وغيرِهما. قال الحسن: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا، أما في الآخرة فَمَعاذَ الله! قد عُلم أنه في الجنة حين أخذ ميثاقه في الرسل، ولكن قال: ما أدري ما يفعل بي في الدنيا أَأُخرج كما أُخرجت الأنبياء قبلي، أو أُقتل كما قُتلت الأنبياء قبلي؛ ولا أدري ما يفعل بكم، أَأُمَّتي المصدِّقة أم المكذِّبة، أم أمتي المرمية بالحجارة من السماء قَذْفاً، أو مخسوفٌ بها خَسْفاً؛ ثم نزلت: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الفتح: ٢٨]. يقول: سيُظهر دينَه على الأديان. ثم قال في أمته: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]. فأخبرَه تعالى بما يصنع به وبأمته[2].

ولا نسخَ على هذا كلِّه، والحمدُ لله. وقال الضحاك أيضاً: «ما أدري ما يفعل بي ولا بكم» أي: ما تؤمرون به وتنهون عنه[3]. وقيل: أمرَ النبيُّ ﷺ أن يقول للمؤمنين: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في القيامة، ثم بيَّن اللهُ تعالى ذلك في قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] وبيَّن فيما بعد ذلك حالَ المؤمنين، ثم بيَّن حالَ الكافرين[4].

قلت: وهذا معنى القول الأوّل، إلا أنه أطلَق فيه النسخَ بمعنى البيان، وأنه أمَرَ أن يقول ذلك للمؤمنين، والصحيحُ ما ذكرناه عن الحسن وغيرِه.

---

(١) في تفسيره ٢١/ ١٢٣، والقول الذي قبله منه.

(٢) أخرجه الطبري ٢١/ ١٢٢، وفي إسناده أبو بكر الهذلي؛ قال الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب: أخباري متروك الحديث.

(٣) ذكره عنه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٧٣، والرازي في تفسيره ٢٨/ ٨، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩٤ دون نسبة.

(٤) تفسير الطبري ٢١/ ١٢٠.

و«ما» في ﴿مَا يُفْعَلُ﴾: يَجوز أن تكون موصولةً، وأن تكون استفهامية مرفوعة. ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وقرئ: «يُوحِي» أي: اللهُ عزَّ وجلَّ[١]. تقدَّم في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يعني القرآن. ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ وقال الشعبيُّ: المرادُ محمدٌ ﷺ[٢]. ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قال ابن عباس والحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد: هو عبدُ الله بن سَلَام، شهِدَ على اليهود أن رسولَ الله ﷺ مذكورٌ في التوراة، وأنه نبيٌّ من عند الله[٣].

وفي الترمذي[٤] عنه: ونَزَلت فيَّ آياتٌ من كتاب الله، نزلت فيَّ: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وقد تقدَّم في آخر سورة الرعد[٥].

وقال مسروق: هو موسى والتوراة، لا ابنُ سَلَام؛ لأنه أسلَم بالمدينة، والسورةُ مكيةٌ. وقال: وقوله: ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ مخاطبة لقريش.

الشعبيُّ: هو مَن آمن مِن بني إسرائيل بموسى والتوراة؛ لأن ابن سَلَام إنما أسلَم قبل وفاة النبيِّ ﷺ بعامين، والسورةُ مكية[٦].

---

(١) الكشاف ٣/ ٥١٨، وذكر القراءة أيضاً أبو حيان في البحر ٨/ ٧٥، وهي قراءة شاذة.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٧٣.

(٣) تفسير مجاهد ٢/ ٥٩٣، وتفسير الطبري ٢١/ ١٢٨-١٣٠، وتفسير عبد الرزاق ٢/ ٢١٥، والنكت والعيون ٥/ ٢٧٣.

(٤) برقم (٣٢٥٦).

(٥) ١٢/ ٩٨.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٧٣، وبنحوه في تفسير الطبري ٢١/ ١٢٥ - ١٢٦.

قال القُشَيْرِيُّ: ومن قال: الشاهدُ موسى، قال: السورة مكية، وأسلَم ابنُ سَلَام قبلَ موتِ النبيِّ ﷺ بعامين[١]. ويجوز أن تكون الآيةُ نَزَلت بالمدينة وتوضع في سورةٍ مكية؛ فإن الآية كانت تنزل فيقول النبيُّ ﷺ ضعوها في سورة كذا[٢].

والآيةُ في مُحاجَّة المشركين، ووجهُ الحجَّة أنهم كانوا يراجعون اليهودَ في أشياء، أي: شهادتهم لهم وشهادة نبيِّهم لي من أوضح الحجج. ولا يبعد أن تكون السورةُ في مُحاجَّة اليهود، ولمَّا جاء ابن سَلَام مُسْلِمًا من قبل أن تعلم اليهود بإسلامه قال: يا رسولَ الله، اجعلني حَكَماً بينك وبين اليهود، فسألهم عنه: «أيُّ رجلٍ هو فيكم؟» قالوا: سَيِّدُنا وعالِمُنا. فقال: «إنه قد آمن بي» فأساؤوا القولَ فيه... الحديث، وقد تقدَّم[٣]. قال ابن عباس: رضيَت اليهودُ بحكم ابن سلام، وقالت للنبيِّ ﷺ: إن يشهد لك آمنَّا بك؛ فسئل فشهِد ثم أسلَم[٤]. ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ أي: على مثل ما جئتكم به، فشهِد موسى على التوراة، ومحمدٌ على القرآن. وقال الجُرْجَانيُّ. «مِثْل» صلة، أي: وشهد شاهدٌ عليه أنه من عند الله. ﴿فَـَٔامَنَ﴾ أي: هذا الشاهد. ﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أنتم عن الإيمان. وجوابُ «إنْ كَانَ» محذوفٌ تقديره: فآمن، أتؤمنون؟ قاله الزجاج[٥].

وقيل: «فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ» أليس قد ظلمتم؟ يبيِّنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وقيل: «فَآمَنَ واسْتَكْبَرْتُمْ» أفتأْمنون عذابَ الله؟[٦]. و«أَرَأَيْتُمْ» لفظٌ موضوع للسؤال والاستفهام؛ ولذلك لا يقتضي مفعولاً. وحكى النقاشُ وغيره: أن في الآية تقديماً وتأخيراً، وتقديره: قل أرأيتم إن كان من عند الله وشهِد شاهدٌ من بني إسرائيل فآمن هو وكفرتم، إن الله لا يهدي القوم الظالمين[٧].

---

(١) سلف قول القشيري هذا ١٢/ ٩٩ .

(٢) ذكر هذا القول الرازيُّ في تفسيره ٢٨/ ١٠ عن الكلبي .

(٣) أخرجه الإمام أحمد (١٢٠٥٧) ، والبخاري (٣٣٢٩) من حديث أنس ﷺ بنحوه .

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ١٢٧ - ١٢٨ بنحوه .

(٥) في معاني القرآن له ٤/ ٤٤٠ ، وذكر هذا الكلام البغويُّ في تفسيره ٤/ ١٦٥ .

(٦) الوسيط ٤/ ١٠٤ - ١٠٥ ، وزاد المسير ٧/ ٣٧٤ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٢٧٤ .

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ اختلف في سبب نزولها على ستة أقوال:

الأوّل: أنَّ أبا ذَرٍّ الغفاريَّ دعاه النبيُّ ﷺ إلى الإسلام بمكة فأجاب، واستجار به قومُه، فأتاه زعيمُهم فأسلَم، ثم دعاهم الزعيمُ فأسلَموا، فبلغَ ذلك قريشاً، فقالوا: غفارٌ الحلفاء لو كان هذا خيراً ما سَبقونا إليه؛ فنزلَت هذه الآيةُ، قاله أبو المتوكل[(١)].

الثاني: أن زِنِّيرة أسلَمت فأصيب بصرُها، فقالوا لها: أصابك اللاتُ والعزَّى؛ فردَّ اللهُ عليها بصرَها. فقال عظماء قريش: لو كان ما جاء به محمدٌ خيراً ما سبقتْنا إليه زِنِّيرة؛ فأنزَل اللهُ تعالى هذه الآية؛ قاله عروة بنُ الزبير[(٢)].

الثالث: أن الذين كفَروا هم بنو عامر، وغَطَفان، وتميم، وأسَد، وحَنْظَلة، وأشْجَع، قالوا لمن أسلَم مِن غِفار وأسلَم وجُهينة ومُزينة وخزاعة: لو كان ما جاء به محمدٌ خيراً ما سبقتنا إليه رُعَاةُ الْبَهْم؛ إذ نحن أعزُّ منهم؛ قاله الكلبيُّ والزَّجَّاج[(٣)]، وحكاه القُشَيْريُّ عن ابن عباس.

وقال قتادة: نزَلت في مشركي قريش، قالوا: لو كان ما يدعونا إليه مُحمدٌ خيراً ما

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٧٤ ، وزاد المسير ٧/ ٣٧٥ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٧٤ ، وأخرج نحوه الواحدي في الوسيط ٤/ ١٠٥ عن أبي الزناد ، عن أبيه ، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٧٥ عن أبي الزناد ، دون ذكر زِنِّيرة .

وزِنيرة هي مولاة أبي بكر الصديق ﷺ وهي أحد السبعة الذين كانوا يعذَّبون في الله ، فاشتراهم أبو بكر ، وأعتقهم . ينظر الاستيعاب على هامش الإصابة ١٣/ ١٤ - ١٥ .

(٣) في معاني القرآن له ٤/ ٤٤٠ ، وذكره أيضاً الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٧٤ ، والبغوي في تفسيره ٤/ ١٦٦ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩٥ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٧٥ دون ذكر تميم وحنظلة وخزاعة .

سبقنا إليه بِلال وصُهيب وعَمَّار وفلانٌ وفلان[١]. وهو القول الرابع.

القول الخامس: أن الذين كفروا من اليهود قالوا للذين آمنوا ـ يعني عبد الله بن سلام وأصحابه ـ: لو كان دين محمد حقًّا ما سبقونا إليه؛ قاله أكثر المفسرين، حكاه الثعلبيُّ[٢].

وقال مسروقٌ: إن الكفار قالوا: لو كان خيراً ما سبقتنا إليه اليهود؛ فنزلت هذه الآية.

وهذه المعارضةُ من الكفار في قولهم: لو كان خيراً ما سبقونا إليه من أكبرِ المعارضات بانقلابها عليهم لكلِّ من خالَفهم؛ حتى يقال لهم: لو كان ما أنتم عليه خيراً ما عدلنا عنه، ولو كان تكذيبكم للرسول خيراً ما سبقتمونا إليه؛ ذكره الماورديُّ[٣].

ثم قيل: قوله: ﴿مَا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾ يجوز أن يكون من قول الكفار لبعض المؤمنين، ويجوز أن يكون على الخروج من الخطاب إلى الغيبة؛ كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾[٤] [يونس: ٢٢]. ﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ﴾ يعني الإيمان. وقيل: القرآن. وقيل: محمد ﷺ. ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٌ قَدِيمٌ﴾ أي: لمَّا لم يصيبوا الهدى بالقرآن ولا بمن جاء به؛ عادَوْه ونسبُوه إلى الكذب، وقالوا: هذا إفك قديمٌ؛ كما قالوا: أساطير الأوَّلين[٥]. وقيل لبعضهم: هل في القرآن: مَن جَهِل شيئاً عاداه؟ فقال: نعم، قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٌ قَدِيمٌ﴾ ومثله:

(١) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٦١ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩٥ ، وأخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/ ٢١٦ ، والطبري ٢١/ ١٣٢ - ١٣٣ ، وينظر ما سلف ١٥/ ٣٩١ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٩٥ .

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٢٧٤ - ٢٧٥ ، وقول مسروق هو القول السادس .

(٤) تفسير الرازي ٢٨/ ١١ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٦٦ بنحوه .

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾ [يونس: ٣٩].

قوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: ومن قبل القرآن ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أي: التوراة ﴿إِمَامًا﴾ يقتدى بما فيه ﴿وَرَحْمَةً﴾ من اللهِ. وفي الكلام حذفٌ؛ أي: فلم يهتدوا به. وذلك أنه كان في التوراة نعتُ النبيِّ ﷺ والإيمانُ به، فتركوا ذلك. و«إِمَامًا» نصب على الحال؛ لأن المعنى: وتقدَّمه كتابُ موسى إماماً. «وَرَحْمَةً» معطوف عليه. وقيل: انتصب بإضمار فعلٍ، أي: أنزلناه إماماً ورحمة[1]. وقال الأخفش[2]: على القطع؛ لأن كتاب موسى معرفةٌ بالإضافة؛ لأن النكرة إذا أعيدت أو أُضيفت أو أدخل عليها ألف ولام صارت معرفةً. ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ يعني القرآن ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ يعني للتوراةِ ولِمَا قبلَه من الكتب. وقيل: مصدِّق للنبيِّ ﷺ. ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ منصوب على الحال؛ أي: مصدِّق لِمَا قبلَه عربيًّا، و﴿لِّسَانًا﴾ توطئة للحال، أي: تأكيد؛ كقولهم: جاءني زيدٌ رجلاً صالحاً، فتذكر رجلاً توكيداً[3]. وقيل: نصب بإضمار فعل تقديره: وهذا كتابٌ مصدِّق؛ أعني لساناً عربيًّا. وقيل: نصب بإسقاط حرفِ الخفض تقديره: بلسانٍ عربيٍّ. وقيل: إن لساناً مفعول، والمراد به النبيُّ ﷺ، أي: وهذا كتاب مصدِّقٌ للنبيِّ ﷺ لأنه معجزته؛ والتقدير: مصدِّق ذا لسان عربيٍّ. فاللسان منصوب بمصدِّق، وهو النبيُّ ﷺ. ويبعد أن يكون اللسان القرآنَ؛ لأن المعنى يكون يصدِّق نفسَه[4]. ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ قراءة العامة: «لِيُنْذِرَ» بالياء خبرٌ عن الكتاب، أي: لينذر الذين ظلموا أنفسَهم بالكفر والمعصية.

---

(١) الكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٤٠ - ٤٤١ ، والوسيط ٤/ ١٠٥ - ١٠٦ .

(٢) ينظر كلامه في معاني القرآن له ٢/ ٦٩٣ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٤١ ، والوسيط ٤/ ١٠٦ .

(٤) تفسير الطبري ٢١/ ١٣٤ ، وبنحوه في معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٩٣ .

وقيل: هو خبرٌ عن الرسول ﷺ. وقرأ نافعٌ وابن عامر والبَزِّيُّ: بالتاء[١]، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ على خطاب النبيّ ﷺ، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ﴾ [الرعد:٧]. ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ «بُشْرَى» في موضع رفع[٢]، أي: وهو بشرى. وقيل: عطفاً على الكتاب، أي: وهذا كتاب مصدِّقٌ وبشرى. ويجوز أن يكون منصوباً بإسقاط حرف الخفض، أي: لينذر الذين ظلَموا، وللبشرى؛ فلمَّا حذف الخافض نصب. وقيل: على المصدر، أي: وتبشر المحسنين بشرى، فلمَّا جعل مكان وتبشر بشرى أو بشارة؛ نصب؛ كما تقول: أتيتك لأزورَك، وكرامةً لك وقضاءً لحقك؛ يعني لأزورك وأكرمك وأقضي حقَّك؛ فنصب الكرامة بفعلٍ مضمر[٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ الآية تقدَّم معناها[٤]. وقال ابن عباس: نزلت في أبي بكر الصدِّيق[٥]. والآية تعمُّ. ﴿جَزَآءًۢ﴾ نصب على المصدر[٦].

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًاۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًاۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾

فيه سبع مسائل:

---

(١) السبعة ص٥٩٦، والتيسير ص١٩٩.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٦٢، وينظر الكشف عن وجوه القراءات السبع ٢/ ٢٧١.

(٣) تفسير الطبري ٢١/ ١٣٥، وينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٥١ - ٥٢.

(٤) عند تفسير الآية (٣٠) من سورة فصلت.

(٥) تفسير أبي الليث السمرقندي ٣/ ٢٣٢، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٤٠ لابن عساكر.

(٦) إملاء ما من به الرحمن ٤/ ٣٢٠ على هامش الفتوحات الإلهية.

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا﴾ بيَّن اختلافَ حالِ الإنسان مع أبويه، فقد يُطيعهما وقد يُخالفهما، أي: فلا يَبعُد مثلُ هذا في حقِّ النبيِّ ﷺ وقومِه حتى يَستجيب له البعضُ ويَكفُر البعض. فهذا وجهُ اتصال الكلام بعضه ببعض؛ قاله القشيري[(١)].

الثانية: قوله تعالى: ﴿حُسْنًا﴾ قراءة العامة: «حُسْنًا» وكذا هو في مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشامِ. وقرأ ابن عباس والكوفيون: «إِحْسَاناً» وحُجتهم قوله تعالى في سورة الأنعام [الآية:١٥١] وبني إسرائيل [الآية:٢٣]: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ وكذا هو في مصاحف الكوفة.

وحجةُ القراءة الأولى قولُه تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾[(٢)] [الآية:٨]، ولم يختلفوا فيها. والحُسْن خلاف القُبْح. والإحسان خلاف الإساءة[(٣)]. والتوصية: الأمر. وقد مضى القول في هذا وفيمن نزلت[(٤)].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أي: بكرهٍ ومشقَّة[(٥)]. وقراءة العامة بفتح الكاف. واختاره أبو عبيد، قال: وكذلك لفظ الكره في كلِّ القرآن ـ بالفتح ـ إلا التي في سورة البقرة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [الآية:٢١٦] لأن ذلك اسمٌ، وهذه كلُّها مصادر. وقرأ الكوفيون: «كُرْهًا» بالضم[(٦)]. قيل: هما لغتان مثل الضُّعْف والضَّعْف، والشُّهْد والشَّهْد[(٧)]؛ قاله الكسائيُّ، وكذلك

(١) بعدها في (ظ) زيادة: وقتادة.

(٢) قرأ: «إحساناً» عاصم وحمزة والكسائي، وقرأ الباقون من السبعة: «حسناً» السبعة ص٥٩٦، والتيسير ص١٩٩، وينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٥٢، والطبري ٢١/ ١٣٦ - ١٣٧.

(٣) تفسير الرازي ٢٨/ ١٤.

(٤) ١٣/ ٣٢٨ - ٣٢٩.

(٥) تفسير الطبري ٢١/ ١٣٧.

(٦) قرأ بالضم عاصم وحمزة والكسائي وابن عامر في رواية ابن ذكوان، والباقون من السبعة؛ بالفتح. السبعة ص ٥٩٦، والتيسير ص ١٩٩.

(٧) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ٢٨/ ١٤.

هو عند جميع البصريين. وقال الكسائيُّ أيضاً والفرَّاء في الفرْق بينهما: إن الكُره ـ بالضم ـ ما حمل الإنسان على نفسه، وبالفتح ما حمل على غيره[(١)]؛ أي: قهْراً وغَضَباً؛ ولهذا قال بعض أهل العربية: إن كَرهاً ـ بفتح الكاف ـ لَحنٌ[(٢)].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ قال ابن عباس: إذا حَمَلَت تسعة أشهر أرضعت إحدى وعشرين شهرًا، وإن حملَت ستة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهراً[(٣)].

وروي أن عثمان قد أتي بامرأةٍ قد ولدت لستة أشهر، فأراد أن يقضي عليها بالحدِّ؛ فقال له عليٌّ ﷺ: ليس ذلك عليها، قال الله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] فالرضاع أربعة وعشرون شهراً، والحمل ستة أشهر، فرجع عثمان عن قوله ولم يحدَّها[(٤)]، وقد مضى في «البقرة»[(٥)].

وقيل: لم يعدَّ ثلاثة أشهر في ابتداء الحمل؛ لأن الولد فيها نطفةٌ وعلقة ومضغة، فلا يكون له ثِقَل يُحسُّ به، وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾[(٦)] [الأعراف: ١٨٩]. والفِصالُ: الفِطام. وقد تقدَّم في «لقمان» الكلامُ فيه[(٧)].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٧٦ .

(٢) وقال صاحب هذا القول: لو حملته كَرهاً لَرَمَتْ به عن نفسها، لأن الكَره القهرُ والغضبُ. وذكره النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٦٤ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩٧ . ورده أبو جعفر النحاس بأن الكَره والكُره لغتان بمعنى واحد.

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٧٦ ، والواحدي في الوسيط ٤/ ١٠٧ ، وسلف ٤/ ١١٠ - ١١١ .

(٤) سلفت ص٩٠ من هذا الجزء.

(٥) الذي مضى الكلام عن أحكام الرضاع ٤/ ١٠٦ وما بعد .

(٦) تفسير الرازي ٢٨/ ١٤ .

(٧) ١٦/ ٤٧٤ .

وقَرَأ الحسنُ ويعقوب وغيرهما: «وفَصْله» بفتح الفاء وسكون الصاد[١].

وروي أن الآية نَزَلت في أبي بكر الصدِّيق، وكان حملُه وفصاله في ثلاثين شهراً[٢]، حملته أمه تسعةَ أشهر، وأرضعته إحدى وعشرين شهراً.

وفي الكلام إضمارٌ، أي: ومدَّة حملِه ومدَّة فصاله ثلاثون شهراً، ولولا هذا الإضمارُ لنصب ثلاثون على الظرف وتغيَّر المعنى[٣].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ قال ابن عباس: ثماني عشرة سنة[٤]. وقال في رواية عطاء عنه: إن أبا بكر صحب النبيَّ ﷺ وهو ابن ثماني عشرة سنة، والنبيّ ﷺ ابن عشرين سنة، وهم يريدون الشامَ للتجارة، فنَزلوا منزِلاً فيه سدرة، فقعد النبيُّ ﷺ في ظلِّها، ومضى أبو بكر إلى راهبٍ هناك، فسأله عن الدِّين. فقال الراهب: مَن الرجل الذي في ظلِّ الشجرة؟ فقال: ذاك محمدُ بن عبد الله بن عبد المطلب. فقال: هذا واللهِ نبيٌّ، وما استظلَّ أحدٌ تحتَها بعد عيسى. فوقَع في قلب أبي بكر اليقينُ والتصديق؛ وكان لا يَكاد يُفارِق رسولَ الله ﷺ في أسفاره وحضَرِه. فلما نُبِّئَ رسولُ الله ﷺ وهو ابن أربعين سنة، صدَّق أبو بكر ﷺ رسولَ الله ﷺ وهو ابن ثمانية وثلاثين سنة. فلمَّا بلَغ أربعين سنة قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾[٥] الآية. وقال الشعبيُّ وابن زيد: الأشُدُّ: الحُلُم[٦]. وقال الحسن: هو

---

(١) ذكر قراءة الحسن النحاسُ في إعراب القرآن ٤/ ١٦٤ ، وابنُ عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩٧ ، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٢٧٩ وهي من العشرة.

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ١٠٧ بنحوه ، وأخرجه الفراء في معاني القرآن ٣/ ٥٣ عن الكلبي عن أبي صالح ، عن ابن عباس ، دون قوله : «وكان حمله وفصاله في ثلاثين شهراً..» .

(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٦٦ ، وينظر إملاء ما به بن الرحمن ٤/ ٣٢٠ على هامش الفتوحات .

(٤) لم نقف عليه، وأخرج الطبري ١٣/ ٦٧ - ٦٨ عنه أنه بضع وثلاثون، ثم قال: وروي عن ابن عباس من وجه غير مرضيٍّ أنه قال : ما بين ثماني عشرة سنةً إلى ثلاثين .

(٥) أسباب النزول للواحدي ص٤٠١-٤٠٢ ، وزاد المسير ٧/ ٣٧٧ - ٣٧٨ ، وأشار الحافظ ابن حجر في الإصابة ١/ ٢٩٤ (ترجمة بحيرا) إلى ضعفه.

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره عنهما ٩/ ٦٦٤ ، وابن أبي حاتم ٥/ ١٤١٩ (٨٠٨٨) عن الشعبي ، وسلف ٩/ ١١٢ من قول ابن زيد .

بلوغ الأربعين[١]. وعنه: قيام الحجة عليه. وقد مضى في «الأنعام»[٢] الكلامُ في الآية. وقال السّدِّي والضحاك: نزلَت في سعد بن أبي وقاص. وقد تقدم[٣]. وقال الحسن: هي مرسَلة نزلَت على العموم[٤]. واللهُ أعلم.

السادسة: قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيَ﴾ أي: ألهمني. ﴿أَنْ أَشْكُرَ﴾ في موضع نصب على المصدر، أي: شُكْرَ نعمتِك ﴿عَلَيَّ﴾ أي: ما أنعمتَ به عليَّ من الهداية ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ بالتحنُّن والشفقة حتى ربَّياني صغيراً. وقيل: أنعمتَ عليَّ بالصحَّة والعافية، وعلى والديَّ بالغنى والثَّروة[٥].

وقال عليٌّ ﷺ: هذه الآية نزلت في أبي بكر الصدِّيق ﷺ؛ أسلَم أبواه جميعاً، ولم يَجتمع لأحدٍ من المهاجرين [أن][٦] أسلم أبواه غيرُه، فأوصاه اللهُ بهما، ولزِم ذلك مَن بعده[٧]. ووالدُه: هو أبو قُحافة عثمانُ بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعدِ بن تَيْم[٨]. وأمُّه: أمُّ الخير، واسمها سَلْمَى بنت صخر بن عامر[٩] بن كعب بن سعد[١٠]. وأم أبيه أبي قحافة: قَيْلة، بالياء المعجمة باثنتين من تحتها[١١]، وامرأة أبي

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٤١٩ (٨٠٨٧).

(٢) ٩/ ١١١ وما بعد.

(٣) ١٦/ ٤٧٣.

(٤) زاد المسير ٧/ ٣٧٨.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٧٧.

(٦) لفظة أن من (م).

(٧) الوسيط ٤/ ١٠٧، وتفسير البغوي ٤/ ١٦٧.

(٨) الاستيعاب ١٢/ ٩٢ على هامش الإصابة، والتعريف والإعلام للسهيلي ص ١٥٦.

(٩) في (د) و(ز) و(ظ): عمرو.

(١٠) الاستيعاب على هامش الإصابة ١٣/ ٢١٦، وفي الإصابة ١٢/ ٣١٠ و١٣/ ٢٠٣: بنت صخر بن عامر ابن كعب... ، وقيل: بنت صخر بن عمرو بن عامر القرشية.

(١١) ذكر ابن ماكولا في الإكمال ٧/ ١٣٠: أن اسمها: قيلة بنت أذة بن رياح.. ، وقال ابن حجر في الإصابة ٦/ ٣٨٩: أمه: آمنة بنت عبد العزى العدوية، عديّ قريش، وقيل: اسمها: قيلة..

بكر الصديق اسمُها قَتْلَة[١] ـ بالتاء المعجمة باثنتين من فوقها ـ بنتُ عبد العُزَّى.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ قال ابن عباس: فأجابه اللهُ، فأعتَق تسعةً من المؤمنين يعذَّبون في الله، منهم بلال وعامر بن فُهيرة؛ ولم يدَع شيئاً من الخير إلا أعانَه اللهُ عليه[٢].

وفي الصحيح[٣] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أَصبَح منكم اليوم صَائماً؟» قال أبو بكر: أنا. قال: «فَمن تَبِع منكم اليوم جَنَازةً؟» قال أبو بكر: أنا. قال: «فمن أطعَم منكم اليوم مِسْكِيناً؟» قال أبو بكر: أنا. قال: «فمن عاد منكم اليوم مَريضاً؟» قال أبو بكر: أنا. قال رسولُ الله ﷺ: «ما اجتَمَعن في امرئ إلا دخَل الجَنَّةَ».

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ أي: اجعل ذرِّيَّتي صالحين[٤]. قال ابن عباس: فلم يبقَ له ولدٌ ولا والد ولا والدة إلا آمَنوا بالله وحدَه[٥]. ولم يكن أحدٌ من أصحابِ رسول الله ﷺ أسلَم هو وأبواه وأولادُه وبناته كلُّهم إلا أبو بكر[٦].

وقال سهل بن عبد الله: المعنى اجعلْهم لي خَلَف صِدقٍ، ولك عبيدَ حقٍّ. وقال أبو عثمان: اجعلهم أبراراً لي مطيعين لك. وقال ابن عطاء: وفقهم لصالح أعمالٍ ترضى بها عنهم. وقال محمد بن علي: لا تجعل للشيطان والنفْس والهوى عليهم سبيلاً[٧]. وقال مالك بن مِغول[٨]: اشتكى أبو معشر ابنَه إلى طلحة بن مُصَرِّف؛

---

(١) في (م): قتيلة، وهو صحيح أيضاً؛ توضيح المشتبه ٧/ ١٤٤ .

(٢) الوسيط للواحدي ٤/ ١٠٧-١٠٨ ، وزاد المسير ٧/ ٣٨٧ . وقد سمَّى ابن هشام في السيرة ١/ ٣١٨ - ٣١٩ سبعة ممن أعتقهم أبو بكر ﷺ.

(٣) صحيح مسلم (١٠٢٨) .

(٤) تفسير أبي الليث السمرقندي ٣/ ٢٣٢ .

(٥) الوسيط ٤/ ١٠٨ .

(٦) زاد المسير ٧/ ٣٨٧ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٢٧٨ .

(٨) في (م) مقول ، وهو خطأ.

فقال: استعِن عليه بهذه الآية؛ وتلا: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[(١)].

﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ قال ابن عباس: رجعْتُ عن الأمر الذي كنتُ عليه[(٢)]. ﴿وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: المخلِصين بالتوحيد[(٣)].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ قراءة العامة بضم الياء فيهما. وقرئ: «يَتقبَّلُ، وَيَتجَاوزُ» بفتح الياء[(٤)]؛ والضمير فيهما يرجعُ لِله عزَّ وجلَّ. وقرَأ حفص وحمزة والكسائيُّ: «نَتَقَبَّلُ، ونَتَجَاوَزُ» بالنون فيهما[(٥)]، أي: نغفرها ونصفح عنها. والتجاوزُ أصلُه من جزت الشيءَ: إذا لم تقف عليه. وهذه الآيةُ تدلُّ على أن الآية التي قبلها ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ إلى آخرها مرسلةٌ نزلَت على العموم. وهو قول الحسن[(٦)].

ومعنى «نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ» أي: نتقبل منهم الحسنات، ونتجاوزُ عن السيئات. قال زيد ابن أسلم ـ ويحكيه مرفوعاً ـ: إنهم إذا أسلموا قُبلت حسناتُهم وغُفرت سيئاتُهم. وقيل: الأحسن ما يَقتضي الثواب من الطاعات، وليس في الحسن المباح ثواب ولا

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٦/ ٤١ ، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ١٩ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٧٨ .

(٣) تفسير أبي الليث السمرقندي ٣/ ٢٣٢ .

(٤) هي قراءة عيسى والأعمش كما في القراءات الشاذة ص ١٣٩ ، ونسبها ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٧٩ لأبي المتوكل وأبي رجاء وأبي عمران الجوني ، ونسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩٨ للحسن.

(٥) وقرأ الباقون من السبعة بالياء، كما سلف، وهم نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر، وعاصم في رواية أبي بكر. السبعة ص٥٩٧ ، والتيسير ص١٩٩ .

(٦) سلف قوله ص١٩٧ من هذا الجزء.

عقاب؛ حكاه ابن عيسى[١]. ﴿فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ «في» بمعنى مع[٢]، أي: مع أصحاب الجنة، تقول: أكرمك وأحسن إليك في جميع أهل البلد، أي: مع جميعهم[٣].

﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ﴾ نصب لأنه مصدرٌ مؤكد لمَا قبله؛ أي: وعد الله أهلَ الإيمان أن يَتقبل من مُحسنهم ويتجاوزَ عن مسيئهم وعد الصدق[٤]. وهو من باب إضافة الشيء إلى نفسه؛ لأن الصدقَ هو ذلك الوعدُ الذي وعده اللهُ؛ وهو كقوله تعالى: ﴿حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ [الحجر: ٩٩] وهذا عند الكوفيين، فأما عند البصريين فتقديره: وَعْد الكلامِ الصدق أو الكتابِ الصدق، فحذف الموصوف. وقد مضى هذا في غير موضع[٥]. ﴿ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ في الدنيا على ألسنة الرسل؛ وذلك الجنة[٦].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ۝١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ﴾ أي: أن أُبعثَ[٧]. ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي﴾ قراءة نافعٍ وحفص وغيرِهما: «أُفٍّ» مكسور منوَّن. وقرأ ابن كثير وابن محيصن وابن عامر والمفضَّل عن عاصم: «أُفَّ» بالفتح من غير تنوين. الباقون بالكسر غير منوَّن[٨]؛ وكلُّها لغات، وقد مضى في «بني إسرائيل»[٩].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٧٩ ، ولم نقف على قول زيد بن أسلم مرفوعاً.

(٢) زاد المسير ٧/ ٣٧٩ .

(٣) الكلام بنحوه في الكشاف ٣/ ٥٢١ .

(٤) الكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٤٣ .

(٥) ١٢/ ١٢٨ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٧٩ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٢٧٩ .

(٨) وقرأ عاصم في رواية حفص: أُفٍّ، بالكسر منون، وقرأ في رواية شعبة: أُفِّ. السبعة ص ٥٩٧ ، والتيسير ص ١٣٩ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٩٩ .

(٩) ١٣/ ٥٧ .

وقراءة العامة: «أَتَعِدَانِنِي» بنونين مخففتين. وفتح ياءه أهلُ المدينة ومكة. وأسكن الباقون. وقرَأ أبو حيوة والمغيرة وهشام: «أَتَعِدَانِّي» بنون واحدة مشدَّدة، وكذلك هي في مصاحف أهل الشام[(١)]. والعامة على ضم الألف وفتح الراء من «أَنْ أُخْرَجَ». وقرأ الحسن ونصر وأبو العالية والأعمش وأبو معمر بفتح الألف وضم الراء[(٢)].

قال ابن عباس والسُّدِّي وأبو العالية ومجاهد: نزلت في عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما، وكان يَدعوه أبواه إلى الإسلام فيجيبهما بما أخبر الله عزَّ وجلَّ[(٣)]. وقال قتادة والسديُّ أيضاً: هو عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه، وكان أبوه وأمه أمُّ رومان يَدعوانه إلى الإسلام ويَعدانه بالبعث؛ فيردُّ عليهما بما حكاه الله عزَّ وجلَّ عنه؛ وكان هذا منه قبل إسلامه[(٤)].

وروي أن عائشة رضي الله عنها أنكرت أن تكون نزلت في عبد الرحمن[(٥)]. وقال الحسن وقتادة أيضاً: هي نعتُ عبدٍ كافرٍ عاقٍّ لوالديه[(٦)]. وقال الزجاج[(٧)]: كيف يقال نزلت في عبد الرحمن قبل إسلامه واللهُ عزَّ وجلَّ يقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ﴾ أي: العذاب، ومن ضرورته عدمُ الإيمان، وعبدُ الرحمن من أفاضل المؤمنين؛ فالصحيحُ أنها نزلت في عبدٍ كافر عاقٍّ لوالديه.

---

(١) التيسير ص ١٩٩ .

(٢) ذكرها عن الحسن ابنُ خالويه في القراءات الشاذة ص ١٣٩ ، وعن الأعمش ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩٩ .

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٨٠ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٨٠ عن مجاهد .

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٧٩ - ٢٨٠ عن السدي ، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢١٩ عن قتادة والكلبي .

(٥) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢١٩ . وأخرج البخاري في صحيحه (٤٨٢٧) عن يوسف بن ماهَك ... فقالت عائشة من وراء الحجاب : ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن ، إلا أن الله أنزل عذري .

(٦) أخرجه عنهما الطبري ٢١/ ١٤٥ .

(٧) في معاني القرآن له ٤/ ٤٤٣ - ٤٤٤ ، ونقله عنه بواسطة الواحدي في الوسيط ٤/ ١٠٩ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٨٠ .

وقال محمد بن زياد: كتب معاوية إلى مروان بن الحكم حتى يبايعَ الناسُ ليزيد؛ فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: لقد جئتم بها هِرَقْلِيَّة، أتبايعون لأبنائكم! فقال مروان: هو الذي يقول الله فيه: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ الآية. فقال: واللهِ ما هو بِه، ولو شئتُ لسمَّيت، ولكن الله لعن أباك وأنت في صلبه، فأنت فَضَض من لعنة الله[١].

قال المهدويُّ: ومن جعل الآيةَ في عبد الرحمن كان قوله بعد ذلك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ يراد به من اعتقد ما تقدَّم ذِكره؛ فأول الآية خاصٌّ وآخرها عام[٢].

وقيل: إن عبد الرحمن لمَّا قال: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ قال مع ذلك: فأين عبدُ الله بن جُدْعان، وأين عثمان بن عمرو، وأين عامر بنُ كعب ومشايخ قريش حتى أسألَهم عمَّا يقولون[٣]. فقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ يرجعُ إلى أولئك الأقوام.

قلت: قد مضى من خبر عبد الرحمن بن أبي بكر في سورة الأنعام[٤] عند قوله: ﴿لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى﴾ [الآية: ٧١] ما يدلُّ على نزول هذه الآية فيه؛ إذ كان كافراً، وعند إسلامه وفضله تعيَّن أنه ليس المراد بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾.

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٤٢٧)، والحاكم ٢/ ٤٨١ عن محمد بن زياد الجمحي، وقوله: لقد جئتم بها هرقلية. أراد أن البيعة لأولاد الملوك سنة ملوك الروم والعجم. وهرقل: اسم ملِك الروم. النهاية (هرقل). وقوله: «فأنت فضض من لعنة الله» أراد قطعة وطائفة منها. النهاية (فضض).

(٢) ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح ٨/ ٥٧٧ أن القول في عبد الرحمن ضعيف؛ كالقول في عبد الله، وأن نفي عائشة أن تكون نزلت في عبد الرحمن وآل بيته أصح إسناداً وأولى بالقبول.

(٣) في (د) و(ظ): فأين عبد الرحمن بن جذعان، وابن عثمان بن عمرو، وابن عامر بن كعب..، وذكره الفراء في معاني القرآن ٣/ ٥٤، والواحدي في الوسيط ٤/ ١٠٩، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٢١ - ٥٢٢ ولفظه عند الفراء: ابن جدعان بن عمرو، وعثمان بن عمرو وهما من أجداده، وبنحوه عند الزمخشري.

(٤) ٨/ ٤٢٨.

﴿وَهُمَا﴾ يعني والديه. ﴿يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ أي: يدعوان اللهَ له بالهداية[١]. أو يستغيثان بالله من كفره؛ فلمَّا حذف الجارّ وصل الفعل فنصب. وقيل: الاستغاثة: الدعاء؛ فلا حاجةَ إلى الباء[٢]. قال الفرَّاء: أجاب الله دعاءَه وغُواثه.

﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾ أي: صدِّق بالبعث. ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: صِدْقٌ لا خُلْفَ فيه. ﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ﴾ أي: ما يقوله والداه. ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: أحاديثهم وما سطروه مما لا أصلَ له.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ يعني الذين أشار إليهم ابن أبي بكر في قوله: أحْيُوا لي مشايخَ قريش، وهم المعنيُّون بقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾. فأما ابن أبي بكر عبدُ الله أو عبدُ الرحمن فقد أجاب اللهُ فيه دعاءَ أبيه في قوله: ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ على ما تقدَّم[٣].

ومعنى «حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ» أي: وجب عليهم العذابُ، وهي كلمة اللهِ: «هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي»[٤]. ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ أي: مع أمم. ﴿قَدْ خَلَتْ﴾: تقدَّمت ومضت. ﴿مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ الكافرين ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: تلك الأممُ الكافرة ﴿كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ لأعمالهم؛ أي: ضاع سعيهم وخسِروا الجنةَ.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ﴾ أي: ولكلٍّ واحدٍ من الفريقين المؤمنين والكافرين من الجنِّ والإنس مراتبُ عند الله يومَ القيامة بأعمالهم. قال ابن زيد: درجاتُ أهل النار في هذه الآية تذهبُ سَفالاً، ودَرجُ أهل الجنة عُلُوًّا[٥]. ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ

---

(١) الوسيط ٤/ ١٠٩.

(٢) تفسير الرازي ٢٨/ ٢٤.

(٣) ص١٩٨ من هذا الجزء.

(٤) سلف ٥/ ١٥.

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ١٤٦.

﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ قرأ ابن كثير وابن مُحَيْصِن وعاصم وأبو عمرو ويعقوب بالياء لِذِكرِ اللهِ قبلَه، وهو قولُه تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ واختاره أبو حاتم. الباقون بالنون[١] ردًّا على قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ وهو اختيار أبي عبيد. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا يزاد على مسيء ولا ينقص من محسن.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ﴾ أي: ذكِّرهم يا محمد يومَ يُعرض ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: يُكشَف الغطاء فيقرَّبون من النار ويَنظُرون إليها[٢]. ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾ أي: يقال لهم: أذهبتم[٣]؛ فالقولُ مضمر. وقرَأ الحسنُ ونصر وأبو العالية ويعقوب وابن كثير: «أَأَذْهَبْتُمْ» بهمزتين مخففتين، واختاره أبو حاتم. وقرأ أبو حيوة وهشام: «آذهبتم» بهمزة واحدة مطولة على الاستفهام. الباقون بهمزة واحدة من غير مدٍّ على الخبر[٤]، وكلُّها لغاتٌ فصيحة ومعناها التوبيخ، والعَرب توبِّخ بالاستفهام وبغير الاستفهام[٥]؛ وقد تقدَّم. واختار أبو عبيد تركَ الاستفهام؛ لأنه قراءة أكثرِ أئمة السبعة: نافع وعاصم وأبي عمرو وحمزة والكسائي، مع مَن وافقهم: شيبة والزهري وابن مُحَيْصن والمغيرة بن أبي شهاب ويحيى بن الحارث والأعمش ويحيى بن وثَّاب وغيرهم؛ فهذه عليها جِلَّةُ الناس. وتركُ الاستفهام أحسن؛ لأن إثباته يوهم أنهم لم

---

(١) وقرأ بالياء أيضاً من السبعة ابن عامر في رواية هشام، وبالنون في رواية ابن ذكوان. السبعة ص ٥٩٨، والتيسير ص ١٩٩، والنشر ٢/ ٣٧٣.

(٢) تفسير أبي الليث السمرقندي ٣/ ٢٣٣ - ٢٣٤.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١٠٠.

(٤) السبعة ص٥٩٨، والتيسير ص١٩٩، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٥٤، وإعراب القرآن النحاس ٤/ ٦٦، والنشر ١/ ٣٦٦.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٥١.

يفعلوا ذلك، كما تقول: أنا ظلمتُك؟ تريد: أنا لم أظلمك. وإثباته حسنٌ أيضاً؛ يقول القائل: ذهبت فعلت كذا؛ يُوَبِّخ ويقول: أذهبت فعلت! كلُّ ذلك جائز[١]. ومعنى «أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ» أي: تمتَّعتم بالطيبات في الدنيا واتبعتم الشهوات واللذات؛ يعني المعاصي[٢]. ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي: عذابَ الخِزْي والفضيحة. قال مجاهد[٣]: الهُون: الهَوان. قتادة: بلغة قريش.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: تستعلُون على أهلها بغير استحقاق. ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ في أفعالكم بَغْيًا وظلماً. وقيل: «أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ» أي: أفنيتم شبابَكم في الكفر والمعاصي. قال ابنُ بحر: الطيباتُ: الشباب والقوَّةُ؛ مأخوذ من قولهم: ذهب أطيباه، أي: شبابه وقوَّته. قال الماورديُّ[٤]: ووجدت الضحاكَ قاله أيضاً.

قلت: القول الأوّل أظهر، روى الحسن عن الأحنف بن قيس، أنه سمع عمر بنَ الخطاب ﷺ يقول: لَأَنا أعلمُ بخفض العيش، ولو شئتُ لجعلتُ أكباداً وصلاء وصِنابًا وصَلائِقَ، ولكني أستبقي حسناتي؛ فإن اللهَ عزَّ وجلَّ وصَف أقواماً فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾[٥].

وقال أبو عبيد في حديث عمر: لو شئتُ لدعوت بصلائق وصناب وكَرَاكِرَ وأسنمة. وفي بعض الحديث: وأفلاذٍ[٦]. قال أبو عمرو وغيرُه: الصِّلاءُ - بالمدّ

(١) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٦٦ - ١٦٧ .

(٢) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٥/ ٢٨١ .

(٣) في تفسيره ٢/ ٥٩٤ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ١٤٩ - ١٥٠ .

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٢٨١ وما قبله منه سوى قوله : أي أفنيتم شبابكم ...

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في إصلاح المال (٣٥٧) ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٨١ عن الحسن بن دينار عن الأحنف . وأخرجه بنحوه ابن المبارك في الزهد (٥٧٩) ، وابن سعد في الطبقات ٣/ ٢٧٩ ، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٤٩ عن جرير بن حازم قال : سمعت الحسن يقول ... وذكره .

(٦) ذكرها الزمخشري في الفائق ٢/ ٣١١ .

والكسر ـ : الشِّواء؛ سُمِّي بذلك لأنه يُصْلَى بالنار[(١)]. والصِّلاء أيضاً: صِلاء النار؛ فإن فتحتَ الصاد قصرت وقلت: صَلَى النارِ. والصِّنابُ: الأصبغة المتخَذة من الخردل والزَّبيب[(٢)]. قال أبو عمرو: ولهذا قيل للبِرذَوْن: صِنابِيٌّ؛ وإنما شُبِّه لونه بذلك. قال: والسلائق ـ بالسين ـ هو ما يسلَق من البقول وغيرها. وقال غيره: هي الصلائق بالصاد؛ قال جرير:

تُكَلِّفُني معيشةَ آلِ زيدٍ ... ومَن لي بالصَّلائق والصِّنابِ[(٣)]

والصَّلائقُ: الخبزُ الرِّقاق العريض. وقد مضى هذا المعنى في «الأعراف»[(٤)]. وأما الكراكِرُ فكراكر الإبلِ، واحدتها كِرْكِرَة، وهي معروفة؛ هذا قول أبي عبيد[(٥)]. وفي الصحاح[(٦)]: والكِرْكِرة: رَحَى زَوْر البعير، وهي إحدى الثَّفِنات الخمس[(٧)]. والكِركِرة أيضاً: الجماعةُ من الناس. وأبو مالك عمرو بن كِرْكِرة رجلٌ من علماء اللغة[(٨)]. قال أبو عبيد: وأما الأفلاذ فإن واحدها فِلْذ، وهي القطعة من الكَبِد. قال أَعْشَى باهلة:

تَكْفِيهِ حُزَّةُ فِلْذٍ إن أَلَمَّ بها ... من الشِّواء ويُرْوي شُرْبَه الغُمَرُ[(٩)]

---

(١) غريب الحديث لأبي عبيد ٣/ ٢٦٣ - ٢٦٤

(٢) الصحاح (صلي ـ صنب).

(٣) غريب الحديث ٣/ ٢٦٤ ، والبيت في ديوان جرير ٢/ ٨١٢ .

(٤) ٩/ ٢٠٧ .

(٥) في غريب الحديث ٣/ ٢٦٥ .

(٦) مادة (كرر) .

(٧) الزَّوْر: أعلى الصدر، والثَّفنات: جمع ثَفِنة، وهي ما يقع على الأرض من أعضاء البعير إذا استناخ وغلظ، كالركبتين وغيرهما. الصحاح (زور) (ثفن).

(٨) هو أبو مالك الأعرابي ، دخل الحاضرة وأخذ الناس عنه ، وكان مَولى لبني سعد ، ويقال : إنه كان يحفظ اللغة كلها ، وكان بصري المذهب ، ذكره الأزهري في التهذيب ١/ ١٢ في الطبقة الثانية من الأئمة الذين اعتمد عليهم في جمعه لكتابه ترجمته في إنباه الرواة ٢/ ٣٦٠ ، ومعجم الأدباء ١٦/ ١٣١ - ١٣٢ .

(٩) غريب الحديث ٣/ ٢٦٥ ، والبيت في الأصمعيات ص ٩١ ، والكامل للمبرد ١/ ٤٥٩ ، والخزانة =

وقال قتادة: ذكر لنا أن عمر ﷺ قال: لو شئتُ كنت أطيَبَكم طعاماً، وألينَكم لباساً، ولكني أستبقي طيباتي للآخرة. ولمَّا قدِم عمر الشامَ صُنع له طعامٌ لم يرَ قطُّ مثلَه؛ قال: هذا لنا! فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وما شبِعوا من خبز الشعير! فقال خالد بنُ الوليد: لهم الجنة؛ فَاغْرَوْرَقَت عَيْنَا عمرَ بالدموع وقال: لئن كان حظُّنا من الدنيا هذا الحطام، وذهبوا هم في حظِّهم بالجنة فلقد باينونا بَوْنًا بعيداً[1].

وفي صحيح مسلم وغيرِه أن عمر ﷺ دخَل على النبيِّ ﷺ وهو في مَشْرُبَته حين هَجَرَ نساءه قال: فالتفتُّ فلم أرَ شيئاً يردُّ البصر إلا أُهُباً جلوداً معطونة قد سطَع ريحُها؛ فقلت: يا رسولَ الله، أنت رسولُ الله وخِيرته، وهذا كِسْرى وقَيْصر في الديباج والحرير؟ قال: فاستوى جالساً وقال: «أفي شَكٍّ أنت يا ابن الخطاب؟! أولئك قومٌ عُجِّلت لهم طيباتُهم في حياتهم الدنيا» فقلت: استغفر لي! فقال: «اللهم اغفر له»[2].

وقال حفص بن أبي العاص: كنت أتغدَّى عند عمر بن الخطاب رضي عنه الخبزَ والزيتَ، والخبز والخلَّ، والخبز واللبنَ، والخبز والقَدِيد، وأقلُّ ذلك اللحم الغَريض[3]. وكان يقول: لا تنخلوا الدقيقَ؛ فإنه طعامٌ كلُّه؛ فجيء بخبزٍ متفلع[4] غليظ؛ فجعل يأكل ويقول: كلوا؛ فجعلنا لا نأكل؛ فقال: ما لكم لا تأكلون؟ فقلنا: واللهِ يا أمير المؤمنين نرجع إلى طعام ألين من طعامك هذا؛ فقال: يا ابن أبي العاص، أَمَا ترى بأني عالم أن لو أمرتُ بعَناق[5] سمينةٍ فيلقى عنها شَعَرها، ثم

= ١٩٨/١ ، وقوله : «حُزَّة» أي: قطعة من اللحم قطعت طولاً . و«ألمَّ بها» : أصابها يعني أكلها . و«الغُمَرُ» : قَدَح صغير لا يروي . كذا في الخزانة .

(١) أخرجه عبد الرزاق ٢١٧/٢ مختصراً ، والطبري ١٤٧/٢١ بتمامه .

(٢) صحيح مسلم (١٤٧٩): (٣٤) بنحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو عند الإمام أحمد (٢٢٢) ، والبخاري (٤٩١٣)، وسلف بنحوه ١٨/ ١٩٠ .

(٣) أي: الطري.

(٤) في (خ) و(ظ) : متقطع ، وفي (د) و(ق) متقلع . والمتفلع : هو المشقق والمقطع . القاموس (فلع) .

(٥) العناق : الأنثى من أولاد المعز . القاموس (عنق) .

تُخرج مَضْلِيَّةً كأنها كذا وكذا. أما ترى بأني عالِمٌ أنْ لو أمرت بصاعٍ أو صاعين من زبيب فأجعله في سقاء ثم أشنُّ عليه من الماء فيصبح كأنه دم غَزال؛ فقلت: يا أمير المؤمنين، أجل! ما تبعتَ[١] العيش، قال: أجل! واللهِ الذي لا إله إلا هو لولا أني أخافُ أن تنقصَ حسناتي يوم القيامة لشاركناكم في العيش! ولكني سمعتُ اللهَ تعالى يقول لأقوامٍ: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾[٢].

﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي: الـهـوان. ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: تتعظمون عن طاعة الله وعلى عباد الله. ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾: تخرجون عن طاعة الله.

وقال جابر: اشتهى أهلي لحماً فاشتريته لهم فمررتُ بعمر بن الخطاب ﷺ فقال: ما هذا يا جابر؟ فأخبرته؛ فقال: أوكلَّما اشتهى أحدُكم شيئاً جعله في بطنه! أمَا يخشى أن يكون من أهل هذه الآية: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾ الآية[٣].

قال ابن العربي[٤]: وهذا عتابٌ منه له على التوسُّع بابتياع اللحم والخروج عن جِلْف الخبز والماء؛ فإنَّ تعاطي الطيبات من الحلال تستشْرهُ لها الطباع وتستمرئها العادةُ، فإذا فَقَدَتْها استسهلَتْ في تحصيلها بالشبهات حتى تقع في الحرام المحض بغلبة العادة واستشراهِ الهوى على النفس الأمارة بالسوء؛ فأَخَذ عمر الأمرَ من أوَّله، وحماه من ابتدائه كما يفعله مثله. والذي يَضبط هذا البابَ ويحفظ قانونَه على المرء أن يأكل ما وجد، طيباً كان أو قَفاراً، ولا يتكلَّف الطيِّبَ ويتخذَه عادة؛ وقد كان

(١) في (م) و(ز) و(ق) تنعت. ولم تجود في (خ).

(٢) أخرجه بنحوه ابن سعد في الطبقات ٣/ ٢٨٠، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ١٤/ ٤١٥. وحفص ابن أبي العاص بن بشر الثقفي، هو أخو عثمان بن أبي العاص الصحابي المشهور، ذكره ابن حجر في الإصابة ٢/ ٢٦٦، وقال: روى البلاذري بإسناد لا بأس به أن حفص كان يحضر طعام عمر، الحديث.

(٣) أخرجه الواحدي في الوسيط ٤/ ١١١ - ١١٢، وبنحوه الإمام مالك في الموطأ ٢/ ٩٣٦، وأحمد في الزهد ص١٥٣.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٨٦ - ١٦٨٧.

النبيُّ ﷺ يشبع إذا وجد، ويصبِر إذا عَدِم، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها، ويشرب العسلَ إذا اتفق له، ويأكل اللحم إذا تيسر؛ ولا يعتمد أصلاً، ولا يجعله دَيْدَناً. ومعيشةُ النبيّ ﷺ معلومة، وطريقة الصحابة منقولة؛ فأما اليوم عند استيلاء الحرام وفساد الحطام فالخلاصُ عسيرٌ، واللهُ يَهَبُ الإخلاصَ، ويُعينُ على الخلاص برحمته.

وقيل: إن التوبيخ واقعٌ على ترك الشكر لا على تناول الطيِّبات المحللة، وهو حسن؛ فإن تناولَ الطيب الحلال مأذونٌ فيه، فإذا ترك الشكر عليه واستعان به على ما لا يَحلُّ له فقد أذهبه. واللهُ أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ هو هود بن عبد الله بن رباح عليه السلام(١)، كان أخاهم في النَّسَب لا في الدِّين(٢).

﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ أي: اذكر لهؤلاء المشركين قصةَ عادٍ ليعتبروا بها. وقيل: أمرَه بأن يتذكّر في نفسه قصةَ هود ليقتديَ به، ويهون عليه تكذيب قومه له(٣).

والأحقاف: ديار عاد، وهي الرِّمال العظام؛ في قول الخليل وغيره(٤). وكانوا قهَروا أهلَ الأرض بفضل قوَّتِهم. والأحقاف جمع حِقْف، وهو ما استطالَ من الرمل العظيم واعوجّ ولم يبلغ أن يكون جبلاً(٥)، والجمع حِقاف وأحقاف [وحقوف](٦).

---

(١) التعريف والإعلام ص ١٥٦.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٨٢.

(٣) ينظر تفسير الرازي ٢٨/ ٢٧.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٠١ بنحوه.

(٥) تفسير الطبري ٢١/ ١٥٠.

(٦) من (م)، وينظر اللسان (حقف).

واحقوقف الرمل والهلال، أي: اعوج. وقيل: الحِقْف جمع حِقاف. والأحقاف جمع الجمع. ويقال: حِقْفٌ أحقف[١]. قال الأعشى:

بـات إلـى أرطـاةِ حِـقـفٍ أحْـقَـفَـا[٢]

أي: رمل مستطيل مشرف. والفعل منه: احقوقف. قال العجَّاج:

طَـيَّ الـلـيـالـي زُلَـفـاً فـزُلَـفـا سَـمَـاوَةَ الـهـلالِ حتـى احْـقَـوْقَـفـا[٣]

أي: انحنى واسْتَدَارَ. وقال امرؤ القيس:

كحِقف النَّقا يمشي الولِيدَانِ فوقَه بما احتسَبا من لِين مَسٍّ وتَسْهَالِ[٤]

وفيما أُريد بالأحقاف هاهنا مختلَف فيه: فقال ابن زيد: هي رمالٌ مشرفة مستطيلة كهيئة الجبال، ولم تبلغ أن تكون جبالاً؛ وشاهدُه ما ذكرناه[٥].

وقال قتادة: هي جبال مشرفة بالشِّحْر، والشِّحْرُ قريبٌ من عَدن؛ يقال: شِحْرُ عُمَان وشَحْرُ عُمان، وهو ساحل البحر بين عُمان وعدن. وعنه أيضاً: ذكر لنا أن عاداً كانوا أحياءً باليمن، أهلَ رملٍ مشرفين على البحر بأرضٍ يقال لها: الشّحْر[٦].

---

(١) الكلام بنحوه في تهذيب اللغة ٤/ ٦٨، والصحاح (حقف).

(٢) كذا قال، والرجز للعجاج بن رؤبة، وهو في ديوانه ص٤٢٧، ومعاني القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢١٣، وتفسير الطبري ٢١/ ١٥٣، والنكت والعيون ٥/ ٢٨٢. وقوله: «أرطاة»؛ الأرْطَى: شجر ينبت بالرَّمل. اللسان (أرط). أما بيت الأعشى فهو:

يـلـوذ إلـى أرطـاة حـقـف تـلـفّـهُ خـريـق شَـمـال يـتـرك الـوجـهَ أقـتـمـا

وهو في ديوانه ص ٣٤٥.

(٣) ديوان العجاج ص ٤٢٦، قال شارحه: قوله «زلفاً فزلفاً» يريد: زلفة فزلفة أي: درجة فدرجة، والزلف: الدرج. و«سماوة الهلال» هي أعلاه.

(٤) ديوان امرئ القيس ص ٣٠، قال شارحه: «النقا»: ما استدار من الرمل. «احتسبا»: اكتفيا. يقول: جسم هذه المرأة أو عجيزتها كهذا النقا في لينه وامتلائه، وهو مع لينه صلبٌ شديد ليس بمنهال متناثر...

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٨٢، وذكر قول ابن زيد أيضاً البغوي في تفسيره ٤/ ١٧٠، وأخرجه الطبري ٢١/ ١٥٣.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ١٧٠، وزاد المسير ٧/ ٣٨٤، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢١٧، والطبري ٢١/ ١٥٢ - ١٥٣ بنحوه، وينظر معجم البلدان ٣/ ٣٢٧، والقاموس المحيط (شحر).

وقال مجاهد: هي أرضٌ من حِسْمَى تسمَّى بالأحقاف(١). وحِسْمَى ـ بكسر الحاء ـ اسم أرض بالبادية، فيها جبال شواهقُ؛ مُلْسُ الجوانب، لا يَكاد القَتام يُفارقها. قال النابغةُ:

فأصبحَ عاقِلاً بجبالِ حِسْمَى دُقاقَ التُّرْبِ مُحْتَزِمَ القَتامِ

قاله الجوهريُّ(٢).

وقال ابن عباس والضحَّاك: الأحقاف جبلٌ بالشام. وعن ابن عباس أيضاً: وادٍ بين عُمان ومَهْرة(٣).

وقال مقاتل: كانت منازل عاد باليمن في حضرموت بواد يقال له: مَهَرَة(٤)، وإليه تنسب الإبل المَهْرِيَّة؛ فيقال: إبل مَهْرِيّة ومَهارِي. وكانوا أهل عُمُد سيَّارة في الربيع، فإذا هاج العودُ رجعوا إلى منازلهم؛ وكانوا من قبيلة إرم(٥).

وقال الكلبيُّ: أحقاف الجبلِ ما نضَب عنه الماءُ زمانَ الغرَق، كان يَنْضُب الماء من الأرض ويبقى أثره.

وروى [أبو] الطُّفيل عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال: خيرُ وادِيَيْن في الناس وادٍ بمكة؛ ووادٍ نزَل به آدم بأرض الهند، وشرُّ وادِيَيْن في الناس وادٍ بالأحقاف؛ ووادٍ

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٥٩٤، بلفظ: خساف من حسمى، وذكر قوله الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٨٢، وأخرجه الطبري ٢١/ ١٥٢.

(٢) في الصحاح (حسم) ومن قوله: وحِسْمى... إلى هذا الموضع، ليس في (ظ). ولعله حاشية في الأصل، والبيت في ديوان النابغة الذبياني ص ١١٤ وفيه: وأضحى ساطعاً. وقوله: «القَتام»، أي: الغبار. القاموس (قتم) قال ابن بري: أي: حِسْمى قد أحاط به القتام كالحزام له. اللسان (حسم). وحسمى أرض ببادية الشام، ينظر معجم البلدان ٢/ ٢٥٨ - ٢٥٩.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٨٢، وأخرجه الطبري ٢١/ ١٥١.

(٤) قال ياقوت الحموي في معجم البلدان ٥/ ٢٣٤: مَهرة قبيلة، وهي مهرة بن حَيْدان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٧٠.

بحضرمَوْت يدعى بَرَهُوت تلقى فيه أرواحُ الكفار. وخير بئرٍ في الناس بئرُ زمزم، وشرُّ بئر في الناس بئر بَرَهُوت، وهو في ذلك الوادي الذي بحضرموت[١].

﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾ أي: مَضت الرسلُ. ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي: من قبل هود. ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ أي: ومن بعده؛ قاله الفرَّاء. وفي قراءة ابن مسعود: «من بين يديه ومن بعده»[٢]. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ هذا من قول المرسَل، فهو كلام معترض[٣]. ثم قال هود: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وقيل: «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ» من كلام هود، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ (٢٥)﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: لتزيلنا عن عبادتها بالإفك.

الثاني: لتصرفنا عن آلهتنا بالمنع؛ قاله الضحاك[٤]. قال عُرْوة بن أُذَيْنَة:

إن تك عن أحسن الصنيعة[٥] مأ فوكاً ففي آخرين قد أفِكوا

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٨٢ - ٢٨٣ وما بين حاصرتين منه، وهو الصواب. وأخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٦/ ٤٣. وقوله: «وخير بئر في الناس زمزم... إلى قوله: بحضرموت» أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١١٦٧) من حديث ابن عباس مرفوعاً، بنحوه. قال الهيثمي في المجمع ٣/ ٢٨٦: رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات، وصححه ابن حبان.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٨٣، وذكر القراءة أيضاً الطبريُّ في تفسيره ٢١/ ١٥٤، والنحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٦٨ - ١٦٩.

(٣) الكلام بنحوه في الوسيط ٤/ ١١٣.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٨٣.

(٥) في (ظ) حسن الصنيعة. وسلف البيت عند تفسير الآية (٢٥) من سورة فصلت.

يقول: إن لم توفَّق للإحسان فأنت في قومٍ قد صُرِفوا.

﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ هذا يدلُّ على أن الوعدَ قد يوضع موضعَ الوعيد. ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أنك نبيٌّ. ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ﴾ بوقت مجيء العذاب ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا عندي ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ عن ربكم. ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ في سؤالكم استعجالَ العذاب. ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا﴾ قال المبرِّد: الضمير في «رَأَوْهُ» يعودُ إلى غير مذكور؛ وبيَّنه قولُه: «عَارِضًا»، فالضمير يعودُ إلى السحاب؛ أي: فلمَّا رأوا السحابَ عارضاً[1]. فـ«عارضاً» نصب على التكرير؛ سُمِّي بذلك لأنه يبدو في عُرض السماء. وقيل: نصب على الحال[2]. وقيل: يرجع الضمير إلى قوله: «فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا»[3] فلما رأوه حسبوه سحاباً يمطرهم، وكان المطر قد أبطأ عنهم، فلما رأوه «مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ» استبشروا[4]. وكان قد جاءهم من وادٍ جرَت العادةُ أنَّ ما جاء منه يكون غَيْثاً؛ قاله ابن عباس وغيره.

قال الجوهريُّ: والعارض السحاب يَعترض في الأفق؛ ومنه قوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ أي: ممطرٌ لنا؛ لأنه معرفة لا يجوز أن يكون صفةً لعارض وهو نكرة. والعربُ إنما تفعل مثلَ هذا في الأسماء المشتقة من الأفعال دون غيرها. قال جرير:

يا رُبَّ غابِطِنا لو كان يطلبكم ... لاقى مباعدةً منكم وحِرْمَانَا[5]

ولا يجوز أن يقال: هذا رجلٌ غلامنا. وقال أعرابيٌّ بعد الفِطر: رُبَّ صائمة لن

(١) تفسير الرازي ٢٨/ ٢٧.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٢٤.

(٣) تفسير الرازي ٢٨/ ٢٨.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٨٣، والرازي ٢٨/ ٢٨.

(٥) ديوان جرير ١/ ١٦٣، وهو في الكتاب ١/ ٤٢٧، والمقتضب للمبرد ٣/ ٢٢٧ و٤/ ١٥٠، وتحصيل عين الذهب ص ٢٤٢، وشرح المفصل لابن يعيش ٣/ ٥١. قال الشنتمري في شرحه: رُبَّ من يغبطنا ويَسرُّنا بطلب معروفنا لو طلب ما عندكم لَبُوعد وحُرم، والشاهد في البيت إضافةُ «رب» إلى غابطنا، وربَّ لا تعمل إلا في النكرة، فغابطنا في نية التنوين والانفصال.

تصومه، وقائمةٍ لن تقومه؛ فجعله نعتاً للنكرة وأضافه إلى المعرفة[١].

قلت: قوله: «لا يجوز أن يكون صفة لعارض» خلاف قول النحويين، والإضافة في تقدير الانفصال، فهي إضافة لفظية لا حقيقية؛ لأنها لم تفد الأوّل تعريفاً، بل الاسم نكرة على حاله؛ فلذلك جرى نعتاً على النكرة. هذا قول النحويين في الآية والبيت. ونعت النكرة نكرة. و«رُبّ» لا تدخل إلا على النكرة.

﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: قال هود لهم. والدليل عليه قراءة من قرأ: «قال هود بل هو»[٢] وقرئ: «قُلْ بَلْ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ هِيَ رِيحٌ»[٣] أي: قال الله: قل بل هو ما استعجلتم به؛ يعني قولهم: «فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا» ثم بيَّن ما هو فقال: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ والريح التي عُذِّبوا بها نشأت من ذلك السحاب الذي رأوه، وخرج هودٌ من بين أظهرهم، فجعلت تحملُ الفساطيط وتحمل الظَّعِينةَ فترفعها كأنها جرادة[٤]، ثم تضرب بها الصخور. قال ابن عباس: أول ما رأوا العارض قاموا فمدّوا أيديهم، فأوّل ما عرَفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجاً من ديارهم من الرجال والمواشي تطيرُ بهم الريح ما بين السماء والأرض مثل الريش، فدخَلوا بيوتهم وأغلَقوا أبوابهم، فقلعت الريحُ الأبوابَ وصرعتهم، وأمرَ اللهُ الريح؛ فأمالت عليهم الرمالَ، فكانوا تحت الرمال سبعَ ليالٍ وثمانية أيامٍ حسوماً[٥]، ولهم أنين؛ ثم أمر اللهُ الريحَ فكشفت عنهم الرمالَ واحتملتهم فرمتهم في البحر، فهي التي قال اللهُ تعالى فيها: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي: كل شيء مرَّت عليه من رجال عادٍ وأموالها[٦]. قال ابن عباس: أي: كل

---

(١) الصحاح (عرض).

(٢) هي قراءة ابن مسعود كما ذكر ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٦٥.

(٣) هي قراءة ابن مسعود أيضاً كما ذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٣٩.

(٤) الكشاف ٣/ ٥٢٤.

(٥) قوله: حسوماً، ليس في المصادر الآتي ذكرها، وهو الأشبه.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ١٧٠ - ١٧١، والكشاف ٣/ ٥٢٤، والرازي ٢٨/ ٢٨.

شيء بُعثت إليه، والتدمير: الهلاكُ. وكذلك الدمار. وقرئ: «يَدْمُرُ كُلُّ شَيْءٍ» من دَمَر دماراً[١]. يقال: دَمَّره تدميراً ودماراً ودَمَّر عليه بمعنًى. ودَمَر يَدْمُر دُموراً: دخَل بغير إذن. وفي الحديث: «مَن سَبَقَ طَرْفُه استئذانَه فقد دَمَر» مخفف الميم. وتَدْمُر: بلد بالشام. ويَرْبُوع تَدْمُرِي إذا كان صغيراً قصيراً[٢]. ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾: بإذن ربها[٣]. وفي البخاري[٤] عن عائشة رضي الله عنها زوجِ النبيِّ ﷺ قالت: ما رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ ضاحكاً حتى أرى منه لَهَواتِهِ، إنما كان يتبسَّم. قالت: وكان إذا رأى غَيْماً أو رِيحًا عُرِف في وجهه. قالت: يا رسولَ الله، الناسُ إذا رَأَوا الغَيْمَ فرِحوا رجاءَ أنْ يكونَ فيه المطرُ، وأراكَ إذا رأيتَه عُرِف في وجهك الكراهية! فقال: «يا عائشة، ما يُؤَمِّنُني أن يكونَ فيه عذابٌ، عُذِّب قومٌ بالرِّيح، وقد رأى قومٌ العذابَ فقالوا: هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا» خَرَّجه مسلمٌ والترمذيُّ، وقال فيه: حديث حسن[٥].

وفي صحيح مسلم[٦] عن ابن عباس، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «نُصِرتُ بالصَّبا، وأُهلِكَتْ عادٌ بالدَّبُورِ».

وذكر الماورديُّ[٧] أن القائل: «هَذَا عَارِض مُمْطِرُنَا» من قوم عاد: بكر بنُ معاوية؛ ولمَّا رأى السحابَ قال: إني لأَرَى سحاباً مُرْمِداً، لا تدع من عاد أحداً.

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٢٤، وهي قراءة شاذة.

(٢) الصحاح (دمر)، وأخرج الحديث الطبراني في المعجم الكبير (٧٥٠٧) بنحوه من حديث أبي أمامة ﷺ. وفي إسناده عبد الله بن صالح: صدوق كثير الغلط، ثبت في كتابه، وكانت فيه غفلة. والسفر بن نُسَيْر: ضعيف. كذا قال الحافظ ابن حجر في التقريب.

(٣) تفسير أبي الليث السمرقندي ٣/ ٢٣٥.

(٤) (٤٨٢٨ - ٤٨٢٩).

(٥) صحيح مسلم (٨٩٩): (١٦)، وسنن الترمذي (٣٢٥٧) بنحوه، وهو عند الإمام أحمد (٢٤٣٦٩) وسلف بنحوه ٢/ ٥٠٣.

(٦) برقم (٩٠٠)، وسلف ٢/ ٤٩٩.

(٧) في النكت والعيون ٥/ ٣٨٢ - ٢٨٤.

فذكر عمرو بنُ ميمون: أنها كانت تأتيهم بالرجل الغائب حتى تقذفه في ناديهم. قال ابنُ إسحاق: واعتَزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة، ما يصيبه ومن معه منها إلا ما يلين على[1] ثيابهم. وتلتذ الأنفس به؛ وإنها لتمرُّ من عاد بالظعن بين السماء والأرض وتدْمَغُهُم بالحجارة حتى هَلكوا. وحكى الكلبيُّ أنَّ شَاعرَهم قال في ذلك:

فـدعـا هـودٌ عـلـيـهـم دعـوةً أَضـحَـوْا هُـمـودا

عـصـفـت ريـحٌ عـلـيـهـم تـرَكـت عـاداً خُـمـودا

سُـخِّـرتْ سـبـعَ لـيـالٍ لـم تـدع فـي الأرض عُـودا

وعَمَّر هودٌ في قومه بعدهم مئة وخمسين سنة.

﴿فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ﴾ قرأ عاصم وحمزة: «لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ» بالياء غير مسمى الفاعل. وكذلك روى حماد بن سلمة عن ابن كثير إلا أنه قرأ: «ترى» بالتاء. وقد رُوي ذلك عن أبي بكر عن عاصم. الباقون: «تَرى» بتاء مفتوحة. «مَسَاكِنَهُم» بالنصب[2]، أي: لا ترى يا محمد إلا مساكنَهم. قال المهدوِيُّ: ومن قرأ بالتاء غير مسمى الفاعل فعلى لفظ الظاهر الذي هو المساكن المؤنثة، وهو قليل لا يستعمل إلا في الشعر. وقال أبو حاتم: لا يَستقيم هذا في اللغة إلا أن يكون فيها إضمار؛ كما تقول في الكلام: لا تُرى النساء إلا زينب. ولا يجوز: لا تُرى إلا زينب. وقال سيبويه: معناه: لا تُرى أشخاصهم إلا مساكنهم.

واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءةَ عاصم وحمزة. قال الكسائيُّ: معناه لا يُرى شيء إلا مساكنهم[3]، فهو محمولٌ على المعنى؛ كما تقول: ما قام إلا هندٌ، والمعنى ما قام أحدٌ إلا هند. وقال الفرَّاءُ: لا يُرى الناسُ لأنهم كانوا تحتَ الرمل، وإنما تُرى

---

(١) في النسخ: أعلى. والمثبت من (د) والنكت والعيون، والعبارة فيه: إلا ما يلين على الجلود.

(٢) السبعة ص٥٩٨، والتيسير ص ٢٠٠. ولم نقف على وجهي القراءة لابن كثير وعاصم، والمتواتر عن عاصم: يُرى، وعن ابن كثير: تَرى.

(٣) تفسير الرازي ٢٨/٢٨.

مساكنُهم لأنها قائمة[١]. ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: مثل هذه العقوبة نُعاقب بها المشركين.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ قيل: إنَّ «إنْ» زائدةٌ؛ تقديره: ولقد مكَّناهم فيما مكَّناكم فيه. وهذا قول القتبيِّ[٢].

وأنشد الأخفش:

يُرَجِّي المرءُ ما إنْ لا يراهُ وتَعرِضُ دون أدناهُ الخُطوبُ[٣]

وقال آخر:

فما إنْ طِبُّنَا جُبْنٌ ولكن منايانا ودَوْلَةُ آخرينا[٤]

وقيل: إن «ما» بمعنى الذي. و«إن» بمعنى ما؛ والتقدير: ولقد مكناهم في الذي ما مكناكم فيه؛ قاله المبرِّدُ[٥].

وقيل: شرطية وجوابها مضمر محذوف؛ والتقدير: ولقد مكناهم في ما إن

(١) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٠.

(٢) تفسير غريب القرآن ص ٤٠٨، وتفسير الرازي ٢٨/ ٢٩.

(٣) النوادر في اللغة ص ٦٠، والصاهل والشاحج ص ٢٥٤، وخزانة الأدب ٨/ ٤٤٠. وقائله ـ كما في النوادر ـ هو جابر بن رألان الطائي جاهلي.

(٤) البيت لفروة بن مُسيك كما في الكتاب ٣/ ١٥٣، والصاهل والشاحج ص٢٥٤-٢٥٥، وذكره المبرد في الكامل ١/ ٤٤١، والبغدادي في الخزانة ٤/ ١١٢ دون نسبة، وقوله: «طِبُّنا» الطِّبُّ بمعنى العلة والسبب، أي: لم يكن سبب قتلنا الجبن وإنما كان ما جرى به القدر من حضور المنية وانتقالِ الحال عنا والدُّولة. قاله في الخزانة.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٠، والوسيط ٤/ ١١٤، وتفسير البغوي ٤/ ١٧١.

مكناكم فيه كان بغيُكم أكثرَ وعنادكم أشدّ؛ وتمَّ الكلام[١]، ثم ابتدأ فقال: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ يعني قلوباً يفقهون بها[٢]. ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ من عذاب الله. ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ﴾: يكفرون. ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم﴾: أحاط بهم[٣] ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ يُريدُ حِجْرَ ثمود وقُرى لوط ونحوهما مما كان يجاورُ بلادَ الحجاز، وكانت أخبارهم متواترة عندهم. ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ يعني الحُجَجَ والدلالاتِ وأنواعَ البيِّنات والعِظات، أي: بيَّناها لأهل تلك القرى[٤]. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فلم يَرْجعوا. وقيل: أي: صرَّفنا آياتِ القرآن في الوعد والوعيد والقصص والإعجاز لعلَّ هؤلاء المشركين يَرْجِعون.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ﴾ «لَوْلَا» بمعنى هلَّا، أي: هلَّا نصرَهم آلهتُهم التي تقرَّبوا بها ـ بزعمهم ـ إلى الله لتشفع لهم حيث قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، ومنعَتهم من الهلاك الواقع بهم! قال الكسائيُّ: القُرْبان كلُّ ما يُتقرَّب به إلى الله تعالى من طاعةٍ ونَسيكة، والجمعُ: قرابين؛ كالرُّهبان والرَّهابين[٥].

وأحد مفعولي «اتخذ» الراجعُ إلى «الذين» المحذوف، والثاني: «آلِهةً».

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٨٤ - ٢٨٥ .
(٢) زاد المسير ٧/ ٣٨٦ .
(٣) معاني القرآن للفراء ٣/ ٥٦ .
(٤) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢١/ ١٦١ ، ومجمع البيان ٢٦/ ٢١ .
(٥) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٧١ - ١٧٢ دون نسبة .

و«قُرْبَاناً»: حال، ولا يصحُّ أن يكون «قُرْبَانًا» مفعولاً ثانياً، و«آلِهةً» بدل منه؛ لفساد المعنى؛ قاله الزمخشري. وقرئ: «قُرُباناً»؛ بضم الراء[1].

﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ أي: هَلكوا عنهم. وقيل: «بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ» أي: ضلَّت عنهم آلهتهم؛ لأنها لم يُصبها ما أصابهم؛ إذ هي جمادٌ. وقيل: «ضَلُّوا عَنْهُمْ»، أي: تركوا الأصنام وتبرؤوا منها. ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ أي: والآلهة التي ضلَّت عنهم هي إفكهم في قولهم: إنها تقرِّبهم إلى الله زلفى[2].

وقراءة العامة: «إِفْكُهُمْ» بكسر الهمزة وسكون الفاء، أي: كذبهم. والإفك: الكذب، وكذلك الأفِيكة، والجمع: الأفائك. ورجل أَفَّاكٌ، أي: كَذَّاب.

وقَرأ ابن عباس ومجاهد وابن الزبير: «وَذَلِكَ أَفَكَهُمْ» بفتح الهمزة والفاء والكافِ، على الفعل، أي: ذلك القول صَرَفهم عن التوحيد[3]. والأَفْكُ ـ بالفتح ـ مصدر قولك: أفَكه يَأفِكه أفْكاً، أي: قلبَه وصرَفه عن الشيء.

وقَرأ عكرمة: «أَفَّكهم» بتشديد الفاء على التأكيد والتكثير[4]. قال أبو حاتم: يعني قَلبهم عمَّا كانوا عليه من النعيم.

وذكر المهدويُّ عن ابن عباس أيضاً: «آفِكُهم» بالمدِّ وكسر الفاء، بمعنى صارِفُهم.

---

(١) الكشاف ٤/ ٥٢٦ وقد أعرب «قرباناً» مفعول اتخذوا، وآلهة بدلاًمنه: العكبري في الإملاء ٢/ ٢٣٥، وذكره مكي في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٦٩. وقوله: ولا يصح أن يكون «قرباناً» مفعولاً ثانياً... إلخ، قال السمين الحلبي في الدر المصون ٩/ ٦٧٧: ووجه الفساد - والله أعلم - أن القربان اسم لما يتقرب به إلى الإله، فلو جعلناه مفعولاً ثانياً وآلهة بدلاً منه لزم أن يكون الشيء المتقَرَّبُ به آلهةً، والفرض أنه غير الآلهة، بل هو شيءٌ يتقرب به إليها فهو غيرها، فكيف تكون الآلهة بدلاً منه؟ هذا ما لا يجوز.

(٢) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٤/ ١٧٢.

(٣) ذكرها عنهم جميعاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٣٩، وعن ابن عباس ابنُ جني في المحتسب ٢/ ٢٦٧، وأخرجها عنه أيضاً الطبري في تفسيره ٢١/ ١٦٣.

(٤) قراءة عكرمة في المحرر الوجيز ٥/ ١٠٤، وذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٦٧، وابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٣٩ عن عياض.

وعن عبد الله بن الزُّبير باختلاف عنه: «آفَكَهم» بالمدّ[١]، فجاز أن يكون أفعلَهم، أي: أَصَارَهم إلى الإفك. وجاز أن يكون فاعلَهم، كخَادَعَهم.

ودليلُ قراءة العامة: «إِفْكُهُمْ» قوله: ﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: يكذبون.

وقيل: «إِفْكُهم» مثلُ: «أَفَكَهم». الإفْك والأفَك كالحِذْر والحَذَر[٢]؛ قاله المهدويُّ.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ هذا توبيخ لمشركي قريش، أي: إن الجنَّ سمِعوا القرآن فآمنوا به، وعلموا أنه من عند الله، وأنتم معرضون مصِرُّون على الكفر[٣]. ومعنى: «صَرَفْنَا»: وجَّهنا إليك وبَعثنا. وذلك أنهم صُرِفوا عن استراق السمع من السماء برجوم الشُّهُب ـ على ما يأتي ـ ولم يكونوا بعدَ عيسى قد صُرِفوا عنه إلا عند مبعثِ النبيِّ ﷺ[٤].

قال المفسرون؛ ابنُ عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وغيرهم: لمَّا مات أبو طالب خَرج النبيُّ ﷺ وحدَه إلى الطائف يَلْتمِس من ثَقيف النصرةَ، فقصد عبْدَ ياليل ومسعوداً وحبيباً وهم إخوة، بنو عمرو بن عمير، وعندهم امرأة من قريش من بني جُمَح، فدعاهم إلى الإيمان، وسألَهم أن يَنْصُروه على قومه، فقال أحدهم: هو يَمْرُط ثيابَ الكعبة[٥] إن كان اللهُ أرسلَك! وقال الآخر: ما وجَد اللهُ أحداً يرسِله غيرَك! وقال

(١) يعني بالمد وفتح الفاء والكاف كما في القراءات الشاذة ص١٣٩، والمحتسب ٢/ ٢٦٧، والمحرر الوجيز ٥/ ١٠٤.

(٢) المحتسب ٢/ ٢٦٧ - ٢٦٨، وذكر صاحب القاموس: أنها بكسر الهمزة وفتحها وبالتحريك.

(٣) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢١/ ١٦٣.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٨٥.

(٥) أي: ينزعه ويسقطه عنها. ينظر القاموس (مرط).

الثالثُ: واللهِ لا أكلمك كلمةً أبداً؛ إن كان اللهُ أرسلك كما تقول؛ فأنت أعظمُ خطراً من أن أردَّ عليك الكلامَ، وإن كنت تكذبُ؛ فما ينبغي لي أن أكلِّمَك. ثم أغرَوْا به سفهاءَهم وعبيدَهم يسبُّونه ويضحكون به، حتى اجتمع عليه الناسُ، وألجؤوه إلى حائطٍ لعتبة وشيبة ابني ربيعة. فقال لِلْجُمَحِيَّة: «ماذا لقينا من أَحمائك»؟ ثم قال: «اللهم إني أشكو إليك ضَعْفَ قوّتي وقِلَّةَ حِيلتي وهواني على الناس، يا أرحمَ الراحمين، أنت ربُّ المستضعفين، وأنت ربي، لِمن تَكِلُني! إلى عبدٍ يَتَجَهَّمُني[1]، أو إلى عدوٍّ ملَّكته أمري! إن لم يكن بك غضبٌ عليَّ فلا أبالي، ولكن عافيتُك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك من أن يَنزل بي غضبك، أو يحلَّ عليَّ سخطك، لك العُتْبَى حتى ترضى، ولا حول ولا قوّة إلا بك». فرحمه ابنا ربيعة وقالا لغلامٍ لهما نصرانيٍّ يقال له عدَّاس: خذ قِطْفاً من العنب، وضَعْه في هذا الطبق، ثم ضعْه بين يدي هذا الرجل. فلمَّا وضعَه بين يدي رسولِ الله ﷺ قال النبيُّ ﷺ: «باسم الله» ثم أكَل. فنظَر عدَّاس إلى وجهه ثم قال: واللهِ إن هذا الكلامَ ما يقوله أهلُ هذه البلدة! فقال النبيُّ ﷺ: «مِن أيِّ البلاد أنت يا عدَّاس، وما دينُك؟» قال: أنا نصرانيٌّ من أهل نِينَوَى. فقال له النبيُّ ﷺ: «أَمِن قرية الرجلِ الصالح يونس بن متَّى؟» فقال: وما يدريك ما يونس بن متَّى؟ قال: «ذاك أخي، كان نبيًّا وأنا نبيٌّ». فانكبَّ عدَّاس حتى قبَّل رأس النبيِّ ﷺ ويديه ورجليه. فقال له ابنا ربيعة: لِمَ فَعلتَ هكذا!؟ فقال: يا سَيِّدِي، ما في الأرض خيرٌ من هذا، أخبرني بأمرٍ ما يعلمه إلا نبيٌّ. ثم انصرف النبيُّ ﷺ حين يئس من خير ثَقيف، حتى إذا كان ببطن نَخْلة؛ قام من الليل يصلّي، فمرَّ به نفرٌ من جنٍّ أهل نَصِيبِين[2].

---

(١) أي: يلقاني بالغلظة والوجه الكريه. النهاية (جهم).

(٢) السيرة النبوية ١/٤١٩ - ٤٢٢ بنحوه، وأخرجه مختصراً الطبراني في المعجم الكبير ٢٥/٣٤٦، والبغدادي في الجامع لأخلاق الراوي (١٩٠١) من حديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما.

وذكره ابن حبان في الثقات ١/٧٦-٧٩، وابن حجر في الإصابة ٦/ ٣٩٩ مختصراً في ترجمة عداس ﷺ.

وكان سبب ذلك أن الجنَّ كانوا يَسترِقون السمعَ، فلما حُرست السماء ورُمُوا بالشُّهب قال إبليس: إن هذا الذي حدَث في السماء لِشيء حدث في الأرض؛ فبعث سراياه ليعرف الخبرَ ـ أوّلهم رَكْب نَصيبين، وهم أشراف الجنّ ـ إلى تِهامة، فلما بلغوا بَطْن نخلة سمعوا النبيَّ ﷺ يصلِّي صلاةَ الغداة ببطن نخلة ويتلو القرآن، فاستمعوا له وقالوا: أنصتوا[1].

وقالت طائفة: بل أُمِر النبيُّ ﷺ أن يُنذر الجنّ ويَدعوَهم إلى الله تعالى ويَقْرَأ عليهم القرآن، فصرف الله عزَّ وجلَّ إليه نفراً من الجنِّ من نِينَوى وجمعَهم له؛ فقال النبيُّ ﷺ: «إني أريد أن أَقْرَأ القرآن على الجنِّ الليلةَ فأيكم يَتْبَعني؟» فأطرَقوا، ثم قال الثانيةَ فأطرَقوا، ثم قال الثالثة فأطرقوا؛ فقال ابن مسعود: أنا يا رسول الله؛ قال ابن مسعود: ولم يحضر معه أحدٌ غيري، فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة دخَل النبيُّ ﷺ شِعْبًا يقال له: «شِعْب الْحَجُون»[2] وخطَّ لي خطًّا وأمرَني أن أجلس فيه وقال: «لا تخرج منه حتى أعود إليك». ثم انطلق حتى قام، فافتتح القرآن، فجعلت أرى أمثال النسور تهوي وتمشي في رفرفها[3]، وسمعت لَغَطاً وغَمْغَمَةً حتى خِفْتُ على النبيِّ ﷺ، وغَشِيته أَسْوِدةٌ كثيرة حالَت بيني وبينه حتى ما أسمعُ صوتَه، ثم طفِقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين، ففرَغ النبيُّ ﷺ مع الفجر فقال: «أَنِمْتَ»؟ قلت: لا واللهِ، ولقد هممتُ مِرَاراً أن أستغيثَ بالناس حتى سمعتُك تَقْرَعهم بعصاك تقول: اجلِسوا؛ فقال: «لو خرجتَ لم آمَن عليك أن يخطفكَ بعضُهم» ثم قال: «هل رأيتَ شيئاً؟» قلت: نعم يا رسول الله، رأيتُ رِجالاً سوداً مُسْتَثْفِري ثياباً بيضاً[4]؛ فقال:

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ١٦٤ عن ابن عباس مطولاً. وأخرجه عنه الإمام أحمد (٢٢٧١)، والبخاري (٧٧٣)، ومسلم (٤٤٩) بنحوه.

(٢) الحَجون: جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها. معجم البلدان ٢/ ٢٢٥.

(٣) في (ظ) دفوفها.

(٤) كذا في النسخ، وفي تفسير الطبري ٢١/ ١٦٨: مستثفري ثياب بياض. والاستثفار: هو أن يدخل الرَّجل ثوبه بين رجليه كما يفعل الكلب بذنَبه. النهاية (ثفر).

«أولئك جِنُّ نَصِيبين سألوني المتاع والزادَ، فمتَّعتهم بكل عظم حائل[١] ورَوْثة وبعرة». فقالوا: يا رسول الله، يَقْذَرها الناس علينا. فنهى رسول الله ﷺ أن يُسْتَنْجَى بالعظم والرَّوْث. قلت: يا نبيَّ الله، وما يُغْني ذلك عنهم! قال: «إنهم لا يجدون عظماً إلا وجدوا عليه لحمه يوم أُكِل، ولا رَوْثة إلا وجدوا فيها حَبَّها يوم أُكِل» فقلت: يا رسول الله، لقد سمعت لَغَطاً شديداً؟ فقال: «إن الجِنَّ تدارأت في قتيل بينهم، فتحاكموا إليَّ فقضيت بينهم بالحقّ». ثم تبرَّز النبيُّ ﷺ ثم أتاني فقال: «هل معك ماء»؟ فقلت يا نبيَّ الله، معي إِداوة فيها شيء من نبيذ التمر، فصببت على يديه فتوضأ فقال: «تمرة طيِّبة وماء طهور»[٢]. روى معناه معمر عن قتادة وشُعبة أيضاً عن ابن مسعود. وليس في حديث معمر ذكر نبيذ التمر.

ورويَ عن أبي عثمان النَّهْدِيِّ أن ابن مسعود أَبْصَرَ زُطًّا[٣] فقال: ما هؤلاء؟ قال: هؤلاء الزُّطّ. قال: ما رأيت شبههم إلا الجنّ ليلة الجنّ، فكانوا مستفزِّين يتبع بعضهم بعضاً[٤].

وذكر الدَّارقُطْنيُّ[٥] عن عبد الله بن لَهِيعة، حدَّثني قيس بن الحجَّاج، عن حَنَش، عن ابن عباس، عن ابن مسعود أنه وضَّأ النبيَّ ﷺ ليلةَ الجنِّ بنبيذٍ، فتوضأ به وقال: «شراب وطهور». ابنُ لَهِيعة لا يحتج به. وبهذا السند عن ابن مسعود: أنه خَرج مع النبيّ ﷺ ليلة الجنِّ، فقال له رسول الله ﷺ: «أمعك ماءٌ يا ابنَ مسعود»؟ فقال: معي

---

(١) أي متغير، قد غَيَّره البِلَى. النهاية (حول).

(٢) أخرجه مقطعاً الطبريُّ في تفسيره ٢١/ ١٦٦ - ١٦٩، وأخرجه بسياق أخصر منه الإمامُ أحمد (٤٣٨١)، وإسناده ضعيف. وسلف ١٥/ ٤٤١ قولُه: «تمرة طيبة وماء طهور» ومداره على أبي زيد، وهو مجهول اهـ. قال النووي في شرحه لصحيح مسلم ٤/ ١٦٩: وحديث النبيذ ضعيف باتفاق المحدثين.

(٣) الزط: جنس من السودان والهنود. النهاية (زطط).

(٤) عزاه الزيلعي في نصب الراية ١/ ١٤٠ للبيهقي، وأخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/ ٢١٨ - ١١٩، والطبري ٢١/ ١٦٧.

(٥) برقم (٢٤٣).

نبيذٌ في إداوةٍ؛ فقال رسول الله ﷺ: «صُبَّ عليَّ منه». فتوضأ وقال: «هو شراب وطهور» تفرَّد به ابن لَهِيعة، وهو ضعيف الحديث[١].

قال الدَّارَقُطْنِي[٢]: وقيل: إن ابن مسعود لم يشهد مع النبيِّ ﷺ ليلةَ الجنِّ. كذلك رواه علقمة بن قيس وأبو عبيدة بن عبد الله وغيرهما عنه أنه قال: ما شهدت ليلة الجنِّ. حدَّثنا أبو محمد بن صاعد، حدَّثنا أبو الأشعث، حدَّثنا بشر بن المفضَّل[٣]، حدثنا داود بن أبي هند، عن عامر، عن علقمة بن قيس، قال: قلت لعبد الله بن مسعود: أشَهِدَ رسولَ الله ﷺ أحدٌ منكم ليلةَ أتاه داعي الجنِّ؟ قال: لا. قال الدَّارقُطْنِيُّ: هذا إسناد صحيح لا يُختلف في عدالة رواته[٤].

وعن عمرو بن مُرّة قال: قلت لأبي عبيدة: حضر عبد الله بن مسعود ليلةَ الجنّ؟ فقال: لا[٥]. قال ابن عباس: كان الجنُّ سبعة نفر من جنِّ نَصِيبين فجعلَهم النبيُّ ﷺ رسلاً إلى قومهم[٦].

وقال زِرُّ بن حُبيش: كانوا تسعة؛ أحدهم زَوْبعة. وقال قتادة: إنهم من أهل نِينَوَى[٧]. وقال مجاهد: من أهل نجران. وقال عكرمة: من جزيرة الموصل. وقيل: إنهم كانوا سبعة، ثلاثة من أهل نجران، وأربعة من أهل نَصِيبين[٨].

---

(١) سنن الدارقطني (٢٤٤).

(٢) إثر الحديث السالف (٢٤٣).

(٣) في (ظ) و(م) الفضل. والمثبت من باقي النسخ وسنن الدارقطني.

(٤) في (م) راويه. والمثبت من باقي النسخ وسنن الدارقطني ورقمه (٢٤٥)، وهو عند الإمام أحمد (٤١٤٩)، ومسلم (٤٥٠).

(٥) سنن الدارقطني (٢٤٦).

(٦) أخرجه الطبري ٢١/ ١٦٥، والطبراني في المعجم الكبير ١١/ ٢٥٦ (١١٦٦٠) وابن عدي في الكامل ٧/ ٢٤٨٨.

(٧) أخرج قولهما الطبري ٢١/ ١٦٥ - ١٦٦.

(٨) المثبت من (خ) وهو الموافق لما في النكت والعيون ٥/ ٢٨٦، والكلام منه، وفي غير (خ): حران.

وروى ابن أبي الدنيا أن النبيَّ ﷺ قال في هذا الحديث وذكر فيه نَصِيبين فقال: «رفعت إليَّ حتى رأيتها، فدعوتُ الله أن يكثر مطرَها وينضر شجرَها وأن يُغْزر نهرها»[١].

وقال السهيلي[٢]: ويقال: كانوا سبعة، وكانوا يهوداً فأسلموا؛ ولذلك قالوا: «أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى».

وقيل في أسمائهم: شاصر وماصر ومنشى وماشى والأحقب؛ ذكر هؤلاء الخمسة ابنُ دريد. ومنهم عمرو بن جابر؛ ذكره ابن سلام من طريق أبي إسحاق السَّبِيعي عن أشياخه، عن ابن مسعود: أنه كان في نَفَرٍ من أصحاب النبيِّ ﷺ يَمشون، فرفع لهم إعصار، ثم جاء إعصارٌ أعظم منه؛ فإذا حَيَّةٌ قتيل، فعمد رجلٌ منا إلى ردائه فشقَّه وكفَّن الحيةَ ببعضه، ودفنها، فلما جَنَّ الليل إذا امرأتان تسألان: أيُّكم دفن عمرو بنَ جابر؟ فقلنا: ما ندري مَن عمرو بنُ جابر! فقالتا: إن كنتم ابتغيتم الأجرَ فقد وجدتموه، إن فَسقَةَ الجنِّ اقتتلوا مع المؤمنين فقُتل عمرو، وهو الحيَّة التي رأيتم، وهو مِن النفر الذين استمعوا القرآن من محمدٍ ﷺ ثم وَلَّوْا إلى قومهم منذِرين. وذكر ابنُ سلام رواية أخرى: أن الذي كفَّنه هو صفوان بن المُعَطَّل.

قلت: وذكر هذا الخبر الثعلبي بنحوه فقال: وقال ثابت بن قُطْبة: جاء أناس إلى ابن مسعود فقالوا: إنا كنا في سفر، فرأينا حيةً متشحِّطة في دمائها[٣]، فأخذها رجل منا فواريناها؛ فجاء أناس فقالوا: أيكم دفن عَمْرًا؟ قلنا: وما عمرو! قالوا: الحية التي دفنتم في مكان كذا؛ أمَا إنه كان من النفر الذين سمعوا القرآنَ من النبيِّ ﷺ،

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الهواتف (٧٤) بنحوه عن حذيفة بن غانم العدوي، وفي إسناده محمد بن عباد ابن موسى العُكْلي؛ قال فيه الحافظ ابن حجر في التقريب: صدوق يخطئ. ومحمد بن زياد بن زبَّار الكلبي، قال فيه يحيى بن معين: ليس بشيء، الميزان ٣/ ٢٥٥. وحذيفة بن غانم العدوي لم نعرفه.

(٢) في التعريف والإعلام ص ١٥٦ - ١٥٧.

(٣) أي: مضرجة بالدم. ينظر القاموس (شحط).

وكان بين حَيَّيْن من الجنِّ مسلمين وكافرين قتال فقُتل[١].

ففي هذا الخبر أن ابن مسعود لم يكن في سفر ولا حَضَرَ الدفن؛ والله أعلم. وذكر ابن أبي الدنيا عن رجلٍ من التابعين سَمَّاه: أن حية دخلت عليه في خِبائه تلْهَثُ عطشاً فسقاها، ثم إنها ماتت فدفنها، فأُتي من الليل فسلَّم عليه وشكره؛ وأخبر أن تلك الحيَّةَ كانت رجلاً من جنِّ نَصِيبين اسمه: زوبعة.

قال السُّهَيْلِيُّ[٢]: وبلغنا في فضائل عمر بن عبد العزيز ﷺ مما حدَّثنا به أبو بكر بن طاهر الأشبيلي، أن عمر بن عبد العزيز كان يمشي بأرض فلاة، فإذا حية ميِّتة فكفَّنها بفضلةٍ من ردائه ودفنها؛ فإذا قائل يقول: يا سرق، أشهدُ لسمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ستموتُ بأرض فلاة، فيكفنك رجلٌ صالح». فقال: ومَن أنت يرحمك الله! فقال: رجلٌ من الجنِّ الذين استمعوا القرآن من رسول الله ﷺ لم يبق منهم إلا أنا وسرق؛ وهذا سرق قد مات[٣].

وقد قَتَلَت عائشة رضي الله عنها حيةً رأتها في حُجرتها تستمع[٤] وعائشةُ تقرَأ؛ فأُتيت في المنام فقيل لها: إنك قتلت رجلاً مؤمناً من الجنِّ الذين قدِموا على رسول الله ﷺ؛ فقالت: لو كان مؤمناً ما دخَل على حرَم رسول الله ﷺ؛ فقيل لها: ما دخل عليك إلا وأنت مقنَّعة، وما جاء إلا ليستمع الذِّكر. فأصبحت عائشةُ فزِعةً، واشترت رقابًا فأعتقتهم[٥].

---

(١) ذكره عن ثابت الحكيمُ الترمذي في نوادر الأصول ص٥١ بنحوه، والله أعلم بصحته.

(٢) في التعريف والإعلام ص ١٥٧ - ١٥٨ وما قبله منه.

(٣) وأخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ١٤٦/٤٥ عن أبي معمر الأنصاري... فذكره، والله أعلم بصحته.

(٤) بعدها في (ظ): القرآن.

(٥) ذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ٥١، وابن عبد البر في الاستذكار ٢٥٩/٢٧ عن ابن أبي مليكة وغيرِه عن عائشة رضي الله عنها. وذكره العيني في عمدة القاري ١٨٥/١٠ عن ابن أبي مليكة عن عائشة بنت طلحة أن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها رأت في مغتسلها حية فقتلتها... فذكره.

قال السهيليُّ[١]: وقد ذكرنا من أسماء هؤلاء الجنِّ ما حضَرنا؛ فإن كانوا سبعةً فالأحقب منهم وَصْفٌ لأحدهم، وليس باسم عَلَم؛ فإن الأسماء التي ذكرناها آنفاً ثمانيةٌ بالأحقب. والله أعلم.

قلت: وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخه: هامة بن الهيم بن الأقيس[٢] بن إبليس؛ قيل: إنه من مؤمني الجنِّ وممن لقي النبيَّ ﷺ وعلَّمه سورة ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ و﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ و﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ و﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و﴿ٱلْحَمْدُ﴾ و﴿الْمُعَوِّذَتَيْنِ﴾. وذكَر أنه حضر قتلَ هابيل وشَرِك في دمه وهو غلام ابن أعوام، وأنه لقي نُوحاً وتاب على يديه، وهوداً وصالحاً ويعقوب ويوسف وإلياسَ وموسى بنَ عمران وعيسى بن مريم عليهم السلام[٣]. وقد ذكر الماورديُّ أسماءهم عن مجاهد فقال: حسى ومسى ومنشى وشاصر وماصر والأرد وأنيان والأحقم[٤]. وذكرها أبو عمرو عثمان بن أحمد المعروف بابن السمَّاك قال: حدَّثنا محمد بن البراء قال: حدَّثنا الزبير بن بكار قال: كان حمزة بن عتبة بن أبي لهب يُسَمِّي جِنَّ نَصِيبين الذين قدِموا على رسول الله ﷺ فيقول: حسى ومسى وشاصر وماصر والأفخر والأرد وأنيال.

---

(١) في التعريف والإعلام ص١٥٨ ، وما قبله منه.

(٢) في المصادر الآتية: لاقيس ، بدل : الأقيس، وقال ابن حجر في الإصابة ١٠/ ٢٢٧ في «هامة»: ذكره جعفر المستغفري في الصحابة : وقال : لا يثبت إسناد خبره .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الهواتف (١٠١) ، والعقيلي في الضعفاء ٤/ ٩٦ - ٩٧ ، من حديث أنس ﷺ . وفي إسناده محمد بن عبد الله الأنصاري ، منكر الحديث كما في الضعفاء وتهذيب الكمال ٢٥/ ٤٨١ - ٤٨٢ .

وأخرجه - أيضاً - العقيلي في الضعفاء ١/ ٩٨ - ١٠٠ ، والبيهقي في الدلائل ٥/ ٤١٨ - ٤٢٠ من حديث عمر ابن الخطاب ﷺ. وقال الذهبي في الميزان ١/ ١٨٦ : لا أعلم أشنع من الحديث الذي رواه العقيلي ... فذكره ثم قال : وهذا الحديث قد رواه البيهقي بإسناد أصلح من هذا.. اهـ وقال العقيلي ٣/ ٥٩٩ : ... وهو باطل بالإسنادين .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٨٦ ، وأخرجه ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٩٧ (١٨٥٨٠) عن سويد بن عبد العزيز ، عن رجل سماه عن ابن جريج . وسويد ضعيف كما قال الحافظ ابن حجر في التقريب. ولم يذكر في المصادر اسم «منشى» ، وينظر الدر المنثور ٦/ ٤٥ .

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي: حضروا النبيَّ ﷺ، وهو من باب تلوين الخطاب. وقيل: لما حضروا القرآن واستماعه[١] ﴿قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ۖ﴾ أي: قال بعضهم لبعض: اسكتوا لاستماع القرآن. قال ابن مسعود: هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرَأ القرآنَ ببطن نَخْلة، فلمَّا سمعوه ﴿قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ۖ﴾ قالوا: صه. وكانوا سبعة: أحدهم زوبعة؛ فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ۖ﴾ الآية إلى قوله: ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٢].

وقيل: «أَنْصِتُوا» لسماع قولِ رسول الله ﷺ؛ والمعنى متقارب. ﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾ وقرأ لاحق بن حُميد وخُبيب بن عبد الله بن الزبير: «فَلَمَّا قَضَى» بفتح القاف والضاد[٣]؛ يعني النبيَّ ﷺ قبل الصلاة. وذلك أنهم خرَجوا حين حُرست السماء من استراق السمع ليستخبروا ما أوجب ذلك؟ فجاؤوا وادي نخلة والنبيُّ ﷺ يقرأ في صلاة الفجر، وكانوا سبعة، فسمعوه وانصرفوا إلى قومهم منذِرين، ولم يعلم بهم النبيُّ ﷺ. وقيل: بل أُمر النبيُّ ﷺ أن ينذِر الجنَّ ويقرَأ عليهم القرآن، فصرف اللهُ إليه نفراً من الجنِّ ليستمعوا منه وينذِروا قومَهم؛ فلمَّا تلا عليهم القرآنَ وفرَغ؛ انصرفوا بأمره قاصدين مَن وراءهم من قومهم من الجنِّ، منذرين لهم مخالفةَ القرآن ومحذِّرين إياهم بأسَ الله إن لم يؤمنوا. وهذا يدلُّ على أنهم آمنوا بالنبيِّ ﷺ، وأنه أرسلهم. ويدلُّ على هذا قولُهم: «يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ» ولولا ذلك لمَا أنذَروا قومَهم[٤]. وقد تقدَّم عن ابن عباس أنَّ النبيِّ ﷺ جعلهم رسلاً إلى قومهم[٥]؛ فعلى هذا ليلةُ الجنِّ

---

(١) تفسير الطبري ٢١/ ١٧٠ .

(٢) أخرجه الدارقطني في العلل ٥/ ٥٥ دون قوله : فأنزل : ﴿إذ صرفنا ...﴾ ، وأخرجه بتمامه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٥٦ ، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٤٤ لابن أبي شيبة ، وابن منيع وابن مردويه وأبي نعيم والبيهقي .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١٠٥ ، والبحر المحيط ٨/ ٦٧ ، وهي قراءة شاذة.

(٤) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢١/ ١٦٤ و١٧١ .

(٥) ص٢٢٤ من هذا الجزء.

ليلتان، وقد تقدَّم هذا المعنى مستوفًى. وفي صحيح مسلم[١] ما يدلُّ على ذلك؛ على ما يأتي بيانه في ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ [الجن: ١].

وفي صحيح مسلم عن مَعْن قال: سمعتُ أبي قال: سألت مسروقاً: مَن آذنَ النبيَّ ﷺ بالجنِّ ليلةَ استمعوا القرآن؟ فقال: حدَّثني أبوك ـ يعني ابنَ مسعود ـ أنه آذنَتْه بهم شَجَرةٌ[٢].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ أي: القرآن؛ وكانوا مؤمنين بموسى. قال عطاء: كانوا يهوداً فأسلَموا، ولذلك قالوا: «أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى». وعن ابن عباس: أن الجِنَّ لم تكن سمِعتْ بأمر عيسى؛ فلذلك قالت: «أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى»[٣].

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني ما قبْلَه من التوراة. ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾: دينِ الحق. ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: دينِ اللَّهِ القويم. ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ يعني محمداً ﷺ، وهذا يَدلُّ على أنه كان مبعوثاً إلى الجِنِّ والإنس. قال مقاتل: ولم يَبعث اللهُ نبيًّا إلى الجنِّ والإنس قبلَ محمدٍ ﷺ[٤].

---

(١) برقم (٤٤٩) من حديث ابن عباس ﷺ، وسلف بنحوه ص٢٢٠-٢٢٢ من هذا الجزء.

(٢) صحيح مسلم (٤٥٠) (١٥٣)، وقوله: «آذنته بهم شجرة» أي أعلمته بهم، وظاهره أن الله تعالى خلق فيها نطقاً فهِمه النبيُّ ﷺ، كما خلَق في الذراع المسمومة نطقاً. المفهم ٧/ ٤٢٢. ومعن: هو ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٢٧، وذكر قول عطاء ابنُ الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٩٠، وذكر قول ابن عباس ابنُ عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٠٦.

(٤) الوسيط ٤/ ١١٥، والرازي ٢٨/ ٣٢ - ٣٣.

قلت: يَدلُّ على قوله ما في صحيح مسلم[١]: عن جابر بن عبد الله الأنصاريِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أعطِيتُ خمساً لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ قبلي، كان كلُّ نبيٍّ يُبعثُ إلى قومه خاصَّةً وبُعثت إلى كلِّ أحمرَ وأسْوَدَ، وأحِلَّت ليَ الغنائمُ ولم تُحَلَّ لأحدٍ قبلي، وجُعلت ليَ الأرضُ طيِّبةً طهوراً ومسجداً، فأيُّما رَجُلٍ أدركته الصلاةُ صلَّى حيثُ كان، ونُصِرْتُ بالرُّعْبِ بين يَدَيْ مسيرةِ شَهْرٍ، وأُعطِيتُ الشفاعةَ». قال مجاهد: الأحمرُ والأسود: الجنُّ والإنس[٢]. وفي روايةٍ من حديث أبي هريرة: «وبُعثتُ إلى الخَلق كافةً، وخُتم بيَ النَّبيُّون»[٣].

﴿وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: بالداعي، وهو محمدٌ ﷺ. وقيل: «به» أي: باللهِ؛ لقوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾. قال ابن عباس: فاستجاب لهم من قومهم سبعون رجلاً، فرجَعوا إلى النبيِّ ﷺ فوافقوه بالبطحاء؛ فقرَأ عليهم القرآنَ وأمرَهم ونهاهم.

مسألة: هذه الآي تدلُّ على أن الجِنَّ كالإنس في الأمر والنهي والثوابِ والعقاب[٤]. وقال الحسن: ليس لمؤمني الجنِّ ثوابٌ غير نجاتهم من النار[٥]؛ يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. وبه قال أبو حنيفة قال: ليس ثوابُ الجِنِّ إلا أن يُجاروا من النار[٦]، ثم يقال لهم: كونوا تراباً، مثلَ البهائم. وقال آخرون: إنهم كما يُعاقبون في الإساءة يُجازَوْن في الإحسان مثل الإنس.

---

(١) برقم (٥٢١)، وسلف ٤/٢٥٨ و٩/٣٢.

(٢) مسند أحمد (٢١٢٩٩).

(٣) صحيح مسلم (٥٢٣): (٥) وهو عند الإمام أحمد (٩٣٣٧).

(٤) تفسير الرازي ٢٨/ ٣١.

(٥) لم نقف عليه من قول الحسن، وأخرج البيهقي في البعث (١١٧) عن الحسن، عن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ: «إن مؤمني الجن لهم ثواب وعليهم عقاب» فسألناه عن ثوابهم وعن مؤمنيهم؟ فقال: «على الأعراف، وليسوا في الجنة مع أمة محمد ﷺ»... وفي إسناده: يوسف بن يزيد: صدوق ربما أخطأ، وعروة بن رويم: صدوق يرسل كثيراً. كذا في تقريب التهذيب.

قال الإمام النووي في شرح صحيح مسلم ٤/١٦٩: والصحيح أنهم يدخلونها [أي: الجنة] ويتنعمون فيها بالأكل والشرب وغيرهما. وهذا قول الحسن البصري وغيره...

(٦) الكشاف ٤/ ٥٢٧.

وإليه ذَهب مالكٌ والشافعيُّ وابن أبي ليلى. وقد قال الضحاك: الجِنُّ يَدخلون الجنة ويأكلون ويشربون[١]. قال القشيريُّ: والصحيح أن هذا مما لم يُقطع فيه بشيء، والعلمُ عند الله.

قلت: قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ يَدلُّ على أنهم يُثابون ويَدخلون الجنةَ؛ لأنه قال في أوّل الآية: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ إلى أن قال: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأنعام: ١٣٠-١٣٢]. واللهُ أعلم؛ وسيأتي لهذا في سورة الرحمن[٢] مزيدُ بيانٍ إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا يَفوت اللهَ ولا يَسبِقُه. ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ أي: أنصارٌ يمنعونه من عذاب الله. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الرؤيةُ هنا بمعنى العلْم. و«أنّ» واسمها وخبرها سدّت مسدَّ مفعولَي الرؤية. ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ احتجاجٌ على منكري البعثِ. ومعنى «لَمْ يَعْيَ»: يَعْجِز ويَضْعُف عن إبداعهنَّ. يقال: عَيَّ بأمره وعَيِيَ: إذا لم يهتدِ لوجهه[٣]؛ والإدغام أكثر. وتقول في الجمع: عَيُوا ـ مخففاً ـ وعَيّوا أيضاً؛ بالتشديد. قال:

---

(١) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ٢٨/ ٣٣.

(٢) عند تفسير الآية (٤٦) منها.

(٣) زاد المسير ٧/ ٣٩١ بنحوه.

عَيُّوا بِأمرِهِمُ كَمَا عَيَّتْ ببيضتها الحمامه[١]

وعَيِيتُ بأمري: إذا لم تهتد لوجهه. وأعياني هو.

وقرأ الحسن: «وَلَمْ يَعِيْ» بكسر العين وإسكانِ الياء[٢]؛ وهو قليلٌ شاذٌّ، لم يأتِ إعلالُ العين وتصحيح اللام إلا في أسماء قليلة، نحو: غاية وآية. ولم يأت في الفعل سوى بيت أنشده الفرَّاءُ؛ وهو قول الشاعر:

فكأنها بين النساء سَبِيكَةٌ تمشِي بِسُدَّة بَيْتِها فتُعِيُّ[٣]

﴿بِقَـٰدِرٍ﴾ قال أبو عبيدة والأخفشُ: الباء زائدة للتوكيد كالباء في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩]، وقوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]. وقال الكسائيُّ والفرَّاءُ والزجَّاج: الباء فيه خَلَفَ الاستفهام والجحد في أوّل الكلام[٤]. قال الزجَّاج[٥]: والعرب تدخلها مع الجحد؛ تقول: ما ظننت أن زيداً بقائم. ولا تقول: ظننت أن زيداً بقائم. وهو لدخول «ما» ودخول «أنّ» للتوكيد. والتقديرُ: أليس اللهُ بقادر، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ﴾ [يس: ٨١].

وقرأ ابن مسعود والأعرجُ والجَحدرِيُّ وابن أبي إسحاق ويعقوب: «يَقدر»[٦]

---

(١) البيت لعبيد بن الأبرص كما في أدب الكاتب لابن قتيبة ص ٦٧ - ٦٨، والصحاح (عيي)، وزهر الأكم ٢/ ١٩٠، وهو في ديوان عبيد ص ١٣٨ بلفظ:

برمت بنوا أسدٍ كما بَرِمت ببيضتها الحمامه

ونسب لسلامة بن جندل، وهو في ديوانه ص٢٤٨.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٣٩، والمحتسب ٢/ ٢٦٩.

(٣) البيت للحُطيئة كما في تاج العروس (عيي)، وذكره الأزهري في تهذيب اللغة ٣/ ٢٥٨، وابن جني في المحتسب ٢/ ٢٦٩، وقال أبو إسحاق النحوي - كما في تهذيب اللغة -: هذا غير جائز عند حذاق النحويين. وذكر أن البيت الذي استشهد به الفراء ليس بمعروف. وقال الأزهري: والقياس ما قال أبو إسحاق وكلام العرب عليه...

(٤) الوسيط ٤/ ١١٦، وينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢١٣، ومعاني الأخفش ٢/ ٦٩٤، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٥٦.

(٥) في معاني القرآن له ٤/ ٤٤٧ بنحوه.

(٦) قراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٥٥، وهي من العشرة. وعن الأعرج والجحدري وابن أبي إسحاق في تفسير الطبري ٢١/ ١٧٥، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٣ - ١٧٤.

واختاره أبو حاتم؛ لأن دخول الباء في خبر «أنّ» قبيحٌ. واختار أبو عبيدة قراءةَ العامة؛ لأنها في قراءة عبد الله: «خَلَقَ السَّمَاواتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ» بغير باء[١]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: ذكِّرْهم يومَ يعرضون فيقال لهم: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ فيقول لهم المقرِّرُ: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: بكفركم.

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ قال ابن عباس: ذوو الحزمِ والصبر[٢].

قال مجاهد: هم خمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمدٌ عليهم الصلاة والسلام. وهم أصحاب الشرائع[٣].

---

(١) تفسير الطبري ٢١/ ١٧٥، والكشاف ٣/ ٥٢٨، والمحرر الوجيز ٥/ ١٠٦.

(٢) زاد المسير ٧/ ٣٩٢ دون نسبة وذكره عن ابن عباس البغويُّ في تفسيره ٤/ ١٧٦ دون قوله: والصبر. وذكره عن الضحاك بلفظ: ذوو الجد والصبر.

(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٩٢ عن مجاهد وغيره، وذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٧٦ عن ابن عباس وقتادة، وأخرجه الطبري ٢١/ ١٧٧ عن عطاء الخراساني. وهؤلاء الأنبياء الخمسة: هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧] وأشار إلى ذلك المصنف ثمة.

وقال أبو العالية: إن أولي العزم: نوح، وهود، وإبراهيم. فأمر اللهُ عزَّ وجل نبيَّه عليه الصلاة والسلام أن يكون رابعَهم. وقال السدّيُّ: هم ستة: إبراهيم، وموسى، وداود، وسليمان، وعيسى، ومحمدٌ؛ صلوات الله عليهم أجمعين[١].

وقيل: نوح، وهود، وصالح، وشعيب، ولوط، وموسى، وهم المذكورون على النسق في سورة الأعراف والشعراء[٢].

وقال مقاتل: هم ستة: نوحٌ؛ صبرَ على أذى قومِه مدَّةً، وإبراهيم؛ صبر على النار، وإسحاق؛ صبر على الذبح، ويعقوب؛ صبر على فقد الولد وذهاب البصر. ويوسف؛ صبر على البئر والسجن. وأيوب؛ صبر على الضُّرِّ[٣].

وقال ابن جُريج: إن منهم إسماعيل ويعقوب وأيوب، وليس منهم يونس ولا سليمان ولا آدم[٤].

وقال الشعبيُّ والكلبيُّ ومجاهد أيضاً: هم الذين أُمِروا بالقتال، فأظهروا المكاشفةَ وجاهدوا الكفرة[٥]. وقيل: هم نجباءُ الرسل المذكورون في سورة الأنعام[٦]، وهم ثمانية عشر: إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ونوح، وداود، وسليمان، وأيوب، ويوسف، وموسى، وهرون، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وإلياس، وإسماعيل، واليسع، ويونس، ولوط. واختاره الحسن بن الفضل؛ لقوله في عقبه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾[٧] [الأنعام: ٩٠].

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٨٨، وزاد المسير ٧/ ٣٩٢.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٧٦.

(٣) الوسيط ٤/ ١١٦، وتفسير البغوي ٤/ ١٧٦، والمحرر الوجيز ٥/ ١٠٧.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٨٩، وزاد المسير ٧/ ٣٩٢.

(٥) ذكره الواحديُّ في الوسيط ٤/ ١١٦، والبغوي في تفسيره ٤/ ١٧٦ عن الكلبي.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ١٧٦.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ١٠٧.

وقال ابن عباس أيضاً: كلُّ الرسل كانوا أولي عزم[١]. واختاره عليُّ بن مهدي الطبريُّ، قال: وإنما دخلت «من» للتجنيس لا للتبعيض[٢]؛ كما تقول: اشتريتُ أرديةً من البَزِّ وأكسيةً من الخَزِّ[٣]. أي: اصبر كما صَبَر الرسلُ. وقيل: كلُّ الأنبياء أولو عَزْمٍ إلا يونس بن متى[٤]؛ ألا ترى أن النبيَّ ﷺ نُهي أن يكون مثلَه؛ لخفَّةٍ وعَجَلةٍ ظهرت منه حين ولَّى مُغاضِباً لقومه[٥]، فابتلاه الله بثلاث: سلَّط عليه العمالقة حتى أغاروا على أهله وماله، وسلَّط الذئبَ على ولده فأكلَه، وسلَّط عليه الحوتَ فابتلعه؛ قاله أبو القاسم الحكيم.

وقال بعض العلماء: أولو العزم اثنا عشر نبيًّا أرسلوا إلى بني إسرائيل بالشام فعصَوهم، فأوحى اللهُ إلى الأنبياء: إني مرسلٌ عذابي إلى عصاة بني إسرائيل؛ فشقَّ ذلك على المرسلين، فأوحى اللهُ إليهم: اختاروا لأنفسكم، إن شئتم أنزلتُ بكم العذابَ وأنجيتُ بني إسرائيل، وإن شئتم نجَّيتكم وأنزلتُ العذابَ ببني إسرائيل؛ فتشاوروا بينهم، فاجتمع رأيُهم على أن ينزل بهم العذاب، وينجي اللهُ بني إسرائيل[٦]؛ فأنجى الله بني إسرائيل وأنزَل بأولئك العذاب. وذلك أنه سلط عليهم ملوكَ الأرض؛ فمنهم من نُشر بالمناشير، ومنه من سُلِخَ جلدة رأسه ووجهه، ومنهم من صُلب على الخشب حتى مات، ومنهم من حُرِّق بالنار. والله أعلم.

وقال الحسن: أُولو العزم أربعة: إبراهيم، وموسى، وداود، وعيسى؛ فأما

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/١٧٧ عن ابن زيد.

(٢) المحرر الوجيز ٥/١٠٧.

(٣) تفسير البغوي ٤/١٧٦.

(٤) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/١٠٧ من قول أبي القاسم الحكيم، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/٣٩٣ عن الثعلبي.

(٥) تفسير البغوي ٤/١٧٦ بنحوه.

(٦) ينظر تفسير أبي الليث ٣/٢٣٧.

إبراهيم فقيل له: ﴿أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، ثم ابتلِيَ في ماله وولده ووطنه ونفسه، فوجد صادقاً وافيًا في جميع ما ابتلي به. وأما موسى فعزمُه حين قال له قومه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ . قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١-٦٢]. وأما داود فأخطأ خطيئته فنُبِّه عليها، فأقام يبكي أربعين سنةً حتى نبتت من دموعه شجرة، فقعد تحت ظلِّها. وأما عيسى فعزمُه أنه لم يضع لَبِنة على لَبِنة وقال: إنها مَعْبَرةٌ، فاعبرُوها ولا تعمرُوها[١]. فكأن اللهَ تعالى يقولُ لرسوله ﷺ: اصبر، أي: كن صادقاً فيما ابتُليتَ به مثل صدق إبراهيم؛ واثقاً بنُصرة مولاك مثل ثقة موسى، مهتمًّا بما سلَف من هفواتك مثل اهتمام داود، زاهداً في الدنيا مثل زهد عيسى.

ثم قيل: هي منسوخة بآية السيف. وقيل: محكمة؛ والأظهر أنها منسوخة؛ لأن السورة مكيَّةٌ. وذكر مقاتل: أن هذه الآية نزَلت على رسول الله ﷺ يومَ أُحُد، فأمرَه الله عزَّ وجل أن يصبر على ما أصابه كما صبرَ أولو العزم من الرسل؛ تسهيلاً عليه وتثبيتاً له[٢]. والله أعلم.

﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ﴾ قال مقاتل: بالدعاء عليهم[٣]. وقيل: في إحلالِ العذاب بهم، فإن أبعدَ غاياتهم يومُ القيامة. ومفعولُ الاستعجال محذوفٌ، وهو العذاب[٤].

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ قال يحيى: من العذاب. النقَّاش: من الآخرة. ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾ أي: في الدنيا حتى جاءهم العذاب، وهو مقتضى قول يحيى. وقال النقَّاش: في قبورهم حتى بُعثوا للحساب[٥]. ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ يعني في جنْب يومِ القيامة.

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٢٨، والرازي ٢٨/ ٣٥.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٨٩.

(٣) المصدر السابق.

(٤) تفسير الرازي ٢٨/ ٣٥.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٨٩.

وقيل: نَسَّاهم هَوْلُ ما عاينوا من العذاب طولَ لَبثهم في الدنيا. ثم قال: ﴿بَلَٰغٌۚ﴾ أي: هذا القرآنُ بلاغ؛ قاله الحسن[١]. فـ«بلاغ» رفع على إضمار مبتدأ[٢]؛ دليله قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [إبراهيم:٥٢]، وقوله: ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٦]. والبلاغ بمعنى التبليغ. وقيل: أي: إن ذلك اللَّبث بلاغ؛ قاله ابن عيسى[٣]، فيوقف على هذا على «بلاغ» وعلى «نَهَارٍ». وذكر أبو حاتم: أن بعضهم وقف على «وَلَا تَسْتَعْجِلْ»، ثم ابتدأ: «لَهُمْ»؛ على معنى: لهم بلاغ. قال ابن الأنباريِّ: وهذا خطأ؛ لأنك قد فصَلت بين البلاغ وبين اللام - وهي رافعة - بشيء ليس منهما.

ويجوز في العربية: بلاغاً وبلاغٍ؛ النصب على معنى إلا ساعة بلاغاً، على المصدر أو على النعت للساعة. والخفض على معنى من نهارٍ بلاغ. وبالنصب قرأ عيسى بن عمر والحسن[٤]. ورُوي عن بعض القرَّاء: «بَلِّغْ» على الأمر؛ فعلى هذه القراءة يكون الوقف على «مِنْ نَهَارٍ» ثم يبتدئ: «بَلِّغْ»[٥].

﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: الخارجون على أمر الله[٦]؛ قاله ابن عباس وغيره.

وقرأ ابن مُحَيْصن: «فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ»[٧] على إسناد الفعل إلى القوم.

(١) المصدر السابق.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٥.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٨٩.

(٤) المحتسب ٢/ ٢٦٨، والقراءات الشاذة ص ١٤٠.

(٥) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٩٤ - ٨٩٥، وقراءة «بلِّغ» ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٤٠، وابن جني في المحتسب ٢/ ٢٦٨ من قراءة أبي مجلز وسراج.

(٦) الوسيط ٤/ ١١٧، وتفسير البغوي ٤/ ١٧٧ دون نسبة.

(٧) القراءات الشاذة ص ١٤٠، والمحتسب ٢/ ٢٦٨.

وقال ابن عباس: إذا عَسِرَ على المرأة وَلَدُها؛ تكتب هاتين الآيتين والكلمتين في صحيفة، ثم تُغسَل وتُسقى منها، وهي: بسم الله الرحمن الرحيم؛ لا إله إلا اللهُ العظيمُ الحليم الكريم، سبحان الله ربِّ السماوات وربِّ الأرض وربِّ العرش العظيم، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[(١)] صدق الله العظيم.

وعن قتادة: لا يُهلك الله إلا هالكاً مشركاً[(٢)]. وقيل: هذه أقوى آية في الرجاء[(٣)]. والله أعلم.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ٨/ ٢٧ وإسناده ضعيف.

(٢) في (د) و(ظ): لا يهلك إلا هالك مشرك. وذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ١١٧، وأخرجه الطبري ٢١/ ١٧٨ بنحوه.

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٠٨ عن الثعلبي.

تفسير سورة الأحقاف

وهي مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ① تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ② مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ③ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ④ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ⑤ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ⑥ ﴾ .

يخبر تعالى أنه نَزّل الكتاب على عبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين، ووصف نفسه بالعزة التى لا ترام، والحكمة فى الأقوال والأفعال، ثم قال: **﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾** أى: لا على وجه العبث والباطل، **﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾** أى: إلى مدة معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص.

قوله: **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾** أى: لاهون[(١)] عما يراد بهم، وقد أنزل إليهم كتاب وأرسل إليهم رسول، وهم معرضون عن ذلك كله، أى: وسيعلمون غبّ ذلك.

ثم قال: **﴿قُلْ﴾** أى: لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره: **﴿ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ﴾** أى: أرشدونى إلى المكان الذى استقلوا بخلقه من الأرض، **﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾** أى: ولا شرك لهم فى السموات ولا فى الأرض، وما يملكون من قطمير، إن المُلْك والتصرّف كله إلا الله، عز جل، فكيف تعبدون معه غيره، وتشركون به؟ من أرشدكم إلى هذا؟ من دعاكم إليه؟ أهو أمركم به؟ أم هو شىء اقترحتموه من عند أنفسكم؟ ولهذا قال: **﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا ﴾** أى: هاتوا كتابا من كتب الله المنزلة على الأنبياء[(٢)]، عليهم الصلاة والسلام، يأمركم بعبادة هذه الأصنام، **﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾** أى: دليل بيِّن على هذا المسلك الذى سلكتموه **﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾** أى: لا دليل لكم نقلياً ولا عقليا على ذلك؛ ولهذا قرأ آخرون: «أو أثَرَة من علم» أى: أو علم صحيح يأثرونه عن أحد ممن قبلهم، كما قال مجاهد فى قوله: **﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾**: أو أحد يأثر علما.

---

(١) فى ت، م، أ: «لاهين».

(٢) فى ت، م، أ: «هاتوا كتابا من الكتب المنزلة على أنبيائهم».

قال العَوْفى، عن ابن عباس: أو بينة من الأمر.

وقال[1] الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن سفيان، حدثنا صفوان بن[2] سُلَيم، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن، عن ابن عباس قال سفيان: لا أعلم إلا عن النبى ﷺ: «أو أثَرَة من علم» قال: «الخط»[3].

وقال أبو بكر بن عياش: أو بقية من علم. وقال الحسن البصرى: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ﴾: شىء يستخرجه فيثيره.

وقال ابن عباس، ومجاهد، وأبو بكر بن عياش أيضا: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ يعنى الخط.

وقال قتادة: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾: خاصة من علم.

وكل هذه الأقوال متقاربة، وهى راجعة إلى ما قلناه، وهو اختيار ابن جرير، رحمه الله وأكرمه، وأحسن مثواه.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ أى: لا أضل ممن يدعو أصناما، ويطلب منها ما لا تستطيعه إلى يوم القيامة، وهى غافلة عما يقول، لا تسمع ولا تبصر ولا تبطش؛ لأنها جماد، حجَارة، صُمّ.

وقوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢] أى: سيخونونهم[4] أحوج ما يكونون إليهم، وقال الخليل: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٩)﴾.

يقول تعالى مخبرا عن المشركين فى كفرهم وعنادهم: إنهم إذا تتلى عليهم آيات الله بينات، أى: فى حال بيانها ووضوحها وجلائها، يقولون: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: سحر واضح، وقد كذَبوا وافتروا وضلّوا وكفروا ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ يعنون: محمدا ﷺ. قال الله [تعالى][5]: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أى: لو كذبت عليه وزعمت أنه أرسلنى ـ وليس كذلك ـ لعاقبنى أشد

(١) فى ت: «وروى». (٢) فى أ: «عن» وهو خطأ.
(٣) المسند (١/٢٢٦).
(٤) فى أ: «سيجدونهم». (٥) زيادة من ت، أ.

العقوبة، ولم يَقْدرْ أحد من أهل الأرض، لا أنتم ولا غيركم، أن يجيرنى منه، كقوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا . إِلاَّ بَلاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ﴾ [الجن: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ . لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، هذا تهديد لهم، ووعيد أكيد، وترهيب شديد.

وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾: ترغيب لهم إلى التوبة والإنابة، أى: ومع هذا كله إن رجعتم وتبتم، تاب عليكم وعفا عنكم، وغفر [لكم] [(١)] ورحم. وهذه الآية كقوله فى سورة الفرقان: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً . قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٥، ٦].

وقوله: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ أى: لست بأول رسول طرق العالم، بل قد جاءت الرسل من قبلى، فما أنا بالأمر الذى لا نظير له حتى تستنكرونى وتستبعدوا [(٢)] بعثتى إليكم، فإنه قد أرسل الله قبلى جميع الأنبياء إلى الأمم.

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾: ما أنا بأول رسول. ولم يحك ابن جرير ولا ابن أبى حاتم غير ذلك.

وقوله: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى هذه الآية: نزل بعدها ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]. وهكذا قال عكرمة، والحسن، وقتادة: إنها منسوخة بقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، قالوا: ولما نزلت هذه الآية قال رجل من المسلمين: هذا قد بين الله ما هو فاعل بك يا رسول الله، فما هو فاعل بنا؟ فأنزل الله: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ [الفتح: ٥].

هكذا قال، والذى هو ثابت فى الصحيح أن المؤمنين قالوا: هنيئا لك يا رسول الله، فما لنا؟ فأنزل الله هذه الآية.

وقال الضحاك: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ﴾: ما أدرى بماذا أومر، وبماذا أنهى بعد هذا؟

وقال أبو بكر الهذلىّ، عن الحسن البصرى فى قوله: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ﴾ قال: أما فى الآخرة فمعاذ الله، قد علم أنه فى الجنة، ولكن قال: لا أدرى ما يفعل بى ولا بكم فى الدنيا، أخرج كما أخرجت الأنبياء [من] [(٣)] قبلى؟ أم أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلى؟ ولا أدرى أيخسف بكم أو تُرمون بالحجارة؟

وهذا القول هو الذى عوّل عليه ابن جرير، وأنه لا يجوز غيره، ولا شك أن هذا هو اللائق به، صلوات الله وسلامه عليه، فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه، وأما فى الدنيا فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره وأمر مشركى قريش إلى ماذا: أيؤمنون أم يكفرون، فيعذبون

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت، م، أ: «وتستبعدون». (٣) زيادة من أ.

فسيتأصلون بكفرهم[١]؟ فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد:

حدثنا يعقوب، حدثنا أبى، عن ابن شهاب، عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أم العلاء ـ وهى امرأة من نسائهم ـ أخبرته ـ وكانت بايعت رسول الله ﷺ ـ قالت: طار لهم فى السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين عثمانُ بن مظعون. فاشتكى عثمان عندنا فَمرَّضناه، حتى إذا توفى أدْرجناه فى أثوابه، فدخل علينا رسول الله فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، شهادتى عليك، لقد أكرمك الله. فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمه؟» فقلت: لا أدرى بأبى أنت وأمى! فقال رسول الله ﷺ: «أما هو فقد جاءه[٢] اليقين من ربه، وإنى لأرجو له الخير، والله ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل بى!» قالت: فقلت: والله لا أزكى أحدًا بعده أبدا. وأحزننى ذلك، فنمت فرأيت لعثمان عينا تجرى، فجئت إلى رسل الله ﷺ فأخبرته بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك[٣] عمله».

فقد انفرد بإخراجه البخارى دون مسلم[٤]، وفى لفظ له: «ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل به»[٥]. وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ، بدليل قولها: «فأحزننى ذلك». وفى هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة إلا الذى[٦] نص الشارع على تعيينهم، كالعشرة، وابن سلام، والغُميصاء، وبلال، وسراقة، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد[٧] جابر، والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة، وزيد بن حارثة، وجعفر، وابن رواحة، وما أشبه هؤلاء.

وقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أى: إنما أتبع ما ينزله الله علىَّ من الوحى، ﴿وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: بين النِّذَارة، وأمرى[٨] ظاهر لكل ذى لب وعقل.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤) ﴾.

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الكافرين بالقرآن: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ﴾ أى: ما ظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذى جئتكم به قد أنزله

---

(١) فى ت، أ: «كغيرهم». (٢) فى أ: «جاءه والله». (٣) فى ت: «ذلك».
(٤) المسند (٦/ ٤٣٦) وصحيح البخارى برقم (١٢٤٣).
(٥) صحيح البخارى برقم (٢٦٨٧).
(٦) فى أ: «الذين». (٧) فى ت: «أبو». (٨) فى أ: «رأى».

علىَّ لأبلغكموه وقد كَفَرتم به وكذبتموه، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ أي: وقد شهدت بصدقه وصحته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء قبلي، بشرت به وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن به.

وقوله: ﴿فَآمَنَ﴾ أي: هذا الذي شهد بصدقه من بني إسرائيل لمعرفته بحقيته ﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أنتم: عن اتباعه.

وقال مسروق: فآمن هذا الشاهد بنبيه وكتابه، وكفرتم أنتم بنبيكم وكتابكم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وهذا الشاهد اسم جنس يعم عبد الله بن سلام وغيره، فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبدالله بن سلام. وهذه كقوله: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٣]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨].

قال مسروق، والشعبي: ليس بعبد الله بن سلام، هذه الآية مكية، وإسلام عبد الله بن سلام كان بالمدينة. رواه عنهما ابن جرير وابن أبي حاتم، واختاره ابن جرير .

وقال مالك، عن أبي النَّضْر، عن عامر بن سعد[1]، عن أبيه قال: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض: «إنه من أهل الجنة»، إلا لعبد الله بن سلام، قال: وفيه نزلت: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾.

رواه البخاري ومسلم والنسائي، من حديث مالك، به[2]. وكذا قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعكرمة، ويوسف بن عبد الله بن سلام، وهلال بن يَسَاف، والسُّدِّي، والثوري، ومالك بن أنس وابن زيد؛ أنهم كلهم قالوا: إنه عبد الله بن سلام.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ أي: قالوا عن المؤمنين بالقرآن: لو كان القرآن خيرا ما سبقنا هؤلاء إليه[3]. يعنون بلالا وعمارا وصُهَيبا وخبابا وأشباههم وأقرانهم[4] من المستضعفين والعبيد والإماء، وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة وله بهم عناية. وقد غلطوا في ذلك غلطا فاحشا، وأخطؤوا خطأ بينا، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣] أي: يتعجبون: كيف اهتدى هؤلاء دوننا؛ ولهذا قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ وأما أهل السنة[5] والجماعة فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة: هو بدعة؛ لأنه لو كان خيرا لسبقونا إليه، لأنهم

(١) في أ: «سعيد».

(٢) صحيح البخاري برقم (٣٨١٢) وصحيح مسلم برقم (٢٤٨٣) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٨٢٥٢).

(٣) في ت: «ما سبقونا إليه هؤلاء». (٤) في أ: «وأضرابهم».

(٥) في م، ت، أ: «يعني المؤمنين، وأما أهل السنة».

لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها[١].

وقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ أى: بالقرآن ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ﴾ أى: كذب ﴿قَدِيمٌ﴾ أى: مأثور عن الأقدمين، فينتقصون القرآن وأهله، وهذا هو الكبر الذى قال رسول ﷺ: «بطر[٢] الحق، وغَمْط الناس»[٣].

ثم قال: ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ ﴾ وهو التوراة ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ﴾ يعنى: القرآن ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ أى: لما قبله من الكتب ﴿ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أى: فصيحا بينا واضحا، ﴿ لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أى: مشتمل على النِّذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾: تقدم تفسيرها فى سورة «حم، السجدة»[٤].

وقوله: ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أى: فيما يستقبلون، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا، ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: الأعمال سبب لنيل الرحمة لهم وسُبُوغها[٥] عليهم.

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦) ﴾.

لما ذكر تعالى فى الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه، عطف بالوصية بالوالدين، كما هو مقرون فى غير ما آية من القرآن، كقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] وقال: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة. وقال هاهنا: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ أى: أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما.

وقال أبو داود الطيالسى: حدثنا شعبة، أخبرنى سِمَاك بن حرب قال: سمعت مُصْعب بن سعد[٦] يحدث عن سعد قال: قالت أم سعد لسعد: ألَيس قد أمر الله بطاعة الوالدين، فلا آكل طعاما، ولا أشرب شرابا حتى تكفر بالله. فامتنعت من الطعام الشراب، حتى جعلوا يفتحون فاها بالعصا، ونزلت هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ الآية [العنكبوت: ٨].

---

(١) فى ت، م: «إليه». (٢) فى أ: «الكبر بطر».
(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود ،رضى الله عنه.
(٤) راجع تفسير هذه الآية عند الآية: ٣٠ من سورة السجدة. (٥) فى أ: «وشيوعها». (٦) فى أ: «حرب».

ورواه مسلم وأهل السنن إلا ابن ماجه، من حديث شعبة بإسناده، نحوه وأطول منه[١].

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا﴾ أى: قاست بسببه فى حال حمله مشقة وتعبا، من وِحَام وغشيان وثقل وكرب، إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة، ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أى: بمشقة أيضا من الطلق وشدته، ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾.

وقد استدل على، رضى الله عنه، بهذه الآية مع التى فى لقمان: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]، وقوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وهو استنباط قوى صحيح. ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة، رضى الله عنهم.

قال محمد بن إسحاق بن يسار، عن يزيد بن عبد الله بن قُسَيْط، عن بَعْجَةَ[٢] بن عبد الله الجهنى قال: تزوج رجل منا امرأة من جُهَيْنة، فولدت له لتمام ستة أشهر، فانطلق زوجها إلى عثمان فذكر ذلك له، فبعث إليها، فلما قامت لتلبس ثيابها بكت أختها، فقالت: ما يبكيك؟! فوالله ما التبس بى أحد من خلق الله غيره قط، فيقضى الله فى ما شاء. فلما أتى بها عثمان أمر برجمها، فبلغ ذلك عليا فأتاه، فقال له: ما تصنع؟ قال: ولدت تماما لستة أشهر، وهل يكون ذلك؟ فقال له [على][٣] أما تقرأ القرآن؟ قال: بلى. قال: أما سمعت الله يقول: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾. وقال: ﴿[يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ][٤] حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾، فلم نجده بقى إلا ستة أشهر، قال: فقال عثمان: والله ما فطنت لهذا، على بالمرأة فوجدوها قد فُرِغَ منها، قال: فقال بَعْجَةُ: فوالله ما الغراب بالغراب، ولا البيضة بالبيضة بأشبه منه بأبيه. فلما رآه أبوه قال: ابنى إنى والله لا أشك فيه، قال: وأبلاه[٥] الله بهذه القرحة قرحة الأكلة، فما زالت تأكله حتى مات[٦].

رواه ابن أبى حاتم، وقد أوردناه من وجه آخر عند قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا فَرْوَة بن أبى المَغْرَاء، حدثنا على بن مسْهَر، عن داود بن أبى هند، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس[٧] قال: إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر، كفاه من الرضاع أحد[٨] وعشرون شهرا، وإذا وضعته لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً، وإذا وضعته لستة أشهر فحولين كاملين؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾.

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أى: قوى وشب وارتجل ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أى: تناهى عقله وكمل فهمه وحلمه. ويقال: إنه لا يتغير غالبا عما يكون عليه ابن الأربعين.

---

(١) مسند الطيالسى برقم (٢٠٨) وصحيح مسلم برقم (١٧٤٨) وسنن أبى داود برقم (٢٧٤٠) وسنن الترمذى برقم (٣٠٧٩) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١١٩٦) لكن النسائى لم يرو الشاهد هنا وإنما روى أوله.

(٢) فى ت، أ: «معمر».

(٣) زيادة من ت، أ.

(٤) زيادة من أ.

(٥) فى ت، م، أ: «وابتلاه».

(٦) ورواه ابن المنذر وابن أبى حاتم كما فى الدر المنثور للسيوطى (٧/٤٤١).

(٧) فى ت: «عن عكرمة وروى عن ابن عباس».

(٨) فى ت: «بأحد»، وفى أ، هـ: «أحد».

قال أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن القاسم بن عبد الرحمن قال: قلت لمسروق: متى يؤخذ الرجل بذنوبه؟ قال: إذا بَلَغْتَ الأربعين، فَخُذْ حذرك.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى: حدثنا عُبيد الله القواريرى، حدثنا عَزْرَة بن قيس الأزدى ـ وكان قد بلغ مائة سنة ـ حدثنا أبو الحسن السلولى[١] عنه وزادنى[٢] قال: قال محمد بن عمرو بن عثمان، عن عثمان، عن النبى ﷺ قال: «العبد المسلم إذا بلغ أربعين سنة، خفف الله حسابه، وإذا بلغ[٣] ستين سنة رزقه الله الإنابة إليه، وإذا بلغ سبعين سنة أحبّه أهل السماء، وإذا بلغ ثمانين سنة ثبت الله حسناته ومحا سيئاته، وإذا بلغ تسعين سنة غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وشفّعه الله فى أهل بيته، وكتب فى السماء: أسير[٤] الله فى أرضه»[٥].

وقد روى هذا من غير هذا الوجه، وهو فى مسند الإمام أحمد[٦] [٧].

وقد قال الحجاج بن عبد الله الحكمى أحد أمراء بنى أمية بدمشق: تركت المعاصى والذنوب أربعين سنة حياء من الناس، ثم تركتها حياء من الله ، عز وجل.

وما أحسن قول الشاعر:

صَبَا ما صَبَا حَتى عَلا الشَّيبُ رأسَهُ   فلمَّا عَلاهُ قال للباطل: ابطُل[٨]

﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي ﴾ أى: ألهمنى ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾ أى: فى المستقبل، ﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ﴾ أى: نسلى وعقبى، ﴿ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ هذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله، عز وجل، ويعزم عليها.

وقد روى أبو داود فى سننه، عن ابن مسعود، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم أن يقولوا فى التشهد: «اللهم، ألف بين قلوبنا،وأصلح ذات بيننا، واهدنا سبُل[٩] السلام، ونجنا من الظلمات إلى النور، وجنّبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وبارك لنا فى أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا، وأزواجنا، وذرياتنا، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، واجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها قابليها، وأتمها علينا»[١٠].

قال الله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أى: هؤلاء المتصفون بما ذكرنا، التائبون إلى الله المنيبون إليه، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار، هم الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا، ويتجاوز عن سيئاتهم، فيغفر لهم الكثير من الزلل، ويتقبل منهم اليسير من العمل، ﴿ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ﴾ أى:هم فى جملة أصحاب الجنة، وهذا حكمهم عند الله كما وعد

(١) فى م، أ: «أبو الحسن الكوفى ـ عمرو بن أوس». (٢) فى ت: «وروى الحافظ».
(٣) فى ت، م: «رزقه». (٤) فى ت، م، أ: «أمين».
(٥) قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٠٥): «رواه أبو يعلى فى الكبير وفيه عزرة بن قيس الأزدى، وهو ضعيف».
(٦) فى ت: «وهذا الحديث فى مسند الإمام أحمد».
(٧) رواه الإمام أحمد من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه، المسند (٣/ ٢١٨).
(٨) فى ت، م، أ: «أبعد». (٩) فى ت: «سبيل».
(١٠) سنن أبى داود برقم (٩٦٩).

الله من تاب إليه وأناب؛ ولهذا قال: ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

قال[١] ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا المُعْتَمِر بن سليمان، عن الحكم بن أبان، عن الغطْرِيف، عن جابر بن زيد، عن ابن عباس[٢]، عن رسول الله ﷺ، عن الروح الأمين، عليه[٣] السلام، قال: «يؤتى[٤] بحسنات العبد وسيئاته[٥]، فيقتص[٦] بعضها ببعض، فإن بقيت حسنة وسع الله له في الجنة» قال: فدخلتُ على يزداد فحُدِّث بمثل هذا الحديث قال: قلت: فإن ذهبت الحسنة؟ قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾[٧].

وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه، عن محمد بن عبد الأعلى الصنعاني، عن المعتمر بن سليمان، بإسناده مثله ـ وزاد: عن الروح الأمين. قال: قال الرب، جل جلاله: يؤتى بحسنات العبد وسيئاته. . . فذكره، وهو حديث غريب، وإسنادٌ جيد لا بأس به.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سليمان بن مَعْبَد، حدثنا عمرو بن عاصم الكلائي، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر[٨] جعفر بن أبي وَحْشية، عن يوسف بن سعد[٩]، عن محمد بن حاطب قال: ونزل في داري حيث ظهر علي على أهل البصرة، فقال لي يوما: لقد شهدتُ أمير المؤمنين عليا، وعنده عمارا وصعصعة والأشتر ومحمد بن أبي بكر، فذكروا عثمان فنالوا منه، وكان علي، رضي الله عنه، على السرير، ومعه عود في يده، فقال قائل منهم: إن عندكم من يفصل بينكم فسألوه، فقال علي: كان عثمان من الذين قال الله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ قال: والله عثمان وأصحاب عثمان ـ قالها ثلاثا ـ قال يوسف: فقلت لمحمد بن حاطب: آلله لسمعت هذا من عليّ؟ قال: آلله لسمعت هذا من علي، رضي الله عنه.

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠)﴾ .

---

(١) في ت: «وروى». (٢) في ت: «ابن عباس رضي الله عنه». (٣) في م: «عليهما».
(٤) في ت: «تؤتى». (٥) في أ: «وسيئاته يوم القيامة». (٦) في أ: «فيقبض».
(٧) تفسير الطبري (٢٦/ ١٢) ورواه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٩١) من طريق معتمر بن سليمان به، وقال أبو نعيم: «هذا حديث غريب من حديث جابر، والغطريف تفرد به عنه الحكم بن أبان العدني».
(٨) في أ: «بشير». (٩) في ت: «وروى ابن أبي حاتم بإسناده».

لما ذكر تعالى حال الداعين للوالدين البارين بهما وما لهم عنده من الفوز والنجاة، عطف بحال الأشقياء العاقين للوالدين فقال: ﴿وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ ـ وهذا عام فى كل من قال هذا، ومن زعم أنها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر فقوله ضعيف؛ لأن عبد الرحمن بن أبى بكر أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه.

وروى العَوْفى، عن ابن عباس: أنها نزلت فى ابن لأبى بكر الصديق. وفى صحة هذا نظر، والله أعلم.

وقال ابن جُرَيْج، عن مجاهد: نزلت فى عبد الله بن أبى بكر. وهذا أيضا قاله ابن جريج.

وقال آخرون: عبد الرحمن بن أبى بكر. وقاله[1] السدى. وإنما هذا عام فى كل من عق والديه وكذب بالحق، فقال لوالديه: ﴿أُفٍّ لَّكُمَا﴾ عقهما.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا يحيى بن أبى زائدة، عن إسماعيل بن أبى خالد، أخبرنى عبد الله بن المدينى قال: إنى لفى المسجد حين خطب مَرْوان، فقال: إن الله أرى[2] أمير المؤمنين فى يزيد رأيا حسنا، وإن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر عمر، فقال عبد الرحمن بن أبى بكر: أهرقلية؟! إن أبا بكر والله ما جعلها فى أحد من ولده، ولا أحد من أهل بيته، ولا جعلها معاوية فى ولده إلا رحمة وكرامة لولده. فقال مروان: ألست الذى قال لوالديه: أف لكما؟ فقال عبد الرحمن: ألست ابن اللعين الذى لعن رسول الله ﷺ أباك؟ قال: وسمعتهما عائشة فقالت: يا مروان، أنت القائل لعبد الرحمن كذا وكذا؟ كذبتَ، ما فيه نزلت، ولكن نزلت فى فلان بن فلان. ثم انتحب مروان، ثم نزل عن المنبر حتى أتى باب حجرتها، فجعل يكلمها حتى انصرف[3].

وقد رواه البخارى بإسناد آخر ولفظ آخر، فقال: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عَوانة، عن أبى بِشْر، عن يوسف بن مَاهَك قال: كان مَرْوان على الحجاز، استعمله معاوية بن أبى سفيان، فخطب وجعل يذكر يزيد بن معاوية لكى يبايع له بعد أبيه، فقال له عبد الرحمن بن أبى بكر شيئا، فقال: خذوه. فدخل بيت عائشة، رضى الله عنها، فلم يقدروا عليه، فقال[4] مروان: إن هذا الذى أنزل فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن، إلا أن الله أنزل عُذْرى[5].

طريق أخرى: قال النسائى: حدثنا على بن الحسين، حدثنا أميَّة بن خالد، حدثنا شعبة، عن محمد بن زياد قال: لما بايع معاوية لابنه، قال مروان: سُنَّة أبى بكر وعمر. فقال عبد الرحمن بن أبى

---

(١) فى ت، م: «وهذا قول». (٢) فى م، أ: «الله قد رأى».

(٣) ورواه ابن مردويه فى تفسيره كما فى الدر المنثور (٧/ ٤٤٤).

(٤) فى أ: «فلم يقدر عليه فقام فقال».

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨٢٧).

بكر: سُنَّة هرقل وقيصر. فقال مروان: هذا الذى أنزل الله فيه: ﴿وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ الآية، فبلغ ذلك عائشة فقالت: كذب مروان! والله ما هو به، ولو شئت أن أسمى الذى أنزلت فيه لسميته، ولكن رسول الله ﷺ لعن أبا مروان ومروانُ فى صلبه، فمروان فَضَضٌ[(١)] من لعنة الله[(٢)].

وقوله: ﴿ أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ ﴾ أى: [أن][(٣)] أبعث ﴿ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي ﴾ أن[(٤)]: قد مضى الناس فلم يرجع منهم مخبر، ﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ ﴾ أى: يسألان الله فيه أن يهديه ويقولان لولدهما: ﴿وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ قال الله [تعالى][(٥)]: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ أى: دخلوا فى زمرة أشباههم وأضرابهم من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

وقوله: ﴿ أُوْلَئِكَ﴾ بعد قوله: ﴿ وَالَّذِى قَالَ﴾ دليل على ما ذكرناه من أنه جنس يعم كل من كان كذلك.

وقال الحسن، وقتادة: هو الكافر الفاجر العاق لوالديه، المكذب بالبعث.

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة سهل بن داود، من طريق هشام بن عمار: حدثنا حماد ابن عبد الرحمن، حدثنا خالد بن الزبرقان الحلبى، عن سليمان بن حبيب المحاربى، عن أبى أمامة الباهلى، عن النبى ﷺ قال: «أربعة لعنهم الله من فوق عرشه، وأَمَّنَتْ عليهم الملائكة: مضل المساكين ـ قال خالد: الذى يهوى بيده إلى المسكين فيقول: هلم أعطيك، فإذا جاءه قال: ليس معى شىء ـ والذى يقول للمكفوف: اتق الدابة، وليس بين يديه شىء. والرجل يسأل عن دار القوم فيدلونه على غيرها، والذى يضرب الوالدين حتى يستغيثا»[(٦)]. غريب جدا.

وقوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ أى: لكل عذاب بحسب عمله، ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ أى: لا يظلمهم مثقال ذرة فما دونها.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: درجات النار تذهب سفالا، ودرجات الجنة تذهب علوا.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ أى: يقال لهم ذلك تقريعا وتوبيخا. وقد تورع [أمير المؤمنين][(٧)] عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، عن[(٨)] كثير من طيبات المآكل والمشارب، وتنزه عنها، ويقول: [إنى][(٩)] أخاف أن أكون كالذين قال الله تعالى لهم وَقرَّعهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾.

---

(١) فى أ: «بعض».

(٢) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٩١).

(٣) زيادة من ت. (٤) فى ت، أ: «أى». (٥) زيادة من ت، م.

(٦) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (١٠/ ٢٢١) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٤/ ٢٥١) من طريق هشام بن عمار به. قال ابن أبى حاتم فى العلل (٢/ ٤١٣): «سألت أبى عن هذا الحديث فقال: هذا حديث منكر». قال الهيثمى فى المجمع (٤/ ٢٥١): «حماد بن عبد الرحمن العكى عن خالد بن الزبرقان، وكلاهما ضعيف».

(٧) زيادة من ت، م، أ. (٨) فى أ: «على». (٩) زيادة من ت، م، أ.

وقال أبو مِجْلَز: ليتفقَّدَنَّ أقوامٌ حَسَنات كانت لهم فى الدنيا، فيقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾.

وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾، فجوزوا من جنس عملهم، فكما نَعَّموا أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحق، وتعاطوا الفسق والمعاصى، جازاهم الله بعذاب الهون، وهو الإهانة والخزى والآلام الموجعة، والحسرات المتتابعة، والمنازل فى الدركات المفظعة، أجارنا الله من ذلك كله.

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥)﴾.

يقول تعالى مسليا لنبيه فى تكذيب من كذبه من قومه: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ وهو هود، عليه السلام، بعثه الله إلى عاد الأولى، وكانوا يسكنون الأحقاف ـ جمع حِقْف وهو: الجبل من الرمل ـ قاله ابن زيد. وقال عكرمة: الأحقاف: الجبل والغار. وقال على بن أبى طالب، رضى الله عنه: الأحقاف: واد بحضرموت، يدعى بُرْهوت، تلقى فيه أرواح الكفار. وقال قتادة: ذُكر لنا أن عادا كانوا حيا باليمن أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها: الشِّحْر.

قال ابن ماجه: «باب إذا دعا فليبدأ بنفسه»: حدثنا الحسين بن على الخلال، حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا سفيان، عن أبى إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحمنا الله، وأخا عاد»(١).

وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ يعنى: وقد أرسل الله إلى من حَوْل بلادهم من القرى مرسلين ومنذرين، كقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [البقرة: ٦٦]، وكقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا(٢) فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ. إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ(٣)﴾ [فصلت: ١٣، ١٤] أى: قال لهم هود ذلك، فأجابه قومه قائلين: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾ أى: لتصدنا ﴿عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن

(١) سنن ابن ماجه (٣٨٥٢) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٢٠٤): «هذا إسناد صحيح وله شواهد فى صحيح مسلم وغيره من حديث أبى بن كعب».

(٢) فى م: «تولوا»، وهو خطأ. (٣) فى ت، م، أ، هـ: «إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم»، والصواب ما أثبتناه.

كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ استعجلوا عذاب الله وعقوبته، استبعاداً منهم وقوعه، كقوله: **﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾** [الشورى: ١٨].

﴿قَالَ[١] **إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾** أي: الله أعلم بكم إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب فيفعل[٢] ذلك بكم، وأما أنا فمن شأني أني أبلغكم ما أرسلت به، **﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾** أي: لا تعقلون ولا تفهمون.

قال الله تعالى: **﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾** أي: لما رأوا العذاب مستقبلهم، اعتقدوا أنه عارض ممطر، ففرحوا به واستبشروا به[٣]، وقد كانوا ممحلين محتاجين إلى المطر، قال الله تعالى: **﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** أي: هو العذاب الذي قلتم: **﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾**.

﴿تُدَمِّرُ﴾ أي: تخرب **﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾** من بلادهم، مما من شأنه الخراب **﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾** أي: بإذن الله لها في ذلك، كقوله: **﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾** [الذاريات: ٤٢] أي: كالشيء البالي. ولهذا قال: **﴿فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾** أي: قد بادوا كلهم عن آخرهم ولم تبق لهم باقية، **﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾** أي: هذا حكمنا فيمن كذب رسلنا، وخالف أمرنا.

وقد ورد حديث في قصتهم وهو غريب جداً من غرائب الحديث وأفراده، قال الإمام أحمد:

حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثني أبو المنذر سلام بن سليمان النحوي قال: حدثنا عاصم بن أبي النَّجُود، عن أبي وائل، عن الحارث البكري قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ، فمررت بالرَبْذَة، فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها، فقالت لي: يا عبد الله، إن لي إلى رسول الله ﷺحاجة، فهل أنت مبلغي إليه؟ قال: فحملتها فأتيت بها المدينة، فإذا المسجد غاص بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وإذا بلال متقلد السيف بين يدي رسول الله ﷺ، فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجها. قال: فجلست، فدخل منزله ـ أو قال: رحله ـ فاستأذنت عليه، فأذن لي، فدخلت فسلمت، فقال: «هل كان بينكم وبين تميم شيء؟ قلت: نعم، وكانت لنا الدبرة[٤] عليهم، ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها، فسألتني أن أحملها إليك، وها هي بالباب: فأذن لها فدخلت، فقلت: يا رسول الله، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزا فاجعل الدهناء، فحميت العجوز واستوفزت، وقالت: يا رسول الله، فإلى أين يضطر مضطرك؟ قال: قلت: إن مثلي ما قال الأول: «معزَى حَمَلَت حَتْفَهَا»، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصما، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد. قال: «هيه، وما وافد عاد؟» ـ وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يستطعمه[٥] ـ قلت: إن عاداً قحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له: قَيل، فمر بمعاوية بن بكر، فأقام عنده شهرا يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما «الجرادتان»ـ فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مَهْرة فقال: اللهم،

---

(١) في م: «وقال» وهو خطأ.
(٢) في م، أ: «فسيفعل».
(٣) في م، ت: «ففرحوا به واستبشروا به».
(٤) في ت، أ: «الدائرة».
(٥) في أ: «يستعظمه».

إنك تعلم أنى لم أجئ إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه، اللهم اسق عادا ما كنت تسقيه. فمرت به سحابات سود، فنودى منها: «اختر»، فأومأ إلى سحابة منها سوداء، فنودى منها: «خذها رماداً رمدداً[١]، لا تبقى من عاد أحداً». قال: فما بلغنى أنه أرسل عليهم من الريح إلا كقدر ما يجرى فى خاتمى هذا، حتى هلكوا ـ قال أبو وائل: وصدق ـ وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا: «لا تكن كوافد عاد».

رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه، كما تقدم فى سورة «الأعراف»[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا هارون بن معروف، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا عمرو: أن أبا النضر حدثه عن سليمان بن يسار، عن عائشة [٣] أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكا حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم. قالت: وكان [٤] إذا رأى غيما ـ أو ريحا ـ عرف ذلك فى وجهه، قالت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت فى وجهك الكراهية؟ فقال: «يا عائشة، ما يؤمننى أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا». وأخرجاه[٥] من حديث ابن وهب[٦].

طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا عبد الرحمن، عن سفيان، عن المقدام بن شريح، عن أبيه، عن عائشة، أن رسول الله ﷺ كان إذا رأى ناشئا فى أفق من آفاق السماء، ترك عمله، وإن كان فى صلاته، ثم يقول: «اللهم، إنى أعوذ بك من شر ما فيه[٧]». فإن كشفه الله حمد الله، وإن أمطرت قال: «اللهم، صيبا نافعا»[٨].

طريق أخرى: قال مسلم فى صحيحه: حدثنا أبو الطاهر، أخبرنا ابن وهب، سمعت ابن جريج يحدث عن عطاء بن أبى رباح، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللهم، إنى أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به». قالت: وإذا تَخَيَّلت السماء تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سرى عنه، فعرفت ذلك عائشة، فسألته، فقال: «لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾»[٩].

وقد ذكرنا قصة هلاك عاد[١٠] فى سورتى «الأعراف وهود»[١١] بما أغنى عن إعادته هاهنا، ولله

---

(١) فى ت: «رمدا».

(٢) المسند (٣/ ٤٨٢) وانظر تخريج بقية هذا الحديث عند الآية: ٧٣ من سورة الأعراف.

(٣) فى ت: «عائشة رضى الله عنها».

(٤) فى ت، م: «وكان رسول الله ﷺ». (٥) فى ت: «أخرجه».

(٦) المسند (٦/ ٦٦)، وصحيح البخارى برقم (٤٨٢٨، ٤٨٢٩)، وصحيح مسلم برقم (٨٩٩).

(٧) فى م: «من سوء عاقبته».

(٨) المسند (٦/ ١٩٠).

(٩) صحيح مسلم برقم (٨٩٩).

(١٠) فى ت، م، أ: «هلاك قوم عاد».

(١١) راجع قصة هلاك قوم عاد عند تفسير الآيات: ٦٥ ـ ٧٢ من سورة الأعراف، والآيات: ٥٠ ـ ٦٠ من سورة هود.

الحمد والمنة.

وقال الطبراني: حدثنا عبدان بن أحمد، حدثنا إسماعيل بن زكريا الكوفي، حدثنا أبو مالك عن مسلم الملائي، عن مجاهد وسعيد بن جبير[١]، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما فتح على عاد من الريح إلا مثل موضع الخاتم، ثم أرسلت عليهم [فحملتهم] البدو إلى الحضر فلما رآها أهل الحضر قالوا: هذا عارض ممطرنا مستقبل أوديتنا. وكان أهل البوادي فيها، فألقى أهل البادية على أهل الحاضرة حتى هلكوا. قال: عتت على خزانها حتى خرجت من خلال الأبواب[٢]»[٣].

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨) ﴾.

يقول تعالى: ولقد مكنا الأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد، وأعطيناهم منها[٤] ما لم نعطكم مثله ولا قريبا منه، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: وأحاط بهم العذاب والنكال الذي كانوا يكذبون به ويستبعدون وقوعه، أي: فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم، فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ﴾ يعني: أهل مكة، قد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسل مما حولها كعاد، وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن وثمود، وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن، ومدين وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزة، وكذلك بحيرة قوم لوط، كانوا يمرون بها أيضا.

وقوله: ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾ أي: بيناها ووضحناها، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ. فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ أي: فهلا نصروهم عند احتياجهم إليهم، ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ أي: بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم، ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ أي: كذبهم، ﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: وافتراؤهم في اتخاذهم إياهم آلهة، وقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها، واعتمادهم عليها.

(١) في ت: «وروى الطبراني بإسناده». (٢) في ت: «البيوت».

(٣) المعجم الكبير (١٢/ ٤٢)، قال الهيثمي في المجمع (٧/ ١١٣): «فيه مسلم الملائي وهو ضعيف».

(٤) في ت: «فيها».

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٢) ﴾ .

قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا عمرو: سمعت عكرمة، عن الزبير: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾، قال: بنخلة، ورسول الله ﷺ يصلى العشاء الآخرة، ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن:١٩]، قال سفيان: اللبد: بعضهم على بعض، كاللبد بعضه على بعض[١].

تفرد به أحمد، وسيأتى من رواية ابن جرير، عن عكرمة، عن ابن عباس: أنهم سبعة من جن نَصيبين.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة (ح) ـ وقال الحافظ [٢] أبو بكر البيهقى فى كتابه «دلائل النبوة»: أخبرنا أبو الحسن على بن أحمد بن عبدان، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار، حدثنا إسماعيل القاضى، أخبرنا مسدد، حدثنا أبو عوانة عن أبى بشر، عن سعيد بن جبير[٣]، عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم، انطلق رسول الله ﷺ فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب. قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شىء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها وانظروا ما هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء. فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذى حال بينهم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ، وهو بنخلة عامدا إلى سوق عكاظ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا ـ والله ـ الذى حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم ، قالوا: ياقومنا، إنا سمعنا قرآنا عجبا، يهدى إلى الرشد فآمنا به، ولن نشرك بربنا أحدا، وأنزل الله على نبيه[٤]: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن:١]، وإنما أوحى إليه قول الجن.

رواه البخارى عن مُسَدَّد بنحوه، وأخرجه مسلم عن شيبان بن فروخ، عن أبى عوانة، به. ورواه

(١) المسند (١/١٦٧).

(٢) فى م: «الحافظ الشهير».

(٣) فى ت: «وروى الإمام أحمد بإسناده».

(٤) فى ت، م، أ: «نبيه ﷺ».

الترمذى والنسائى فى التفسير، من حديث أبى عوانة[١].

وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا أبو أحمد، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن سعيد بن جبير[٢]، عن ابن عباس، قال: كان الجن يستمعون[٣] الوحى، فيسمعون الكلمة فيزيدون فيها عشرا، فيكون ما سمعوا حقاً وما زادوا باطلا، وكانت النجوم لا يرمى بها قبل ذلك، فلما بعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتى مقعده إلا رمى بشهاب يحرق ما أصاب، فشكوا ذلك إلى إبليس فقال: ما هذا إلا من أمر قد حدث. فبث جنوده، فإذا بالنبى ﷺ يصلى بين جبلى نخلة، فأتوه فأخبروه، فقال: هذا الحدث الذى حدث فى الأرض.

رواه الترمذى والنسائى فى كتابى التفسير من سننيهما، من حديث إسرائيل، به[٤]. وقال الترمذى: حسن صحيح.

وهكذا رواه أيوب عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس. وكذا رواه العوفى، عن ابن عباس أيضا، بمثل هذا السياق بطوله، وهكذا قال الحسن البصرى: إنه، عليه السلام، ما شعر بأمرهم حتى أنزل الله عليه بخبرهم.

وذكر محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان، عن محمد بن كعب القرظى قصة خروج رسول الله ﷺ إلى الطائف ودعائه إياهم إلى الله عز وجل، وإبائهم عليه. فذكر القصة بطولها، وأورد ذلك الدعاء الحسن: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى» إلى آخره. قال: فلما انصرف عنهم بات بنخلة، فقرأ تلك الليلة من القرآن فاستمعه الجن من أهل نصيبين[٥].

وهذا صحيح، ولكن قوله: «إن الجن كان استماعهم تلك الليلة». فيه نظر؛ لأن الجن كان استماعهم فى ابتداء الإيحاء، كما دل عليه حديث ابن عباس المذكور، وخروجه، عليه السلام، إلى الطائف كان بعد موت عمه، وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين، كما قرره ابن إسحاق وغيره [والله أعلم][٦].

وقال أبو بكر بن أبى شيبة: حدثنا أبو أحمد الزبيرى، حدثنا سفيان، عن عاصم، عن زر[٧]، عن عبد الله بن مسعود قال: هبطوا على النبى ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة، فلما سمعوه قالوا: أنصتوا. قال[٨]: صه، وكانوا تسعة[٩] أحدهم زوبعة، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ إلى: ﴿ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[١٠].

---

(١) المسند (١/٢٥٢)، ودلائل النبوة للبيهقى (٢/٢٢٥).

(٢) فى ت: «وروى الإمام أحمد بإسناده». (٣) فى ت، م: «فيستمعون».

(٤) صحيح البخارى برقم (٧٧٣)، وصحيح مسلم برقم (٤٤٩)، وسنن الترمذى برقم (٣٣٢٣)، والنسائى فى السنن الكبرى برقم(١١٦٤).

(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/٤١٩). (٦) زيادة من ت. (٧) فى ت: «وروى أبو بكر بن أبى شيبة بسنده».

(٨) فى ت، م، أ: «قالوا». (٩) فى أ: «سبعة».

(١٠) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/٤٥٦) من طريق أبى بكر بن أبى شيبة به، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبى.

فهذا مع الأول من رواية ابن عباس يقتضى أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم فى هذه المرة وإنما استمعوا قراءته، ثم رجعوا إلى قومهم، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالا قوما بعد قوم، وفوجا بعد فوج، كما سيأتى بذلك الأخبار فى موضعها والآثار، مما سنوردها[١] هاهنا إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

فأما ما رواه البخارى ومسلم جميعا، عن أبى قدامة عبيد الله بن سعيد السرخسى، عن أبى أسامة حماد بن أسامة، عن مسعر بن كدام، عن معن بن عبد الرحمن قال: سمعت أبى قال: سألت مسروقا: من آذن النبى ﷺ ليلة استمعوا القرآن؟ فقال: حدثنى أبوك ـ يعنى ابن مسعود [٢] ـ أنه آذنته بهم شجرة[٣] ـ فيحتمل أن يكون هذا فى المرة الأولى، ويكون إثباتا مقدما على نفى ابن عباس، ويحتمل أن يكون هذا فى بعض المرات المتأخرات، والله أعلم. ويحتمل أن يكون فى الأولى ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتى آذنته بهم الشجرة، أى: أعلمته باستماعهم، والله أعلم.

قال الحافظ البيهقى: وهذا الذى حكاه ابن عباس رضى الله عنهما[٤]، إنما هو فى أول ما سمعت[٥] الجن قراءة رسول الله ﷺ وعلمت حاله، وفى ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم، ثم بعد ذلك أتاه داعى الجن فقرأ عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله، عز وجل، كما رواه عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه[٦].

ذكر الرواية عنه بذلك:

قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا داود، عن الشعبى ـ وابن أبى زائدة، أخبرنا داود، عن الشعبى[٧] ـ عن علقمة قال: قلت لعبد الله بن مسعود: هل صحب رسول الله ﷺ ليلة الجن منكم أحد؟ فقال: ما صحبه منا أحد، ولكنا فقدناه ذات ليلة بمكة، فقلنا: اغتيل؟ استطير؟ ما فعل؟ قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما كان فى وجه الصبح ـ أو قال: فى السحر ـ إذا نحن به يجىء من قبل حراء، فقلنا: يا رسول الله ـ فذكروا له الذى كانوا فيه ـ فقال: «إنه أتانى داعى الجن، فأتيتهم فقرأت عليهم». قال: فانطلق، فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ـ قال: وقال الشعبى: سألوه الزاد ـ قال عامر: سألوه بمكة، وكانوا من جن الجزيرة، فقال: «كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر ما كان عليه لحما، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم ـ قال ـ فلا تستنجوا بهما، فإنهما زاد إخوانكم من الجن».

وهكذا رواه مسلم فى صحيحه، عن على بن حجر، عن إسماعيل بن علية، به نحوه[٨].

وقال مسلم أيضا: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود ـ وهو ابن أبى هند ـ عن عامر قال: سألت علقمة: هل كان ابن مسعود، رضى الله عنه، شهد مع رسول الله ﷺ ليلة

(١) فى ت: «نوردها». (٢) فى ت: «ابن مسعود رضى الله عنه».
(٣) صحيح البخارى برقم (٣٨٥٩)، وصحيح مسلم برقم (٤٥٠).
(٤) فى م، أ: «عنه». (٥) فى أ: «ما استمعت».
(٦) دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٢٢٧).
(٧) فى ت: «فروى الإمام أحمد بسنده».
(٨) المسند (١/ ٤٣٦)، وصحيح مسلم برقم (٤٥٠).

الجن؟ قال: فقال علقمة: أنا سألت ابن مسعود؛ فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن؟ قال: لا، ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، ففقدناه فالتمسناه فى الأودية والشعاب، فقلنا: استطير؟ اغتيل؟ قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء، قال: فقلنا: يا رسول الله، فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم. فقال: «أتانى داعى الجن، فذهبت معهم، فقرأت عليهم القرآن». قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد فقال: «كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر ما يكون لحما، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم». قال رسول الله ﷺ: «فلا تستنجوا بهما، فإنهما طعام إخوانكم»(١).

طريق أخرى عن ابن مسعود: قال أبو جعفر بن جرير: حدثنى أحمد بن عبد الرحمن، حدثنى عمى، حدثنى يونس، عن الزهرى، عن عبيد الله بن عبد الله؛ أن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بت الليلة أقرأ على الجن ربعا(٢) بالحجون»(٣).

طريق أخرى: فيها أنه كان معه ليلة الجن، قال ابن جرير، رحمه الله: حدثنى أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، حدثنا عمى عبد الله بن وهب، أخبرنى يونس، عن ابن شهاب، عن أبى عثمان ابن سنة الخزاعى ـ وكان من أهل الشام(٤) ـ أن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه وهو بمكة: «من أحب منكم أن يحضر أمر الجن الليلة فليفعل». فلم يحضر منهم أحد غيرى، قال: فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة خط لى برجله خطا، ثم أمرنى أن أجلس فيه، ثم انطلق حتى قام، فافتتح القرآن فغشيته أسودة كثيرة حالت بينى وبينه، حتى ما أسمع صوته، ثم طفقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين، حتى بقى منهم رهط، ففرغ رسول الله ﷺ مع الفجر، فانطلق فتبرز، ثم أتانى فقال: «ما فعل الرهط؟» فقلت: هم أولئك يا رسول الله، فأعطاهم عظما وروثا زادا، ثم نهى أن يستطيب أحد بروث أو عظم.

ورواه ابن جرير عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، عن أبى زرعة وهب الله بن راشد، عن يونس بن يزيد الأيلى، به(٥).

ورواه البيهقى فى الدلائل، من حديث عبد الله بن صالح ـ كاتب الليث ـ عن الليث، عن يونس، به(٦).

وقد روى إسحاق بن راهويه، عن جرير، عن قابوس بن أبى ظبيان، عن أبيه، عن ابن مسعود، فذكر نحو ما تقدم(٧).

(١) صحيح مسلم برقم (٤٥٠).
(٢) فى م: «وقفا»، وفى أ: «رفعا».
(٣) تفسير الطبرى (٢٦/ ٢١)، ورواه أحمد فى المسند (١/ ٤١٦) من طريق يونس عن الزهرى، به.
(٤) فى ت: «روى مسلم وروى ابن جرير بسنده».
(٥) تفسير الطبرى (٢٦/ ٢١).
(٦) دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٣٣٠)، ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٥٠٣) من طريق عبد الله بن صالح به، قال الذهبى: «هو صحيح عند جماعة».
(٧) وفى إسناده قابوس بن أبى ظبيان، ضعفه أبو حاتم والنسائى وأحمد، وقال ابن حبان: «ينفرد عن أبيه بما لا أصل له، فربما رفع المرسل وأسند الموقوف».

ورواه الحافظ أبو نعيم، من طريق موسى بن عبيدة، عن سعيد بن الحارث، عن أبى المعلى[(١)]، عن ابن مسعود، فذكر نحوه أيضا[(٢)].

طريق أخرى: قال أبو نعيم: حدثنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنى أبى قال: حدثنا عفان وعكرمة قالا: حدثنا معتمر قال: قال أبى: حدثنى أبو تميمة، عن عمرو ـ ولعله قد يكون قال: البكالى ـ يحدثه عمرو، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، قال: استتبعنى رسول الله ﷺ فانطلقنا حتى أتينا مكان كذا وكذا، فخط لى خطاً فقال: «كن بين ظهر هذه لا تخرج منها؛ فإنك إن خرجت منها هلكت» فذكر الحديث بطوله وفيه غرابة شديدة[(٣)].

طريق أخرى: قال ابن جرير: وحدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور، عن معمر، عن يحيى ابن أبى كثير[(٤)]، عن عبد الله بن عمرو بن غيلان الثقفى؛ أنه قال لابن مسعود: حدثت أنك كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن؟ قال: أجل. قال: فكيف كان؟ فذكر الحديث كله، وذكر أن النبى ﷺ خط عليه خطا، وقال: «لا تبرح منها» فذكر مثل العَجَاجة السوداء غشيت رسول الله ﷺ، فذعر ثلاث مرات، حتى إذا كان قريبا من الصبح، أتانى النبى[(٥)] ﷺ فقال: «أنمت؟» فقلت: لا والله، ولقد هممت مرارا أن أستغيث بالناس حتى سمعتك تقرعهم بعصاك، تقول: «اجلسوا» فقال: «لو خرجت لم آمن أن يخطفك[(٦)] بعضهم». ثم قال: «هل رأيت شيئا؟» فقلت: نعم، رأيت رجالا سوداً مستشعرين[(٧)] ثيابا بياضا. قال: «أولئك جن نصيبين سألونى المتاع ـ والمتاع: الزاد ـ فمتعتهم بكل عظم حائل، أو بعرة، أو روثة» ـ فقلت: يا رسول الله، وما يغنى ذلك عنهم؟ فقال: «إنهم لا يجدون عظما إلا وجدوا عليه لحمه يوم أكل، ولا روثا إلا وجدوا فيها حبها يوم أكلت، فلا يستنقين أحد منكم إذا خرج من الخلاء بعظم ولا بعرة ولا روثة»[(٨)].

طريق أخرى: قال الحافظ أبو بكر البيهقى: أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمى وأبو نصر بن قتادة قالا: أخبرنا أبو محمد يحيى بن منصور القاضى، حدثنا أبو عبد الله محمد بن إبراهيم البُوشَنْجى، حدثنا روح بن صلاح، حدثنا موسى بن على بن رباح، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود قال: استتبعنى رسول الله ﷺ فقال: «إن نفرا من الجن ـ خمسة عشر بنى إخوة وبنى عم ـ يأتوننى الليلة، فأقرأ عليهم القرآن»، فانطلقت معه إلى المكان الذى أراد، فخط لى خطا وأجلسنى فيه، وقال لى: «لا تخرج من هذا». فبت فيه حتى أتانى رسول الله ﷺ مع السحر فى يده عظم حائل وروثة حُمَمَة فقال لى: «إذا ذهبت إلى الخلاء فلا تستنجِ بشىء من هؤلاء». قال: فلما أصبحت قلت: لأعلمن علمى حيث كان رسول الله ﷺ قال، فذهبت فرأيت موضع مبرك[(٩)] ستين بعيرا[(١٠)].

طريق أخرى: قال البيهقى: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو العباس الأصم، حدثنا العباس

---

(١) فى أ: «إسماعيل».
(٢) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٠/ ٨٠) من طريق موسى بن عبيدة الربذى ، به.
(٣) لم أجده فى دلائل النبوة وهو فى المسند للإمام أحمد (١/ ٣٩٩).
(٤) فى ت: «روى ابن جرير بسنده».
(٥) فى م: «رسول الله».
(٦) فى أ: «يختطفك».
(٧) فى ت، أ: «مستثفرين».
(٨) تفسير الطبرى (٢٦/ ٢١).
(٩) فى أ: «منزل».
(١٠) دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٢٣١).

ابن محمد الدُّورى، حدثنا عثمان بن عمر[(١)]، عن المستمر بن الريان، عن أبى الجوزاء، عن عبد الله ابن مسعود قال: انطلقت مع رسول الله ﷺ ليلة الجن، حتى أتى الحجون، فخط لى خطاً، ثم تقدم إليهم فازدحموا عليه، فقال سيد لهم، يقال له: «وردان»: أنا أرحلهم عنك. فقال: إنى لن يجيرنى من الله أحد[(٢)].

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا سفيان، عن أبى فزارة العبسى، حدثنا أبو زيد ـ مولى عمرو بن حريث ـ عن ابن مسعود قال: لما كان ليلة الجن قال لى النبى ﷺ: «أمعك ماء؟» قلت: ليس معى ماء، ولكن معى إداوة فيها نبيذ. فقال النبى: «تمرة طيبة، وماء طهور» فتوضأ.

ورواه أبو داود، والترمذى، وابن ماجه، من حديث أبى زيد، به[(٣)].

طريق أخرى: قال أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، أخبرنا ابن لهيعة، عن قيس بن الحجاج، عن حنش الصنعانى، عن ابن عباس، عن عبد الله بن مسعود؛ أنه كان مع رسول الله ﷺ ليلة الجن، فقال رسول الله: «يا عبد الله، أمعك ماء؟» قال: معى نبيذ فى إداوة، فقال[(٤)]: «اصبب على». فتوضأ، فقال النبى ﷺ: «يا عبد الله، شراب وطهور»[(٥)].

تفرد به أحمد من هذا الوجه، وقد أورده الدارقطنى من طريق آخر، عن ابن مسعود، [به][(٦)] [(٧)].

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنى أبى عن ميناء، عن عبد الله قال: كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن، فلما انصرف تنفس، فقلت: ما شأنك؟ قال: «نعيت إلى نفسى يا ابن مسعود».

هكذا رأيته فى المسند مختصرا[(٨)]، وقد رواه الحافظ أبو نعيم فى كتابه «دلائل النبوة»، فقال: حدثنا سليمان بن أحمد بن أيوب، حدثنا إسحاق بن إبراهيم ـ وحدثنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبدالله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أبى قالا: حدثنا عبد الرزاق، عن أبيه، عن ميناء، عن ابن مسعود قال: كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن، فتنفس، فقلت: ما لك يا رسول الله؟ قال: «نعيت إلى نفسى يا ابن مسعود». قلت: استخلف. قال: «من؟». قلت: أبو بكر. فسكت[(٩)]، ثم مضى ساعة فتنفس، فقلت: ما شأنك بأبى أنت وأمى يا رسول الله؟ قال: «نعيت إلى نفسى يا ابن مسعود». قلت: استخلف. قال: «من؟» قلت: عمر [بن الخطاب][(١٠)]. فسكت ثم مضى ساعة، ثم تنفس فقلت: ما شأنك؟ قال: «نعيت إلى نفسى». قلت: فاستخلف. قال ﷺ: «من؟» قلت: على بن أبى طالب. قال ﷺ: «أما والذى نفسى بيده، لئن أطاعوه ليدخلن الجنة أجمعين أكتعين»[(١١)].

---

(١) فى أ: «عن عمير».
(٢) دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٢٣١).
(٣) المسند (١/ ٤٤٩)، وسنن أبى داود برقم (٨٤)، وسنن الترمذى برقم (٨٨) وسنن ابن ماجه برقم (٣٨٤).
(٤) فى م: «قال».
(٥) المسند (١/ ٣٩٨) وقد تفرد به ابن لهيعة، وهو ضعيف.
(٦) زيادة من م.
(٧) سنن الدارقطنى (١/ ٧٧) من طريق داود بن أبى هند عن عامر بن علقمة بن قيس. قال: قلت لعبد الله بن مسعود: أشهد رسول الله ﷺ أحدٌ منكم ليلة أتاه داعى الجن؟ قال: لا، قال الدارقطنى: «هذا الصحيح عن ابن مسعود».
(٨) المسند (١/ ٤٤٩).
(٩) فى ت، م: «أبو بكر. قال: فسكت». (١٠) زيادة من م.
(١١) المعجم الكبير للطبرانى (١٠/ ٨٢) وفيه ميناء بن أبى ميناء، كذاب.

وهو حديث غريب جدا، وأحرى به ألا يكون محفوظا، وبتقدير صحته فالظاهر أن هذا بعد وفودهم إليه بالمدينة على ما سنورده، فإن فى ذلك الوقت فى آخر الأمر لما فتحت مكة، ودخل الناس والجان أيضا فى دين الله أفواجا، نزلت سورة [(١)]: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ. وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، وهى السورة التى نعيت نفسه الكريمة فيها إليه، كما قد نص على ذلك ابن عباس، ووافقه عمر بن الخطاب عليه، وقد ورد فى ذلك حديث سنورده عند تفسيرها، والله أعلم. وقد رواه أبو نعيم أيضا، عن الطبرانى عن محمد بن عبدالله الحضرمى، عن على بن الحسين بن أبى بردة، عن يحيى بن سعيد[(٢)] الأسلمى، عن حرب بن صَبِيح، عن سعيد بن مسلمة، عن أبى مرة الصنعانى، عن أبى عبد الله الجدلى، عن ابن مسعود، فذكره وذكر فيه قصة الاستخلاف[(٣)]، وهذا إسناد غريب، وسياق عجيب.

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد، حدثنا حماد بن سلمة، عن على بن زيد، عن أبى رافع، عن ابن مسعود؛ أن رسول الله ﷺ[(٤)] خط حوله، فكان أحدهم[(٥)] مثل سواد النخل، وقال لى: «لا تبرح مكانك»، فأقرأهم كتاب الله، فلما رأى الزُّط قال: كأنهم هؤلاء. وقال النبى ﷺ: «أمعك ماء؟»قلت: لا. قال: «أمعك نبيذ؟» قلت: نعم. فتوضأ به[(٦)].

طريق أخرى مرسلة: قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبد الله الظهرانى[(٧)]، أخبرنا حفص بن عمر العدنى، حدثنا الحكم بن أبان، عن عكرمة فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ قال: هم اثنا عشر ألفا جاؤوا من جزيرة الموصل، فقال النبى ﷺ لابن مسعود: «أنظرنى حتى آتيك»، وخط عليه خطا، وقال: «لا تبرح حتى آتيك». فلما خشيهم ابن مسعود كاد أن يذهب، فذكر قول رسول الله ﷺ فلم يبرح، فقال له النبى ﷺ: «لو ذهبت ما التقينا إلى يوم القيامة»[(٨)].

طريق أخرى مرسلة أيضا: قال سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ قال: ذكر لنا أنهم صرفوا إليه من نِينَوَى، وأن نبى الله ﷺ قال: «إنى أمرت أن أقرأ على الجن فأيكم يتبعنى؟» فأطرقوا، ثم استتبعهم فأطرقوا، ثم استتبعهم الثالثة فقال رجل: يا رسول الله، إن ذاك لذو ندبة فأتبعه ابن مسعود أخو هذيل، قال: فدخل النبى ﷺ شعبا يقال له: «شعب الحجون»، وخط عليه، وخط على ابن مسعود ليثبته بذلك، قال: فجعلت أهال وأرى أمثال النسور تمشى فى دفوفها، وسمعت لغطا شديدا، حتى خفت على نبى الله ﷺ، ثم تلا القرآن، فلما رجع رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله، ما اللغط الذى سمعت؟ قال: «اختصموا فى قتيل، فقضى بينهم بالحق». رواه ابن جرير، وابن أبى حاتم[(٩)].

---

(١) فى ت: «سورة النصر». (٢) فى أ: «يعلى».

(٣) المعجم الكبير للطبرانى (١٠/ ٨١) وفى إسناده يحيى الأسلمى وهو ضعيف.

(٤) فى م، أ: «أن رسول الله ﷺ ليلة الجن». (٥) فى أ: «فكان يجىء أحدهم».

(٦) المسند (١/ ٤٥٥).

(٧) فى م:«الطبرانى».

(٨) وفى إسناده الحكم بن أبان، وهو ضعيف.

(٩) تفسير الطبرى (٢٦/ ٢٠).

فهذه الطرق كلها تدل[١] على أنه ﷺ ذهب إلى الجن قصدا، فتلا عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله، عز وجل، وشرع الله لهم على لسانه ما هم محتاجون إليه فى ذلك الوقت. وقد يحتمل أن أول مرة سمعوه يقرأ القرآن [و][٢]لم يشعر بهم، كما قاله ابن عباس، رضى الله عنهما[٣]. ثم بعد ذلك وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود. وأما ابن مسعود فإنه لم يكن مع رسول الله ﷺ حال مخاطبته للجن ودعائه إياهم، وإنما كان بعيدا منه، ولم يخرج مع النبى ﷺ أحد سواه، ومع هذا لم يشهد حال المخاطبة، هذه طريقة البيهقى.

وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم لم يكن معه ابن مسعود ولا غيره، كما هو ظاهر سياق الرواية الأولى من طريق الإمام أحمد، وهى عند مسلم. ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى والله أعلم، كما روى ابن أبى حاتم فى تفسير: ﴿قُلْ أُوحِيَ﴾، من حديث ابن جريج قال: قال عبدالعزيز بن عمر: أما الجن الذين لقوه بنخلة فجن نينوى، وأما الجن الذين لقوه بمكة فجن نصيبين، وتأوله البيهقى على أنه يقول: «فبتنا بشر ليلة بات بها قوم»، على غير ابن مسعود ممن لم يعلم بخروجه ﷺ إلى الجن، وهو محتمل على بعد، والله أعلم.

وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقى: أخبرنا أبو عمرو محمد بن عبد الله[٤] الأديب، أخبرنا أبو بكر الإسماعيلى، أخبرنا الحسن بن سفيان، حدثنى سويد بن سعيد، حدثنا عمرو بن يحيى، عن جده سعيد بن عمرو، قال[٥]: كان أبو هريرة يتبع رسول الله ﷺ بإداوة لوضوئه وحاجته، فأدركه يوما فقال: «من هذا؟» قال: أنا أبو هريرة. قال: «ائتنى بأحجار أستنج بها، ولا تأتنى بعظم ولا روثة». فأتيته بأحجار فى ثوبى، فوضعتها إلى جنبه حتى إذا فرغ وقام اتبعته، فقلت: يا رسول الله، ما بال العظم والروثه[٦]؟ قال: «أتانى وفد جن نصيبين، فسألونى الزاد، فدعوت الله لهم ألا يمروا بعظم ولا بروثة إلا وجدوا طعاما»[٧].

أخرجه البخارى فى صحيحه، عن موسى بن إسماعيل، عن عمرو بن يحيى، بإسناده قريبا منه[٨]. فهذا يدل مع ما تقدم على أنهم وفدوا عليه بعد ذلك. وسنذكر ما يدل على تكرار ذلك.

وقد روى عن ابن عباس غير ما ذكر[٩] عنه أولا من وجه جيد، فقال ابن جرير:

حدثنا أبو كريب، حدثنا عبد الحميد الحمانى، حدثنا النضر بن عربى، عن عكرمة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ الآية، [قال][١٠]: كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين، فجعلهم رسول الله ﷺ رسلا إلى قومهم[١١].

فهذا يدل على أنه قد روى القصتين.

---

(١) فى ت: «فهذه الأحاديث التى ذكرناها كلها تدل». (٢) زيادة من ت. (٣) فى ت، أ: «عنه».
(٤) فى أ: «عبد الوهاب».
(٥) فى ت: «وقال الحافظ أبو بكر البيهقى بسنده». (٦) فى ت: «الروث».
(٧) دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٢٣٣).
(٨) صحيح البخارى برقم (٣٨٦٠).
(٩) فى أ: «ما روى». (١٠) زيادة من أ.
(١١) تفسير الطبرى (٢٦/ ٢٢).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا سويد بن عبد العزيز، حدثنا رجل سماه، عن ابن جريج، عن مجاهد: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ الآية، قال: كانوا سبعة نفر، ثلاثة من أهل حران، وأربعة من أهل نصيبين، وكانت أسماؤهم حيى وحسى ومسى، وشاصر وناصر، والأرد وإبيان والأحقم.

وذكر أبو حمزة الثمالى أن هذا الحى من الجن كان يقال لهم: بنو الشيصبان، وكانوا أكثر الجن عددا وأشرفهم نسبا، وهم كانوا عامة جنود إبليس.

وقال سفيان الثورى، عن عاصم، عن ذِرّ، عن ابن مسعود: كانوا تسعة، أحدهم زوبعة، أتوه من أصل نخلة.

وتقدم عنه أنهم كانوا خمسة عشر، وفى رواية: أنهم كانوا على ستين راحلة. وتقدم عنه أن اسم سيدهم وردان، وقيل: كانوا ثلاثمائة، وتقدم عن عكرمة أنهم كانوا اثنى عشر ألفا، فلعل هذا الاختلاف دليل على تكرر وفادتهم عليه صلوات الله وسلامه عليه، ومما يدل على ذلك ما قاله[١] البخارى فى صحيحه:

حدثنا يحيى بن سليمان، حدثنى ابن وهب، حدثنى عمر ـ هو ابن محمد ـ أن سالما حدثه، عن عبد الله بن عمر قال: ما سمعت عمر يقول لشىء قط: «إنى لأظنه كذا» إلا كان كما يظن، بينما عمر بن الخطاب جالس، إذ مر به رجل جميل، فقال: لقد أخطأ ظنى ـ أو: إن هذا على دينه فى الجاهلية ـ أو لقد كان كاهنهم ـ على بالرجل، فدعى له[٢]، فقال له ذلك، فقال: ما رأيت كاليوم استُقْبل له رجل مسلم. قال: فإنى أعزم عليك إلا ما أخبرتنى. قال: كنت كاهنهم فى الجاهلية. قال: فما أعجب ما جاءتك به جِنِّيَّتُك. قال: بينما أنا يوما فى السوق جاءتنى أعرف فيها الفزع، فقالت:

ألم تَرْ الجِنَّ وإبْلاسَهَا ويَأْسَهْا من بعد إنْكَاسِها

ولحُوقَها بالقلاص وأَحْلاسها

قال عمر: صدق، بينما أنا نائم عند آلهتهم، إذ جاء رجل بعجل فذبحه، فصرخ به صارخ، لم أسمع صارخا قط أشد صوتا منه، يقول: يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح يقول: «لا إله إلا الله» فوثب[٣] القوم، فقلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا؟ ثم نادى يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح يقول: «لا إله إلا الله». فقمت، فما نشبنا أن قيل: هذا نبى.

هذا سياق البخارى[٤]، وقد رواه البيهقى من حديث ابن وهب، بنحوه، ثم قال: «وظاهر هذه الرواية يوهم أن عمر بنفسه سمع الصارخ يصرخ من العجل الذى ذبح، وكذلك هو صريح[٥] فى رواية ضعيفة عن عمر فى إسلامه، وسائر الروايات تدل على أن هذا الكاهن هو الذى أخبر بذلك عن

(١) فى م: «ما رواه». (٢) فى ت، م، أ: «فدعى فجىء به له». (٣) فى م، أ: «قال: فوثب».
(٤) صحيح البخارى برقم (٣٨٦٦).
(٥) فى ت، م، أ: «صريحا» وهو خطأ.

رؤيته وسماعه، والله أعلم»[١].

وهذا الذى قاله البيهقى هو المتجه، وهذا الرجل هو سواد بن قارب، وقد ذكرت هذا[٢] مستقصى فى سيرة عمر، رضى الله عنه، فمن أراده فليأخذه من ثَمَّ، ولله الحمد [والمنة][٣].

قال البيهقى: «حديث سواد بن قارب، ويشبه أن يكون هذا هو الكاهن الذى لم يذكر اسمه فى الحديث الصحيح».

أخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب المفسر من أصل سماعه، أخبرنا أبو عبد الله محمد ابن عبد الله الصفار الأصبهانى، قراءة عليه، حدثنا أبو جعفر أحمد بن موسى الحمار الكوفى بالكوفة، حدثنا زياد بن يزيد بن بادويه أبو بكر القصرى، حدثنا محمد بن النواس الكوفى، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن أبى إسحاق، عن البراء [رضى الله عنه][٤] قال: بينما عمر بن الخطاب يخطب الناس على منبر رسول الله ﷺ، إذ قال: أيها الناس، أفيكم سواد بن قارب؟ قال: فلم يجبه أحد تلك السنة، فلما كانت السنة المقبلة قال: أيها الناس، أفيكم سواد بن قارب؟ قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، وما سواد بن قارب؟ قال: فقال له عمر: إن سواد بن قارب كان بَدءُ إسلامه شيئا عجيبا، قال: فبينا نحن كذلك إذ طلع سواد بن قارب، قال: فقال له عمر: يا سواد، حدثنا ببدء إسلامك، كيف كان؟ قال سواد: فإنى كنت نازلا بالهند، وكان لى رَئِىٌّ من الجن، قال: فبينا أنا ذات ليلة نائم، إذ جاءنى فى منامى ذلك. قال: قم فافهم واعقل إن كنت تعقل، قد بعث رسول من لؤى بن غالب، ثم أنشأ يقول:

عَجِبتُ للجنِّ وأنْجَاسِها[٥] ... وشَدِّها العيسَ بأحْلاسِها
تَهْوى إلى مكةَ تَبْغى الهُدَى ... مَا مُؤمنو الجنِّ كَأرْجَاسِها
فَانْهَض إلى الصَّفْوةِ من هَاشمٍ ... واسْمُ بعينَيْك إلى رَاسِها

قال: ثم أنبهنى فأفزعنى، وقال: يا سواد بن قارب، إن الله بعث نبياً فانهض إليه تهتد وترشد. فلما كان من الليلة الثانية أتانى فأنبهنى، ثم أنشأ يقول كذلك:

عَجِبتُ للجنِّ وتَطْلابِها ... وَشَدها العِيسَ بأقْتَابِها
تَهْوى إلى مَكّةَ تَبْغى الهُدَى ... ليسَ قُدامَاها كأذْنَابِها
فانهض إلى الصَّفْوةِ من هَاشمٍ ... واسْمُ بعَيْنَيك إلى نَابِها[٦]

فلما كان فى الليلة الثالثة أتانى فأنبهنى، ثم قال:

عَجِبتُ للجنّ وتَخْبارها ... وَشَدِّها العيسَ بأكْوَارها
تَهْوى إلى مكّةَ تَبْغِي الهُدَى ... لَيسَ ذَوُو الشَّر كأخْيَارهَا
فَانْهَضْ إلى الصَّفْوةِ من هَاشمٍ ... مَا مُؤمنو الجنّ ككُفَّارهَا

(١) دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٢٤٥).
(٢) فى ت: «ذلك».
(٣) زيادة من أ.
(٤) زيادة من ت.
(٥) فى أ: «وأجناسها».
(٦) فى أ: «يابها».

قال: فلما سمعته تكرر ليلة بعد ليلة، وقع فى قلبى حب الإسلام من أمر رسول الله ﷺ ما شاء الله، قال: فانطلقت إلى رحلى فشددته على راحلتى، فما حللت [عليه][1] نسعة ولا عقدت أخرى حتى أتيت رسول الله ﷺ، فإذا هو بالمدينة ـ يعنى مكة ـ والناس عليه كعرف الفرس، فلما رآنى النبى ﷺ قال: «مرحبا بك يا سواد بن قارب، قد علمنا ما جاء بك». قال: قلت: يا رسول الله، قد قلت شعرا، فاسمعه منى. قال سواد: فقلت:

أَتَانِى رئىٌّ بعد لَيْلٍ وهَجْعَةٍ ... ولَم يَكُ فيما قَدْ بَلَوتُ بكَاذِبِ
ثَلاثِ لَيَالٍ قَولُه كُلَّ لَيْلَةٍ: ... أتاك رسول[2] من لُؤَىّ بن غَالبِ
فَشَمَّرتُ عن سَاقى الإزَارَ ووسطت ... بى الدّعلب الوَجْنَاءُ عند السَّبَاسبِ
فَأَشْهَدُ أنّ اللهَ لا شَىء غَيْرهُ ... وأَنَّكَ مَأْمُونٌ عَلَى كُلِّ غَائبِ
وأَنَّك أَدْنَى المُرْسَلِينَ شَفَاعَةً ... إلى اللهِ يا ابنَ الأكرَمينَ الأَطَايبِ
فَمُرْنَا بمَا يَأتِيْك يا خَيرَ مُرْسلٍ[3] ... وإِنْ كَانَ فِيمَا جَاءَ شَيبُ الذّوَائبِ
وكُنْ لى شَفِيْعا يَومَ لا ذُو شَفَاعةٍ ... سِوَاك بِمغْنٍ عن سَوَاد بن قَاربِ

قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، وقال لى: «أفلحت يا سواد»: فقال له عمر: هل يأتيك رئيك الآن؟ فقال: منذ قرأت القرآن لم يأتنى، ونعم العوض كتاب الله من الجن[4].

ثم أسنده البيهقى من وجهين آخرين[5]. ومما يدل على وفادتهم إليه، عليه السلام[6]، بعد ما هاجر إلى المدينة، الحديث الذى رواه الحافظ أبو نعيم فى كتاب «دلائل النبوة» [فقال][7]:

حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا محمد بن عبدة المصيصى، حدثنا أبو تَوْبَة الربيع بن نافع، حدثنا معاوية بن سلام، عن زيد بن أسلم: أنه سمع أبا سلام يقول: حدثنى من حدثه عمرو بن غيلان الثقفى قال: أتيت عبد الله بن مسعود فقلت له: حدثت أنك كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن؟ قال: أجل. قلت: حدثنى كيف كان شأنه؟ فقال: إن أهل الصفة أخذ كلّ رجلٍ منهم رجل[8] يعشيه، وتركت فلم يأخذنى أحد منهم، فمر بى رسول الله ﷺ فقال: «من هذا؟». فقلت: أنا ابن مسعود. فقال: «ما أخذك أحد يعشيك؟» فقلت: لا. قال: «فانطلق لعلى أجد لك شيئاً». قال: فانطلقنا حتى أتى حجرة أم سلمة فتركنى [9] ودخل إلى أهله، ثم خرجت الجارية فقالت: يا ابن مسعود، إن رسول الله لم يجد لك عشاء، فارجع إلى مضجعك. قال: فرجعت إلى المسجد، فجمعت حصباء المسجد فتوسدته، والتفت بثوبى، فلم ألبث إلا قليلا حتى جاءت الجارية، فقالت:

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت، م: «نبى». (٣) فى ت: «من مشى».
(٤) دلائل النبوة للبيهقى (١/ ٢٤٨).
(٥) دلائل النبوة للبيهقى (١/ ٢٥٢).
(٦) فى أ: «على الإسلام». (٧) زيادة من أ. (٨) فى ت، أ: «رجلاً» وهو خطأ.
(٩) فى أ: «فتركنى قائما».

أجب رسول الله [(١)]. فاتبعتها وأنا أرجو العشاء، حتى إذا بلغت مقامى، خرج رسول الله ﷺ وفى يده عسيب من نخل، فعرض به على صدرى فقال: «أتنطلق أنت معى [(٢)] حيث انطلقت؟» قلت: ما شاء الله. فأعادها على ثلاث مرات، كل ذلك أقول: ما شاء الله. فانطلق وانطلقت معه، حتى أتينا بقيع الغرقد، فخط بعصاه خطا، ثم قال: «اجلس فيها، ولا تبرح حتى آتيك». ثم انطلق يمشى وأنا أنظر إليه خلال النخل، حتى إذا كان من حيث لا أراه ثارت [(٣)] العَجَاجة السوداء، ففرقت فقلت: ألحق برسول الله ﷺ، فإنى أظن أن [(٤)] هوازن مكروا برسول الله ﷺ ليقتلوه، فأسعى إلى البيوت، فأستغيث الناس. فذكرت أن رسول الله ﷺ أوصانى: ألا أبرح مكانى الذى أنا فيه، فسمعت رسول الله ﷺ يقرعهم بعصاه ويقول: «اجلسوا». فجلسوا حتى كاد ينشق عمود الصبح، ثم ثاروا وذهبوا، فأتانى رسول الله ﷺ فقال: «أنمت بعدى؟» فقلت: لا [(٥)]، ولقد فزعت الفزعة الأولى،حتى رأيت أن آتى البيوت فأستغيث الناس حتى سمعتك تقرعهم بعصاك، وكنت أظنها هوازن، مكروا برسول الله ﷺ ليقتلوه. فقال: «لو أنك خرجت من هذه الحلقة ما آمنهم [(٦)] عليك أن يختطفك بعضهم، فهل رأيت من شىء منهم؟» فقلت: رأيت رجالا سودا مستشعرين [(٧)] بثياب بيض. فقال رسول الله ﷺ: «أولئك وفد جن نصيبين، أتونى فسألونى الزاد والمتاع،فمتعتهم بكل عظم حائل أو روثة أو بعرة». قلت: وما يغنى عنهم ذلك؟ قال: «إنهم لا يجدون عظما إلا وجدوا عليه لحمه الذى كان عليه يوم أكل، ولا روثة إلا وجدوا فيها حبها الذى كان فيها يوم أكلت، فلا يستنقى أحد منكم بعظم ولا بعرة [(٨)]» [(٩)].

وهذا إسناد غريب جداً [(١٠)]، ولكن فيه رجل مبهم لم يسم [والله أعلم] [(١١)]، وقد روى الحافظ أبو نعيم من حديث بقية بن الوليد، حدثنى نمير بن زيد القنبر [(١٢)]، حدثنا أبى، حدثنا قحافة بن ربيعة، حدثنى الزبير بن العوام قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح فى مسجد المدينة، فلما انصرف قال: «أيكم يتبعنى إلى وفد الجن الليلة؟» فأسكت القوم ثلاثا، فمر بى فأخذ بيدى، فجعلت أمشى معه حتى حبست عنا جبال المدينة كلها، وأفضينا إلى أرض براز فإذا برجال طوال كأنهم الرماح، مستشعرين [(١٣)] بثيابهم من بين أرجلهم، فلما رأيتهم غشيتنى رعدة شديدة، ثم ذكر نحو حديث ابن مسعود المتقدم [(١٤)]، وهذا حديث غريب، والله أعلم.

ومما يتعلق بوفود الجن ما رواه الحافظ أبو نعيم: حدثنا أبو محمد بن حيان، حدثنا أبو الطيب أحمد بن روح، حدثنا يعقوب الدَّوْرَقى، حدثنا الوليد بن بكير التميمى، حدثنا حصين بن عمر [(١٥)]،

---

(١) فى ت: «رسول الله ﷺ».
(٢) فى ت، م: «انطلق معى»، وفى أ: «انطلق أنت معى».
(٣) فى ت، م، أ: «ثارت مثل العجاجة».
(٤) فى ت، م، أ: «هذه».
(٥) فى أ: «لا والله».
(٦) فى ت، م: «ما أمنت»، وفى أ: «ما آمن».
(٧) فى ت، أ: «مستثفرين».
(٨) فى ت: «ولا روثة».
(٩) لم أجده فى دلائل النبوة المطبوعة لأبى نعيم.
(١٠) فى ت، أ: «وهذا سياق غريب».
(١١) زيادة من ت، أ.
(١٢) فى ت، أ: «حدثنى بهز بن يزيد الليثى».
(١٣) فى ت، أ: «مستثفرين».
(١٤) لم أجده فى دلائل النبوة المطبوعة لأبى نعيم.
(١٥) فى م: «عمير».

أخبرنى عبيد المُكتب، عن إبراهيم قال: خرج نفر من أصحاب عبد الله[(١)] يريدون الحج، حتى إذا كانوا فى بعض الطريق، إذا هم بحية تنثنى [(٢)]على الطريق أبيض، ينفخ منه ريح المسك، فقلت لأصحابى: امضوا، فلست ببارح حتى أنظر إلى ما يصير إليه أمر هذه الحية. قال: فما لبثت أن ماتت، فعمدت إلى خرقة بيضاء فلففتها فيها، ثم نحيتها عن الطريق فدفنتها، وأدركت أصحابى فى المتعشى. قال: فوالله إنا لقعود إذ أقبل[(٣)] أربع نسوة من قبل المغرب، فقالت واحدة منهن: أيكم دفن عمراً؟ قلنا: ومن عمرو، قالت: أيكم دفن الحية؟ قال: قلت: أنا. قالت: أما والله لقد دفنت صواما قواما، يأمر بما أنزل الله، ولقد آمن بنبيكم، وسمع صفته من [(٤)] السماء قبل أن يبعث بأربعمائة عام. قال الرجل فحمدنا[(٥)] الله، ثم قضينا حجتنا[(٦)]، ثم مررت بعمر بن الخطاب فى المدينة فأنبأته بأمر الحية، فقال: صدقت، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لقد آمن بى قبل أن أبعث بأربعمائة سنة»[(٧)].

وهذا حديث غريب جدا، والله أعلم.

قال أبو نعيم: وقد روى الثورى، عن أبى إسحاق، عن الشعبى، عن رجل من ثقيف، بنحوه. وروى عبد الله بن أحمد والطِّهرانى، عن صفوان بن المعطل ـ هو الذى نزل ودفن تلك الحية من بين الصحابة ـ وأنهم قالوا: أما إنه آخر التسعة موتا الذين أتوا رسول الله ﷺ يستمعون القرآن[(٨)].

وروى أبو نعيم من حديث الليث بن سعد، عن عبد العزيز بن أبى سلمة الماجِشُون، عن عمه[(٩)]، عن معاذ بن عُبَيْد الله[(١٠)] بن معمر قال: كنت جالسا عند عثمان بن عفان، فجاء رجل فقال: يا أمير المؤمنين، إنى كنت بفلاة من الأرض، فذكر أنه رأى ثعبانين[(١١)] اقتتلا ثم قتل أحدهما الآخر، قال: فذهبت إلى المعترك، فوجدت حيات كثيرة مقتولة، وإذا ينفح من بعضها ريح المسك، فجعلت أشمُّها واحدة واحدة، حتى وجدت ذلك من حية صفراء رقيقة، فلففتها فى عمامتى ودفنتها. فبينا أنا أمشى إذ نادانى[(١٢)] مناد: يا عبد الله، لقد هُدِيتَ! هذان حيان[(١٣)] من الجن بنو أشعيبان وبنو أقيش التقوا، فكان من القتلى ما رأيت، واستشهد الذى دفنته، وكان من الذين سمعوا الوحى من رسول الله ﷺ. قال: فقال عثمان لذلك الرجل: إن كنت صادقا فقد رأيت عجبا، وإن كنت كاذبا فعليك كذبك[(١٤)].

فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ أى: طائفة من الجن، ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا

---

(١) فى م: «عبيد الله».
(٢) فى أ: «تمشى».
(٣) فى ت، م: «جاء».
(٤) فى ت: «فى».
(٥) فى أ: «فحمدت».
(٦) فى ت، م، أ: «حجنا».
(٧) دلائل النبوة لأبى نعيم (ص٣٠٦).
(٨) لم أجده فى دلائل النبوة المطبوعة لأبى نعيم.
(٩) فى ت: «وروى أبو نعيم بإسناده».
(١٠) فى ت، م، أ: «عبد الله».
(١١) فى ت، أ، م: «إعصارين».
(١٢) فى أ: «هذا جان».
(١٣) فى ت، م: «نادى».
(١٤) دلائل النبوة لأبى نعيم (ص٣٠٥).

حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾ أى: استمعوا[(١)] وهذا أدب منهم.

وقد قال الحافظ البيهقى: حدثنا الإمام أبو الطيب سهل بن محمد بن سليمان، أخبرنا أبو الحسن محمد بن عبد الله الدقاق، حدثنا محمد بن إبراهيم البُوشَنْجى، حدثنا هشام بن عمار الدمشقى، حدثنا الوليد بن مسلم، عن زهير بن محمد، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله قال: قرأ رسول الله ﷺ سورة «الرحمن» حتى ختمها، ثم قال: «ما لى أراكم سكوتا، لَلْجنّ كانوا أحسن منكم رداً، ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلا قالوا: ولا بشىء من آلائك ـ أو نعمك ـ ربنا نكذب، فلك الحمد».

ورواه الترمذى فى التفسير، عن أبى مسلم عبد الرحمن بن واقد، عن الوليد بن مسلم، به[(٢)]. قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن، فذكره، ثم قال الترمذى: «غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد، عن زهير» كذا قال. وقد رواه البيهقى من حديث مروان بن محمد الطاطرى، عن زهير بن محمد، به مثله[(٣)] [(٤)].

وقوله: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أى: فرغ. كقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ﴾[الجمعة: ١٠]، ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢]، ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠] ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ أى: رجعوا إلى قومهم فأنذروهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ، كقوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وقد استدل بهذه الآية على أنه فى الجن نُذُرٌ، وليس فيهم رسل: ولا شك أن الجن لم يبعث الله منهم رسولا؛ لقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال عن إبراهيم الخليل: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

فكل نبى بعثه الله بعد إبراهيم فمن ذريته وسلالته، فأما قوله تعالى فى [سورة][(٥)] الأنعام: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، فالمراد من مجموع الجنسين، فيصدق على أحدهما وهو الإنس، كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] أى: أحدهما. ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم فقال مخبراً عنهم: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ [مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ][(٦)]﴾، ولم يذكروا عيسى؛ لأن عيسى، عليه السلام، أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحليل والتحريم، وهو فى الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة، فالعمدة هو التوراة؛ فلهذا قالوا: أنزل من بعد موسى. وهكذا قال ورقة بن نوفل، حين أخبره النبى

(١) فى ت، م: «استمعوه».
(٢) دلائل النبوة للبيهقى (١/ ٢٣٢) ،وسنن الترمذى برقم (٣٢٩١).
(٣) فى ت: «بمعناه».
(٤) دلائل النبوة للبيهقى (١/ ٢٣٢).
(٥) زيادة من ت.
(٦) زيادة من أ.

ﷺ بقصة نزول جبريل [عليه السلام][(١)] عليه أول مرة، فقال: بَخ بَخ، هذا الناموس الذى كان يأتى موسى، يا ليتنى أكون فيها جَذَعاً.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أى: من الكتب المنزلة قبله على الأنبياء. وقولهم: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ أى: فى الاعتقاد والإخبار، ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: فى الأعمال، فإن القرآن يشتمل على شيئين[(٢)] خبر وطلب[(٣)]، فخبره صدق، وطلبه عدل، كما قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣]، فالهدى هو: العلم النافع، ودين الحق: هو العمل الصالح. وهكذا قالت الجن: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ فى الاعتقادات، ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أى: فى العمليات.

﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾: فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمداً صلوات الله وسلامه عليه[(٤)] إلى الثقلين الإنس والجن حيث دعاهم إلى الله، وقرأ عليهم السورة التى فيها خطاب الفريقين، وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم، وهى سورة الرحمن؛ ولهذا قال[(٥)]: ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾.

وقوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾: قيل: إن «من» هاهنا زائدة، وفيه نظر؛ لأن زيادتها فى الإثبات قليل. وقيل: إنها على بابها للتبعيض، ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أى: ويقيكم من عذابه الأليم.

وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة، وإنما جزاء صالحيهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة؛ ولهذا قالوا هذا فى هذا المقام، وهو مقام تبجح ومبالغة، فلو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا لأوشك أن يذكروه.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، قال: حُدثت عن جرير، عن ليث، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: لا يدخل مؤمنو الجن الجنة؛ لأنهم من ذرية إبليس، ولا تدخل ذرية إبليس الجنة.

والحق أن مؤمنهم كمؤمنى الإنس يدخلون الجنة، كما هو مذهب جماعة [(٦)]من السلف، وقد استدل بعضهم لهذا بقوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٧٤]، وفى هذا الاستدلال نظر، وأحسن منه قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦، ٤٧]، فقد امتن تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة، وقد قابلت الجنّ هذه الآية بالشكر القولى أبلغ من الإنس، فقالوا: «ولا بِشَىء من آلائك ربنا نكذبْ، فلك الحمد» فلم يكن تعالى ليمتنّ عليهم بجزاء لا يحصل لهم، وأيضا فإنه إذا كان يجازى كافرهم بالنار ـ وهو مقام عدل ـ فَلأنْ يجازى مؤمنهم بالجنة ـ وهو مقام فَضْل ـ بطريق الأولى والأحرى. ومما يدل أيضا على ذلك عمومُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧]، وما

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت: «نوعين». (٣) فى أ: «خبراً وطلبًا».
(٤) فى ت: «ﷺ». (٥) فى م: «قالوا». (٦) فى ت، أ: «طائفة».

أشبه ذلك من الآيات. وقد أفردت هذه المسألة فى جزء على حدة، ولله الحمد والمنة. وهذه الجنة لا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله لها خلقا، أفلا يسكنها من آمن به وعمل له صالحا؟ وما ذكروه هاهنا من الجزاء على الإيمان من تكفير الذنوب والإجارة من العذاب الأليم، هو يستلزم دخول الجنة؛ لأنه ليس فى الآخرة إلا الجنة أو النار، فمن أجير من النار دخل الجنة لا محالة. ولم يرد معنا نص صريح ولا ظاهر عن[1] الشارع أن مؤمنى الجن لا يدخلون الجنة وإن أجيروا من النار، ولو صح لقلنا به، والله أعلم. وهذا نوح، عليه السلام، يقول لقومه: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ[2] إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [نوح: ٤]، ولا خلاف أن مؤمنى قومه فى الجنة، فكذلك هؤلاء. وقد حكى فيهم أقوال غريبة فعن عُمَر بن عبد العزيز: أنهم لا يدخلون بُحْبُوحَةَ الجنة، وإنما يكونون فى رَبَضها وحولها وفى أرجائها. ومن الناس من زعم أنهم فى الجنة يراهم بنو آدم ولا يرون هم بنى آدم عكس ما كانوا عليه فى الدار الدنيا. ومن الناس من قال: لا يأكلون فى الجنة ولا يشربون، وإنما يلهمون التسبيح والتحميد والتقديس، عِوَضاً عن الطعام والشراب كالملائكة، لأنهم من جنسهم. وكل هذه الأقوال فيها نظر، ولا دليل عليها.

ثم قال مخبرا عنه: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: بل قدرة الله شاملة له ومحيطة به، ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ أى: لا يجيرهم منه أحدٌ ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا مقامُ تهديد وترهيب، فَدَعَوا قومهم بالترغيب والترهيب؛ ولهذا نجع فى كثير منهم، وجاؤوا إلى رسول الله ﷺ وفودا وفودا، كما تقدم بيانه.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥)﴾.

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أى: هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة، المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ أى: ولم يكرثه خَلْقُهن، بل قال لها: «كونى» فكانت، بلا ممانعة ولا مخالفة، بل طائعة مجيبة خائفة وجلة، أفليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى؟ كما قال فى الآية الأخرى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧] ،ولهذا قال: ﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

---

(١) فى أ: «من».

(٢) فى ت، أ: «ويجركم» وهو خطأ.

ثم قال متهددا ومتوعدا لمن كفر به: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أى: يقال لهم: أما هذا حق؟ أفسحر هذا؟ أم أنتم لا تبصرون؟ ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾ أى: لا يسعهم إلا الاعتراف، ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، ثم قال تعالى آمراً رسوله[١] بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه، ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أى: على تكذيب قومهم لهم. وقد اختلفوا فى تعداد أولى العزم على أقوال، وأشهرها أنهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وخاتم الأنبياء كلهم محمد ﷺ، قد نص الله على أسمائهم من بين الأنبياء فى آيتين من[٢] سورتى «الأحزاب» و«الشورى»، وقد يحتمل أن يكون المراد بأولى العزم جميع الرُّسُل، وتكون ﴿مِنَ﴾ فى قوله: ﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾ لبيان الجنس، والله أعلم. وقد قال ابن أبى حاتم:

حدثنا محمد بن الحجاج الحضرمى، حدثنا السرى بن حَيَّان، حدثنا عباد بن عباد، حدثنا مجالد ابن سعيد، عن الشعبى، عن مسروق قال: قالت لى عائشة [رضى الله عنها][٣]: ظل رسول الله ﷺ صائما ثم طواه، ثم ظل صائما ثم طواه، ثم ظل صائما، [ثم][٤] قال: «يا عائشة، إن الدنيا لا تنبغى لمحمد ولا لآل محمد. يا عائشة، إن الله لم يرض من أولى العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهها والصبر عن محبوبها، ثم لم يرض منى إلا أن يكلفنى ما كلفهم، فقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ وإنى ـ والله ـ لأصبرن كما صبروا جَهدى، ولا قوة إلا بالله»[٥].

﴿وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أى: لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم، كقوله: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾ [المزمل: ١١]، وكقوله: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٧].

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾، كقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، وكقوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: ٤٥]، [وحاصل ذلك أنهم استقصروا مدة لبثهم فى الدنيا وفى البرزخ حين عاينوا يوم القيامة وشدائدها وطولها][٦]

وقوله: ﴿بَلاغٌ﴾: قال ابن جرير: يحتمل معنيين، أحدهما: أن يكون تقديره: وذلك لبثَ بلاغ. والآخر: أن يكون تقديره: هذا القرآن بلاغ.

وقوله: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أى: لا يهلك على الله إلا هالك، وهذا من عدله تعالى أنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب.

آخر تفسير سورة الأحقاف

---

(١) فى ت: «لرسوله». (٢) فى ت: «فى». (٣) زيادة من ت.
(٤) زيادة من ت، م، أ.
(٥) ورواه الديلمى فى مسند الفردوس برقم (٨٦٢٨) «مكرر» من طريق محمد بن حجاج الحضرمى به.
(٦) زيادة من ت، أ.

سورة الأحقاف

مكّيّة، وهي أربع -وقيل: خمس-[١] وثلاثون[٢] آيةً.[٣]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾

﴿حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ الكلام فيه كالذي مرّ في مطلع السورة السابقة.

﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ بما فيهما مِن حيث الجزئيّةُ منهما، ومِن حيث الاستقرارُ فيهما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ مِن المخلوقات ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ المفاعيل، أي: إلّا خلقًا ملتبِسًا بالحقّ[٤] الذي يقتضيه الحكمة التكوينيّة والتشريعيّة، أو مِن أعمّ الأحوال مِن فاعل ﴿خَلَقْنَا﴾، أو مِن مفعوله، أي: ما خلقناها في حال مِن الأحوال إلّا حالَ ملابَستنا بالحقّ، أو حالَ ملابستها به. وفيه مِن الدلالة على وجود الصانع تعالى وصفاتِ كماله وابتناءِ أفعاله على حِكم بالغةٍ وانتهائِها إلى غايات جليلة ما لا يخفى.

﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ عطفٌ على ﴿ٱلْحَقِّ﴾ بتقدير مضاف، أي: وبتقدير أجلٍ مسمًّى ينتهي إليه أمور الكلّ، وهو يوم القيامة، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم، ٤٨/١٤].

وقيل: هو آخر مدّة البقاء المقدَّر لكلّ واحد،[٥] ويأباه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾، فإنّ ما أُنذِروه يومُ القيامة وما فيه مِن الطامّة التامّة والأهوالِ العامّةِ لا آخِرُ أعمارهم.

---

١ س - وقيل: خمس؛ ي - وهي أربع، وقيل: خمس.
٢ ي: ثلاثون وخمس.
٣ س + وقيل: خمس؛ ي: آيات.

٤ وفي هامش م: فإنّ عدم جواز تفريغ العامل في المصدر المؤكّد دون المخصِّص. «منه».
٥ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ١١١/٥.

وقد جُوِّز كونُ ﴿مَا﴾ مصدريّة، والجملة حاليّة. أي: ما خلقنا الخلقَ إلّا بالحقّ وتقديرِ الأجَل الذي يُجازَون عنده، والحالُ أنّهم غير مؤمنين به، معرضون عنه وعن الاستعداد له.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾

﴿قُلْ﴾ توبيخًا لهم وتبكيتًا: ﴿أَرَءَيْتُم﴾ أخبروني، وقُرِئ: "أرَأَيْتَكُم"،[1] ﴿مَا تَدْعُونَ﴾ ما تعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مِن الأصنام ﴿أَرُونِى﴾ تأكيدٌ لـ﴿أَرَءَيْتُم﴾ ﴿مَاذَا خَلَقُوا۟/ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ بيان للإبهام في ﴿مَاذَا﴾، ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ أي: شركة مع الله تعالى [٨٦ظ] ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: في خَلقِها، أو مُلكها وتدبيرها حتّى يُتوهَّم أن يكون لهم شائبةُ استحقاق للمعبوديّة، فإنّ ما لا مدخلَ له في وجود شيء مِن الأشياء بوجه مِن الوجوه فهو بمَعزِل مِن ذلك الاستحقاق بالمرّة، وإن كان مِن الأحياء العقلاء، فما ظنّكم بالجماد؟

وقوله تعالى: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ﴾... إلخ تَبكيتٌ لهم بتعجيزهم عن الإتيان بسندٍ نقلي بعد تَبكيتهم بالتعجيز عن الإتيان بسندٍ عقلي، أي: ائتوني بكتاب إلهيّ كائنٍ ﴿مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ الكتابِ، أي: القرآنِ الناطقِ بالتوحيد وإبطالِ الشرك، دالّ على صحّة دينكم، ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أو بقيّةٍ مِن عِلمٍ بَقِيَت عليكم مِن علوم الأوّلين شاهدةٍ باستحقاقهم للعبادة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم، فإنّها لا تكاد تصِحّ ما لم يقُم عليها برهان عقلي، أو سلطان نقلي، وحيث لم يقم عليها شيء منهما وقد قامت على خِلافها أدلّة العقل والنقل تبيّنَ بطلانها.

وقُرِئ: "إِثَارَةٍ" بكسر "الهمزة"،[2] أي: مناظَرةٍ، فإنّها تُثير المعاني، و"أَثَرَةٍ"،[3] أي: شيءٍ أُوثِرْتُم به وخُصِصْتُم مِن علمٍ مَطويّ مِن غيركم، و"أَثْرَةٍ" بالحركات الثلاث

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. معاني القرآن للفرّاء، ٣/٤٩.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٥.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وعكرمة وقتادة وعمرو بن ميمون والحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٥.

مع سكون "الثاء"،[١] أمّا المكسورة فبمعنى "الأَثَرة"، وأمّا المفتوحة فهي المرّة مِن "أَثَرَ الحديثَ"، أي: رَواه، وأمّا المضمومة فاسم ما يُؤثَر، كـ"الخُطبة" التي هي اسم ما يُخطب به.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥﴾

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥ﴾ إنكار ونفي لِأن يكون أحد يساوي المشركين في الضلال، وإن كان سَبك التركيب لنفي الأضلّ منهم مِن غير تعرّض لنفي المساوي كما مرّ غيرَ مرّة. أي: هم أضل مِن كلّ ضالّ، حيث تركوا عبادة خالقهم السميعِ القادرِ المجيبِ الخبيرِ إلى عبادة مصنوعهم العاري عن السمع والقدرة والاستجابة ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ غاية لنفي الاستجابة.

﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ﴾ الضمير الأوّل لمفعول ﴿يَدْعُوا۟﴾، والثاني لفاعله، والجمع فيهما باعتبار معنى ﴿مَن﴾، كما أنّ الإفراد فيما سبَق باعتبار لفظها ﴿غَـٰفِلُونَ﴾ / لكونهم جماداتٍ. وضمائر العقلاء لإجرائهم إيّاها مُجرى العقلاء. ووصفُها [٨٧و] بما ذُكر مِن ترك الاستجابة والغفلةِ مع ظهور حالها للتهكّم بها وبعَبَدتها، كقوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ الآيةَ [فاطر، ٣٥/١٤].

﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ۝٦﴾

﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ عند قيام القيامة ﴿كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ أي: مكذِّبين بلسان الحال أو المَقال، على ما يُروى أنّه تعالى يُحيي الأصنامَ فتتبرّأ عن عبادتهم.

وقد جُوِّز أن يراد بهم كلُّ مَن يُعبَد مِن دون الله مِن الملائكة والجنّ والإنس وغيرهم، ويُبنَى إرجاعُ الضمائر وإسنادُ العداوة والكفر إليهم على التغليب،

---

[١] القراءات الثلاث شاذّة؛ "أَثَرَةٍ" بفتح "الهمزة" مرويّة عن عليّ والسلمي، و"أُثْرَةٍ" بضمّ الهمزة" مرويّة عن السلمي وابن عُمير، وإِثْرَةٍ" بكسر "الهمزة" عن أبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٥.

ويُرادَ بذلك تبرّؤهم عنهم وعن عبادتهم. وقيل: ضمير ﴿كَانُواْ﴾ للعَبَدة، وذلك قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام، ٢٣/٦].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحاتٍ أو مبيّناتٍ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ﴾ أي: لأجلِه وفي شأنِه، وهو عبارة عن الآيات المتلُوّة، وُضع موضع ضميرها تنصيصًا على حقّيّتها ووجوبِ الإيمان بها، كما وُضع الموصول موضعَ ضمير المتلوّ عليهم تسجيلًا عليهم بكمال الكفر والضلالة ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي: في أوّل ما جاءهم مِن غير تدبّر وتأمّل: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهرٌ كونُه سِحرًا.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ إضراب وانتقال مِن حكاية شَناعتهم السابقة إلى حكاية ما هو أشنَع منها. وما في ﴿أَمْ﴾ مِن "الهمزة" للإنكار التوبيخي المتضمّن للتعجيب، أي: بل أيَقولون: افترى القرآنَ، ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ على الفَرْض ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ إذ لا ريبَ في أنّه تعالى يعاجلني حينئذ بالعقوبة، فكيف أجتَرئُ على أن أفْتَري عليه تعالى كذبًا، وأعرّض نفسي للعقوبة التي لا مناصَ عنها، ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: تَندفعون فيه مِن القَدح في وحي الله، والطعنِ في آياته، وتسميتِه "سِحرًا" تارةً، و"فِريةً" أخرى.

﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ حيث يشهد لي بالصدق والبلاغ، وعليكم بالكذب والجحود. وهو وعيد بجزاء إفاضتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ/ ٱلرَّحِيمُ﴾ وعد بالغفران والرحمة لمَن تاب وآمَن، وإشعارٌ بحِلمِ الله تعالى عنهم مع عِظَم جرائمهم. [٨٧ظ]

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩﴾

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ "البِدْع" بمعنى "البديع"، كـ"الخِلّ" بمعنى "الخليل"، وهو ما لا مثلَ له. وقُرئ بفتح "الدال"[١] على أنّه صفة، كـ"قِيَم" و"زِيَم"،[٢] أو جمع مقدّر بمضاف، أي: ذا بِدَعٍ، وقد جُوِّز ذلك في القراءة الأولى أيضًا على أنّه مصدر.

كانوا يقترحون عليه عليه السلام آياتٍ عجيبةً ويسألونه عن المغيَّبات عنادًا ومكابرةً، فَأُمِر عليه السلام بأن يقول لهم: ما كنت بديعًا مِن الرسل قادرًا على ما لم يقدروا عليه حتّى آتِيَكُم بكلّ ما تقترحونه، وأخبركم بكلّ ما تسألون عنه مِن الغيوب، فإنّ مَن قبلي مِن الرسل عليهم السلام ما كانوا يأتون إلّا بما آتاهم الله تعالى مِن الآيات، ولا يخبرونهم إلّا بما أَوحَى إليهم.

﴿وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ أي: أيّ شيء يُصيبنا فيما يُستقبَل مِن الزمان مِن أفعاله تعالى، وماذا يُقدَّر لنا مِن قضاياه. وعن الحسن رحمه الله: ما أدري ما يصير إليه أمري وأمركم في الدنيا.[٣] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: ما يُفعَل بي ولا بكم في الآخرة. وقال: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح، ٤٨/٢].[٤] وقيل: يجوز أن يكون المنفيُّ هي الدراية المفصَّلة.

والأظهر الأوفق لِما ذُكر مِن سبب النزول أنّ ﴿مَا﴾ عبارة عمّا ليس عَلِمَه مِن وظائف النبوّة مِن الحوادث والواقعات الدنيويّة دون ما سيقع في الآخرة، فإنّ العلم بذلك مِن وظائف النبوّة، وقد ورَد به الوحي الناطق بتفاصيل ما يُفعل بالجانبين.

هذا، وقد رُوي عن الكلبي أنّ أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قالوا له عليه السلام، وقد ضَجِروا مِن أذيّة المشركين: «حتّى متى نكون على هذا؟»، فقال: «ما أدري ما يُفعَل بي ولا بكم، أَأُترَك بمكّة، أم أُومَر بالخروج إلى أرضٍ ذاتِ نخيل وشجر، قَد رُفِعَت لي ورأيتها؟»، يعني في منامه.[٥]

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة وأبي حَيوة وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٥.

[٢] وفي هامش م: أي: متفرّق. «منه».

[٣] جامع البيان للطبري، ٢١/١٢٢؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٩/٨.

[٤] الكشّاف للزمخشري، ٤/٢٩٨. وانظر: جامع البيان للطبري، ٢١/١٢١.

[٥] الكشّاف للزمخشري، ٤/٢٩٨. وانظر: التفسير البسيط للواحدي، ٢٠/١٦٦.

[٨٨و] وجُوِّز أن تكون[١] ﴿مَا﴾ موصولةً، والاستفهاميّةُ / أقضى لِحَقّ مقام التبرُّءِ عن الدراية. وتكريرُ ﴿لَا﴾ لتذكير النفي المنسحِب إليه وتأكيده. وقُرِئ: "مَا يَفْعَلُ"[٢] على إسناد الفعل إلى ضميره تعالى.

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي: ما أفعل إلّا اتباعَ ما يُوحَى إليّ، على معنى قَصرِ أفعاله عليه السلام على اتّباع الوحي، لا قَصرِ اتّباعه على الوحي كما هو المتسارِع إلى الأفهام، وقد مرّ تحقيقه في سورة الأنعام.[٣] وقُرِئ: "يُوحِي"[٤] على البناء للفاعل، وهو جواب عن اقتراحهم الإخبارَ عمّا لم يُوحَ إليه عليه السلام مِن الغيوب. وقيل: عن استعجال المسلمين أن يتخلّصوا عن أذيّة المشركين. والأوّل هو الأوفَق لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أُنذِركم عقابَ الله تعالى حسبما يوحَى إليّ، ﴿مُّبِينٌ﴾ بيّنُ الإنذار بالمعجزات الباهرة.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ أي: ما يوحَى إليّ مِن القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لا سِحرًا ولا مفترًى كما تزعمون.

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ حال بإضمار "قد" مِن الضمير في الخبر، وُسّطت بين أجزاء الشرط مسارعةً إلى التسجيل عليهم بالكفر، أو عطفٌ على ﴿كَانَ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ [فصلت، ٥٢/٤١]، لكن لا على أنّ نظمه في سِلك الشرط المتردِّد بين الوقوع وعدمه عندهم باعتبارِ حاله في نفسه؛ بل باعتبار حال المعطوف عليه عندهم، فإنّ كفرهم به أمر محقَّق عندهم أيضًا، وإنّما تردّدهم في أنّ ذلك كفر بما مِن عند الله تعالى[٥] أم لا، وكذا الحال في قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وما بعده مِن الفعلَين،

---

١ س: يكون.
٢ قراءة شاذّة، مروية عن زيد بن عليّ وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٥.
٣ الأنعام، ٥٠/٦.
٤ قراءة شاذّة، مروية عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٥.
٥ م - تعالى.

فإنّ الكلّ أمور متحقِّقة عندهم، وإنّما تردّدهم في أنّها شهادة وإيمان بما مِن عند الله تعالى[١] واستكبار منه أو لا.

والمعنى: أخبروني إن كان ذلك في الحقيقة مِن عند الله وكفرتم به وشهد شاهد عظيمُ الشأن مِن بني إسرائيل الواقفِين على شئون الله تعالى وأسرار الوحي بما أوتوا مِن التوراة ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ أي: مثلِ القرآن مِن المعاني المنطوية في التوراة المطابقةِ لِما في القرآن مِن التوحيد والوعد والوعيد وغيرِ ذلك، فإنّها عينُ ما فيه في الحقيقة كما يُعرِب عنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء، ١٩٦/٢٦]، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ[٢] هَٰذَا[٣] لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأعلى، ١٨/٨٧].

والمثليّة باعتبار تأديتها / بعبارات أُخَر، أو على مِثل ما ذُكِر مِن كونه مِن عند الله تعالى، والمثليّة لِما ذُكر. وقيل: "المِثل" صلة. [٨٨ظ]

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ﴾ للدلالة على أنّه سارع إلى الإيمان بالقرآن لِما علِمَ أنّه مِن جنس الوحي الناطق بالحقّ، وهو عبد الله بن سلام، لمّا سمع بمَقدم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المدينةَ أتاه، فنظر إلى وجهه الكريم، فعلم أنّه ليس بوجه كذّاب، وتأمّله فتحقّق أنّه النبيّ المنتظَر، فقال له: «إنّي سائلك عن ثلاثٍ لا يعلمهنّ إلّا نبيّ؛ ما أوّل أشراط الساعة؟ وما أوّل طعام يأكله أهل الجنّة؟ والولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمّه؟»، فقال عليه السلام: «أمّا أوّل أشراط الساعة فنار تحشرهم مِن المشرق إلى المغرب، وأمّا أوّل طعام أهل الجنّة فزيادة كبِد حوتٍ، وأمّا الولد فإن سبَق ماءُ الرجل نزَعه، وإذا سبَق ماءُ المرأة نزعَتْه»، فقال: «أشهد أنّك رسول الله حقًّا»، فقام، ثمّ قال: «يا رسول الله، إنّ اليهود قوم بُهتٌ، وإن علموا بإسلامي قبل أن تسألَهم عنّي بهَتوني عندك»، فجاءت اليهود، فقال لهم النبيّ عليه السلام: «أيّ رجل عبد الله فيكم؟»، فقالوا: «خَيرنا وابن خَيرنا، وسيّدنا وابن سيّدنا، وأعلَمنا وابن أعلَمنا»، قال: «أرأيتم إن أسلَم عبد الله»، قالوا: «أعاذه الله مِن ذلك»، فخرج إليهم عبد الله،

---

١ م - تعالى.

٢ م س ي: وإنّه.

٣ م س ي - هذا.

فقال: «أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أنّ محمّدًا رسول الله»، فقالوا: «شرّنا وابن شرّنا»، وانتقصوه، قال: «هذا ما كنت أخاف يا رسول الله وأحذَر».[1]

قال سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه: «ما سمعت رسول الله عليه السلام يقول لأحد يمشي على الأرض: "إنّه مِن أهل الجنّة" إلّا لعبد الله بن سلام، وفيه نزَل: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾... الآية».[2]

وقيل: الشاهد موسى عليه السلام، وشهادته ما في التوراة مِن بعثة النبيّ عليهما السلام، وبه قال الشعبي.[3]

وقال مسروق: «والله ما نزلت في عبد الله بن سلام، فإنّ آل ﴿حمٓ﴾ نزلت بمكّة، وإنّما أسلَم عبد الله بالمدينة».[4] وأجاب الكلبي بأنّ الآية مدنيّة، وإن كانت السورة مكّيّة.[5]

﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عطفٌ على ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾، وجواب الشرط محذوف.
[٨٩و] والمعنى: أخبروني / إن كان مِن عند الله تعالى[6] وشهِد على ذلك أعلَم بني إسرائيل، فآمن به مِن غير تلعثُم، واستكبرتم عن الإيمان به بعد هذه المرتبة؛ مَن أضلّ منكم؟ بقرينة قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت، ٥٢/٤١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فإنّ عدم الهداية ممّا يُنبئ عن الضلال قطعًا. ووصفهم بالظلم للإشعار بعلّة الحكم، فإنّ تركه تعالى لهدايتهم لظلمهم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾

---

١ مسند أحمد، ١١٣/١٩ (١٢٠٥٦)؛ صحيح البخاري، ١٩/٦ (٤٤٨٠).

٢ صحيح البخاري، ٣٧/٥ (٣٨١٢)؛ صحيح مسلم، ١٩٣٠/٤ (٢٤٨٣).

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ١٠/٩؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٢/٥، مِن غير نسبة إلى الشعبي، ولم أجده عنه، ولعلّه وقع سهو في عبارة المؤلّف، والصواب: وقال الشعبي: قال مسروق... انظر: جامع البيان للطبري، ١٢٥/٢١؛ والكشف والبيان للثعلبي، ١٠/٩؛ واللباب لابن عادل، ٣٨٧/١٧.

٤ جامع البيان للطبري، ١٢٥/٢١؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٠/٩.

٥ تفسير الرازي، ١١/٢٨؛ اللباب لابن عادل، ٣٨٧/١٧.

٦ س – تعالى.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ حكاية لبعضِ آخَر مِن أقاويلهم الباطلةِ في حقّ القرآن العظيم والمؤمنين به، أي: قال كفّارُ مكّة ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: لأجلهم: ﴿لَوْ كَانَ﴾ أي: ما جاء به عليه السلام مِن القرآن والدين ﴿خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾، فإنّ معالي الأمور لا ينالها أيدي الأراذِل، وهم سُقّاط،[1] عامّتهم فقراء ومَوالٍ ورُعاة، قالوه زعمًا منهم أنّ الرياسة الدينيّة ممّا يُنال بأسباب دنيويّة، كما قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف، ٣١/٤٣]، وزلّ عنهم أنّها مَنوطة بكمالات نفسانيّة ومَلَكات روحانيّة، مبناها الإعراض عن زخارف الدنيا الدنيّة، والإقبالُ على الآخرة بالكلّيّة، وأنّ مَن فاز بها فقد حازَها بحذافيرها، ومَن حُرِمَها فما له منها مِن خلاق.

وقيل: قاله بنو عامر وغطفان وأسد وأشجَع لمّا أسلَم جُهَينة ومُزَينة وأسْلَم وغِفار.[2] وقيل: قالَته اليهود حين أسلَم عبد الله بن سلام وأصحابه.[3] ويأباه أنّ السورة مكّيّة لا بدّ حينئذ مِن الالتجاء إلى ادّعاء أنّ الآية نزلت بالمدينة.

﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ﴾ ظرف لمحذوف يدلّ عليه ما قبله، ويترتّب عليه ما بعده، أي: وإذ لم يهتدوا بالقرآن قالوا ما قالوا، ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ غيرَ مُكتَفِينَ بنَفْي خيريّته: ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ كما قالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النحل، ٢٤/١٦]. وقيل:[4] المحذوف "ظهَرَ عِنادهم"، وليس بذاك.

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: ومِن قبل القرآن، وهو خبر لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾. قيل: والجملة حاليّة أو مستأنَفة. وأيًا ما كان / فهي[5] لردّ قولهم: ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾،[6] وإبطالِه، فإنّ كونه مصدِّقًا لكتاب موسى مقرِّر لحقّيّته قطعًا. [٨٩ظ]

---

[1] الساقط والساقطة: اللئيم في حَسَبه ونفسه. وقوم سَقْطَى وسُقّاط. الصحاح للجوهري، «سقط».
[2] الكشّاف للزمخشري، ٣٠٠/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٣/٥.
[3] الكشّاف للزمخشري، ٣٠٠/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٣/٥.
[4] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٣٠٠/٤؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ١١٣/٥.
[5] س ي: فهو.
[6] في الآية السابقة.

﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ حالان مِن ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾، أي: إمامًا يُقتدى به في دين الله تعالى[1] وشرائعِه كما يُقتَدى بالإمام، ورحمةً مِن الله تعالى لِمَن آمَن به وعمِل بموجَبه.

﴿وَهَٰذَا﴾ الذي يقولون في حقّه ما يقولون ﴿كِتَٰبٌ﴾ عظيمُ الشأن ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ أي: لكتاب موسى الذي هو إمام ورحمة، أو لِما بين يديه مِن جميع الكتب الإلهيّة. وقد قُرئ كذلك.[2]

﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ حال مِن ضمير ﴿كِتَٰبٌ﴾ في ﴿مُّصَدِّقٌ﴾، أو مِن نفسه لتخصّصه بالصفة، وعاملُها معنى الإشارة، وعلى الأوّل ﴿مُّصَدِّقٌ﴾. وقيل: مفعول لـ﴿مُّصَدِّقٌ﴾، أي: يصدّق ذا لسانٍ عربي.

﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ متعلّق بـ﴿مُّصَدِّقٌ﴾، وفيه ضمير الكتاب، أو اللهِ، أو الرسولِ عليه السلام. ويؤيّد الأخير القراءة بتاء الخطاب.[3]

﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ في حيّز النصب عطفًا على محلّ ﴿لِّيُنذِرَ﴾. وقيل: في محلّ الرفع على أنّه خبر مبتدأ مضمَر، أي: وهو بُشرى. وقيل: على أنّه عطفٌ على ﴿مُّصَدِّقٌ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ أي: جمعوا بين التوحيد الذي هو خلاصة العِلم، والاستقامةِ في أمور الدين التي هي منتهى العمل. و﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على تراخي رتبة العمل، وتوقّفِ الاعتداد به على التوحيد.

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مِن لُحوق مكروه، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ مِن فوات محبوب. و"الفاء" لتضمّن الاسم معنى الشرط. والمراد بيان دوام نفي الحزن، لا نفيُ دوام الحزن كما يوهمه كون الخبر مضارعًا، وقد مرّ بيانه مرارًا.

---

[1] م - تعالى.

[2] أي: "مُصَدِّقٌ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. معاني القرآن للفرّاء، ٥١/٣.

[3] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧٢/٢.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَـٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤﴾

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر مِن الوصفَين الجليلَين ﴿أَصۡحَـٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال مِن المستكِنّ في ﴿أَصۡحَـٰبُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ﴾ منصوب إمّا بعامل مقدَّر، أي: يُجزَون جزاءً، أو بمعنى ما تقدّم، فإنّ قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَـٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ في معنى: جازَيناهم ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ / مِن الحسنات العلميّة والعمليّة. [٩٠و]

﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَـٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهًا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهًاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهۡرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَـٰلِحًا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٥﴾

﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَـٰنَ﴾ بأن يُحسِن ﴿بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَـٰنًا﴾ وقُرئ: "حُسْنًا"،[١] أي: بأن يفعل بهما حُسْنًا، أي: فِعلًا ذا حُسن، أو كأنّه في ذاته نفس الحُسن لفَرط حُسنه. وقُرئ بضمّ "السين"[٢] أيضًا، وبفتحهما،[٣] أي: بأن يفعل بهما فعلًا حسَنًا، أو وصّيناه إيصاءً حسَنًا.

﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهًا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهًا﴾ أي: ذاتَ كُره، أو حملًا ذا كُره، وهو المشقّة. وقُرئ بالفتح،[٤] وهما لغتان، كـ"الفَقْر" و"الفُقْر". وقيل: المضموم اسم، والمفتوح مصدر.

﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ﴾ أي: مدّة حَمله وفِصاله، وهو الفِطام. وقُرئ: "وَفَصْلُهُ".[٥] و"الفَصل" و"الفِصال" كـ"الفَطْم" و"الفِطام" بناءً ومعنًى، والمراد به الرضاع التامّ

---

[١] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٧٣/٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٥.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ رضي الله عنه والسلمي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٥.

[٤] أي: "كَرْهًا". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وهشام عن ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٤٨/٢.

[٥] قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧٣/٢.

المنتهي به. كما أراد بـ"الأَمَد" المدّةَ مَن قال:

كـلّ حـيّ مسـتـكـمِـلٌ مــدّةَ العمــ ـــر فَـــمُـــودٍ إذا انـتـهـى أمَـــدُهُ[١]

﴿ثَلَٰثُونَ شَهۡرًا﴾ يمضِي عليها بمُعاناة المَشاقّ، ومُقاساة الشدائد لأجله.

وهذا دليل على أنّ أقلّ مدّة الحمل ستّة أشهر لِما أنّه إذا حُطّ عنه للفِصال حولان لقوله تعالى: ﴿حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة، ٢/٢٣٣]، يبقى للحمل ذلك. قيل: ولعلّ تعيينَ أقلّ مدّة الحمل وأكثرِ مدّة الرضاع لانضباطهما، وتحقّقِ ارتباط النسب والرضاع بهما.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي: اكتمل واستحكم قوّته وعقله، ﴿وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾ قيل: لم يُبعث نبيّ قبل أربعين. وقُرئ: "حَتَّى إِذَا اسْتَوَى وَبَلَغَ أَشُدَّهُ".[٢] ﴿قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ﴾ أي: ألهِمْني، وأصلُه: "أَوْلِعْنِي"، مِن "أَوزعتُه بكذا" ﴿أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ أي: نعمةَ الدين، أو ما يعمُّها وغيرَها.

﴿وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾ التنكير للتفخيم والتكثير، ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ أي: واجعل الصلاح ساريًا في ذرّيّتي راسخًا فيهم، كما في قوله:

يَـــجْـــرَحْ فِـــي عَـــراقِـيـبِـهـا نَـصْـلـي[٣]

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما:[٤] «أجاب الله تعالى دعاء أبي بكر رضي الله عنهم،[٥] فأعتق تسعةً مِن المؤمنين منهم بلال وعامر بن فُهَيرة،[٦] ولم يُرِد شيئًا

---

١ بغير نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٢/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٣/٥. و"مُودٍ"، أي: هالك، مِن "أَودى" إذا هلَك، يقول: كلّ حيّ يَستكمل مدّةَ عمره، ويهلَك إذا انتهى عمره. فتوح الغيب للطيبي، ٢٨٧/١٤.

٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٣٠٢/٤.

٣ تمامه:

وإن تَعتذِر بالمَحلِ مِن ذي ضُروعها
على الضيف يَجرحْ في عَراقيبها نَصلي

لذي الرمّة في ديوانه، ١٥٦/١. الضمير في "تَعتذِر" للناقة، و"الباء" في "بالمَحل" للتشبيه، يقال: اعتذر به، والمراد بـ"ذي ضُروعها" اللبَن، "يجرح" متعدّ بنفسه، وقد عُدّي بـ"في" لإجرائه مُجرى اللازم، نحو: فلان يُعطي ويمنع، ثم عومل به معاملة اللازم في تعديته بالجار للمبالغة، أي: مَا أوقَع الجُرح في عَراقيبها وأوجدَه فيها. فتوح الغيب للطيبي، ٣٦/٩.

٤ م - رضي الله عنهما.

٥ س: عنه.

٦ هو عامر بن فُهيرة، أبو عمرو (ت. ٤هـ/٦٢٥م)، مولى أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه. كان مملوكًا «

مِن الخير إلّا أعانه الله تعالى[1] عليه، ودعا أيضًا فقال: ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾، فأجابه الله عزّ وجلّ، فلم يكن له ولد إلّا آمنوا جميعًا، فاجتمع له إسلام أبوَيه وأولاده جميعًا، فأدرك أبوه أبو قُحافة رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم، / وابنُه عبد الرحمن بن أبي بكر[2] وابنُ عبد الرحمن أبو عتيق[3] كلّهم أدركوا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ولم يكن ذلك لأحد مِن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم».[4] [٩٠ظ]

﴿إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ عمّا لا ترضاه، أو عمّا يَشغلني عن ذِكرك، ﴿وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ الذين أخلصوا لك أنفسهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ١٦﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾،[5] والجمعُ لأنّ المراد به الجنس المتّصف بالوصف المحكي عنه، وما فيه مِن معنى البُعد للإشعار بعلوّ رُتبته، وبُعد منزلته، أي: أولئك المَنعوتون بما ذُكر مِن النعوت الجليلة ﴿ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ مِن الطاعات، فإنّ المباح حَسَن لا يثاب عليه، ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾.

﴾ للطفيل بن عبد الله بن سَخبرة، فأسلم، فاشتراه أبو بكر فأعتقه. أسلَم قبل أن يدخل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دار الأرقم، وكان يرعى الغنم في ثَور، يروح بها على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأبي بكر في الغار، وكان رفيقهما في هجرتهما إلى المدينة. شهِد بدرًا وأحُدًا، ثمّ قُتل يوم بئر معونة. عن عُروة قال: «طُلب عامر بن فهيرة يومئذ في القتلى فلم يوجد. فيَروُون أنّ الملائكة دفنته أو رفعته». انظر: **الاستيعاب** لابن عبد البرّ، ٢/٧٩٦؛ **والإصابة** لابن حجر، ٣/٤٨٢.

[1] م – تعالى.

[2] هو عبد الرحمن بن أبي بكر الصدّيق، أبو محمّد (ت. ٥٣هـ/٦٧٣م). حضَر بدرًا مع المشركين، ثمّ إنّه أسلم، وهاجر قُبيل الفتح. وكان أسنّ أولاد الصدّيق، وكان مِن الرماة المذكورين والشجعان. قَتل يومَ اليمامة سبعةً مِن كبارهم، وشهِد وقعة الجمل مع أخته عائشة أمّ المؤمنين. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٢/٤٧٢؛ **والإصابة** لابن حجر، ٤/٢٧٥.

[3] هو محمّد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصدّيق، أبو عتيق. قال ابن حِبّان: «رأى النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم. ومحمّد ومَن فوقه أربعةٌ في نسَق رأَوا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وهم: محمّد، وعبد الرحمن، وأبو بكر، وأبو قُحافة». انظر: **الاستيعاب** لابن عبد البرّ، ٣/١٣٧٤؛ **والإصابة** لابن حجر، ٦/١٩٧.

[4] س ي + أجمعين. | **التفسير الوسيط** للواحدي، ٤/١٠٨؛ **معالم التنزيل** للبغوي، ٧/٢٥٨.

[5] في الآية السابقة.

وقُرئ الفعلان بـ"الياء" على إسنادهما إلى الله عزّ وجلّ،[١] وعلى بنائهما للمفعول، ورفعِ ﴿أَحۡسَنَ﴾ [٢] على أنّه قائم مَقام الفاعل، وكذا الجارّ والمجرور.

﴿فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ أي: كائنين في عِدادهم، منتظمين في سِلكهم. ﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ﴾ مصدر مؤكِّد لِما أنّ قوله تعالى: ﴿نَتَقَبَّلُ﴾ و﴿نَتَجَاوَزُ﴾ وعد مِن الله تعالى لهم بالتفضّل والتجاوز ﴿ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ على ألسنة الرسل عليهم السلام.[٣]

﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٧﴾

﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ﴾ عند دعوتهما له إلى الإيمان: ﴿أُفّٖ لَّكُمَآ﴾ هو صوت يَصدر عن المرء عند تضجّره. و"اللام" لبيان المؤفَّف له، كما في ﴿هَيۡتَ لَكَ﴾ [يوسف، ٢٣/١٢]. وقُرئ: "أُفَّ" بالفتح[٤] والكسر[٥] بغير تنوين، وبالحركات الثلاث مع التنوين.[٦]

والموصول عبارة عن الجنس القائل ذلك القولَ، ولذلك أُخبرَ عنه بالمجموع كما سبق. قيل: هو في الكافر العاقّ لوالديه المكذِّبِ بالبعث. وعن قتادة: «هو نعت عبدٍ سَوءٍ، عاقٍّ لوالديه، فاجرٍ لربّه».[٧]

وما رُوي مِن أنّها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما قبل إسلامه؛[٨] يردّه ما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ الآية.[٩]

---

١ س: تعالى.

٢ أي: "يَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنُ مَا عَمِلُوا وَيَتَجَاوَزُ عَنۡ سَيِّئَاتِهِمۡ". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٧٣/٢.

٣ م - عليهم السلام.

٤ قرأ بها ابن كثير وابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٠٦/٢.

٥ قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٠٧/٢.

٦ أمّا ﴿أُفٍّ﴾ بالجرّ مع التنوين فقرأ بها نافع وأبو جعفر وحفص، وأمّا "أُفًّا" بالنصب مع التنوين فقراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ، وأمّا "أُفٌّ" بالرفع مع التنوين فقراءة شاذّة، حكاها هارون. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٠٧/٢؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٣٧/٧.

٧ جامع البيان للطبري، ١٤٥/٢١؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٠٣/٤.

٨ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٣/٩؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ١٠٨/٤.

٩ في الآية التالية.

فإنّه كان مِن أفاضل المسلمين وسَرَواتهم، وقد كَذَّبَت الصدِّيقةُ رضي الله عنها مَن قال ذلك.[١]

﴿أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ﴾ أُبعَثَ مِن القبر بعد الموت. وقُرئ: "أَخْرُجَ"،[٢] مِن "الخروج". ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي﴾ ولم يُبعث منهم أحد.

﴿وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ يسألانه أن يُغيثه ويوفّقه للإيمان، ﴿وَيۡلَكَ﴾ أي: قائلين له: وَيلَك، وهو في الأصل / دعاء عليه بالثبور أريدَ به الحثّ والتحريض على الإيمان، لا حقيقةُ الهلاك. [٩١و]

﴿ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ أي: البعث، أضافاه إليه تعالى تحقيقًا للحق، وتنبيهًا على خطئه في إسناد الوعد إليهما. وقُرئ: "أَنَّ وَعْدَ اللهِ"،[٣] أي: آمِن بأنّ وعد الله حقّ. ﴿فَيَقُولُ﴾ مُكذِّبًا لهما: ﴿مَا هَٰذَآ﴾ الذي تسمّيانه "وعْدَ الله" ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أباطيلُهم التي سطّروها في الكتب، مِن غير أن يكون لها حقيقةٌ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ١٨﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ القائلون هذه المقالات الباطلة ﴿ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ وهو قوله تعالى لإبليس: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [ص، ٨٥/٣٨]، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾، وقد مرّ تفصيله في سورة ﴿الٓمٓ﴾ السجدة.[٤]

﴿إِنَّهُمۡ﴾ جميعًا ﴿كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ قد ضيّعوا فِطرتهم الأصليّة الجارية مَجرى رءوس أموالهم باتّباع الشيطان. والجملة تعليل للحكم بطريق الاستئناف التحقيقي.

---

١ انظر: صحيح البخاري، ١٣٣/٦ (٤٨٢٧)؛ والمستدرك للحاكم، ٥٢٨/٤ (٨٤٨٣).

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن يعمر ويحيى. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٦.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج وعمرو بن فائدة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٤٢/٩.

٤ السجدة، ١٣/٣٢.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٩﴾

﴿وَلِكُلٍّ﴾ مِن الفريقين المذكورين ﴿دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ مراتبُ مِن أجزيةِ ما عملوا مِن الخير والشرّ. و"الدرجات" غالبة في مراتب المَثوبة، وإيرادها ههنا بطريق التغليب. ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي: أجزيةَ أعمالهم. وقُرئ بنون العظمة.[١]

﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ بنقص ثواب الأوّلين، وزيادة عقاب الآخرين. والجملة إمّا حال مؤكِّدة للتوفية، أو استئناف مقرِّر لها، و"اللام" متعلّقة بمحذوف مؤخَّر، كأنّه قيل: ولِيوفِّيهم أعمالهم ولا يظلمَهم حقوقَهم فعَل ما فعَل مِن تقدير الأجزية على مقادير أعمالهم، فجعل الثواب درجات، والعقابَ دركات.

﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ٢٠﴾

﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: يعذَّبون بها، مِن قولهم: "عُرِضَ الأُسارى على السيف"، أي: قُتِلوا. وقيل: يُعرَض النار عليهم، بطريق القلب مبالغةً.

﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ﴾ أي: يقال لهم ذلك. وهو الناصب للظرف. وقُرئ: "أَأَذۡهَبۡتُمۡ" بهمزتين وبألِف بينهما[٢] على الاستفهام التوبيخي، أي: أَصَبتم وأخذتم / ما كُتب لكم مِن حظوظ الدنيا ولذائذها ﴿فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا﴾ [٩١ظ]
فلم يبقَ لكم بعد ذلك شيء منها.

---

[١] قرأ بها نافع وأبو جعفر وحمزة والكسائي وخَلف وابن عامر بخُلف عن هشام. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٣.

[٢] قرأ بهمزتين مفتوحتين كلٌّ مِن ابن كثير وابن عامر وأبي جعفر ويعقوب، وكلٌّ على أصله في التسهيل والتحقيق، وإدخالِ ألِف بينهما وعدمِه، فابن كثير ورُويس عن يعقوب بتسهيل الهمزة الثانية وإدخال ألِف بينهما، وابن ذكوان عن ابن عامر ورَوح عن يعقوب بتحقيق الهمزتين مع عدم الإدخال، وأبو جعفر بتسهيل الثانية والإدخال، وهشام له ثلاثة أوجه: تسهيل الثانية مع الإدخال، وتحقيق الهمزتين مع الإدخال وعدمه. انظر: النشر لابن الجزري، ١/٣٦٢-٣٦٦.

﴿فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾ أي: الهَوان. وقد قُرئ كذلك.[١] ﴿بِمَا كُنتُمۡ﴾ في الدنيا ﴿تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ بغير استحقاق لذلك، ﴿وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ﴾ أي: تَخرجون مِن طاعة الله عزّ وجلّ، أي: بسبب استكباركم وفِسقكم المستمرَّين. وقُرئ: "تَفۡسِقُونَ" بكسر "السين".[٢]

﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٢١﴾

﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ أي: لكفّار مكّة ﴿أَخَا عَادٍ﴾ أي: هودًا عليه السلام، ﴿إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ﴾ بدل اشتمال منه، أي: وقتَ إنذاره إيّاهم ﴿بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾ جمع "حِقۡف"، وهو رمل مستطيل مرتفِع فيه انحناء، مِن "احقَوقَفَ الشيءُ" إذا اعوَجّ. وكانت عاد أصحاب عَمَدٍ، يسكنون بين رمال مُشرفة على البحر بأرضٍ يقال لها: "الشِّحۡر" مِن بلاد اليمن. وقيل: بَيۡنَ عُمان[٣] ومهرة.

﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾ أي: الرسل، جمع "نذير" بمعنى "المنذِر". ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾ أي: مِن قَبله ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾ أي: مِن بعده. والجملة اعتراض مقرِّر لِما قَبله، مؤكِّد لوجوب العمل بموجَب الإنذار، وُسِّط بين ﴿أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ﴾ وبين قوله: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ مسارعةً إلى ما ذُكر مِن التقرير والتأكيد، وإيذانًا باشتراكهم في العبارة المَحكيّة.

والمعنى: واذكر لقومك إنذارَ هود قومَه عاقبةَ الشرك والعذابَ العظيم، وقد أنذر مَن تقدّمه مِن الرسل ومَن تأخّر عنه قومَهم مثلَ ذلك، فاذكرهم.

وأمّا جعلُها حالًا مِن فاعل ﴿أَنذَرَ﴾ على معنى أنّه عليه السلام أنذرَهم وقال لهم: لا تعبدوا إلّا الله، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾، وقد أَعلَمهم أنّ الرسل الذين بُعِثُوا قبله والذين سيُبعثون بعده كلّهم منذِرون نحوَ إنذاره؛[٤]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وابن وثّاب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٦.

٣ وفي هامش م: خف. | أي: بتخفيف "الميم".

٤ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٠٦/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٥/٥.

فمَعَ ما فيه مِن تكلّف تقدير الإعلام لا بدّ في نسبة الخلوّ إلى مَن بعده مِن الرسل مِن تنزيل الآتي منزلةَ الخالي.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٢﴾

[٩٩٢و] ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا﴾ أي: تَصرِفَنا ﴿عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ عن عبادتها؟ / ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ مِن العذاب العظيم ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في وعدك بنزوله بنا.

﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ۝٢٣﴾

﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ﴾ أي: بوقت نزوله، أو العلمُ بجميع الأشياء التي مِن جملتها ذلك ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وحدَه، لا علمَ لي بوقت نزوله، ولا مدخلَ لي في إتيانه وحُلوله، وإنّما علمه عند الله تعالى، فيأتيكم به في وقته المقدَّر له.

﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾ مِن مَواجب الرسالة التي مِن جملتها بيان نزول العذاب إن لم تنتهوا عن الشرك، مِن غير وقوف على وقت نزوله. وقُرئ: "أبْلِغُكُمْ"[١] مِن "الإبلاغ".

﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ حيث تقترحون عليّ ما ليس مِن وظائف الرسل مِن الإتيان بالعذاب وتعيينِ وقته.

﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٢٥﴾

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ﴾ فصيحة. والضمير إمّا مبهَم يوضّحه قوله تعالى: ﴿عَارِضٗا﴾ إمّا تمييزًا أو حالًا، أو راجع إلى ما استعجلوه بقولهم: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾،[٢] أي: فأتاهم، فلمّا رأوه سحابًا يَعرِض في أفُقِ السماء ﴿مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ﴾ أي: متوجّهَ أوديتهم. والإضافة فيه لفظيّة، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَا﴾، ولذلك وقعا وَصفين للنكرة.

---

[١] قرأ بها أبو عمرو البصري. النشر لابن الجزري، ٢٧٠/٢.

[٢] الأحقاف، ٢٢/٤٦.

﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: قال هود، وقد قُرئ كذلك،[١] وقُرئ: "قُلْ".[٢] وهو رَدّ عليهم، أي: ليس الأمر كذلك؛ بل هو ﴿مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ مِن العذاب، ﴿رِيحٌ﴾ بدل مِن ﴿مَا﴾، أو خبر لمبتدأ محذوف. ﴿فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ صفة لـ﴿رِيحٌ﴾.

وكذا قوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ﴾ أي: تُهلِك ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ مِن نفوسهم وأموالهم ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾. وقُرئ: "يَدْمُرُ كُلُّ شَيْءٍ"[٣] مِن "دَمَرَ دَمارًا" إذا هلَك، فالعائد إلى الموصوف محذوف، أو هو "الهاء" في ﴿رَبِّهَا﴾. ويجوز أن يكون استئنافًا واردًا لبيان أنّ لكلّ ممكنٍ فناءً مَقضيًا مَنوطًا بأمر بارِئِه، ويكون "الهاء" لـ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾، لكونه بمعنى "الأشياء". وفي ذكر "الأمر" و"الربّ" والإضافةِ إلى "الريح" مِن الدلالة على عظَمة شأنه عزّ وجلّ ما لا يخفى.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ / فصيحة، أي: فجاءتهم الريح فدمّرتهم، فأصبحوا بحيث لا يُرى إلّا مساكنُهم. وقُرئ: "تُرَى" بـ"التاء" ونصبِ ﴿مَسَٰكِنَهُمْ﴾[٤] خطابًا لكلّ أحد يَتأتّى منه الرؤية تنبيهًا على أنّ حالهم بحيث لو حضر كلُّ أحدٍ بلادَهم لا يَرى فيها إلّا مساكنَهم. [٩٢ظ]

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الجزاء الفظيع ﴿نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وقد مرّ تفصيل القصّة في سورة الأعراف.[٥]

وقد رُوي أنّ الريح كانت تحمل الفُسطاط والظّعينة، فترفعها[٦] في الجوّ حتّى تُرى كأنّها جرادة.[٧] قيل: أوّل مَن أبصر العذاب امرأة منهم، قالت: «رأيت ريحًا فيها كشُهب النار».[٨]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٦.

٢ أي: "قُلْ بَلْ هُوَ". قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٠٧/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٥/٥.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير وزيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٦.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعمش والجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٦.

٥ الأعراف، ٦٥/٧ وما بعدها.

٦ س: وترفعهما.

٧ جامع البيان للطبري، ١٥٧/٢١؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٧/٩.

٨ جامع البيان للطبري، ٢٦٩/١٠ (الأعراف، ٦٨/٧)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٧/٩.

ورُوي أنّ أوّل ما عرَفوا به أنّه عذاب ما رأوا ما كان في الصحراء مِن رِحالهم ومواشيهم تطير بها الريح بين السماء والأرض، فدخلوا بيوتهم، وغلّقوا أبوابهم، فقلعت الريح الأبواب، وصَرعَتْهم، فأمال الله تعالى الأحقاف، فكانوا تحتها سبعَ ليالٍ وثمانية أيّام لهم أنين، ثمّ كشفت الريحُ عنهم، فاحتملَتْهم فطرحتهم في البحر.[١]

ورُوي أنّ هودًا عليه السلام لمّا أحسّ بالريح خطّ على نفسه وعلى المؤمنين خطًّا إلى جنب عينٍ تَنبَع.[٢]

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «اعتزل هود عليه السلام ومَن معه في حظيرة، ما يصيبهم مِن الريح إلّا ما يلين على الجلود، وتلذّه الأنفس، وإنّها لتَمُرّ مِن عادٍ بالظُّعُن بين السماء والأرض، وتَدمغُهم بالحجارة».[٣]

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ﴾ أي: قرّرنا عادًا، أو أقدرناهم، و﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ موصولة، أو موصوفة، و﴿إِن﴾ نافية، أي: في الذي، أو في شيء ما[٤] مكنّاكم فيه مِن السَّعة والبسطةِ وطولِ الأعمار وسائرِ مبادي التصرّفات، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟[٥] كَمْ[٦] أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم[٧] مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ [الأنعام، ٦/٦]. وممّا يُحسِّن موقع ﴿إِن﴾ ههنا التفصّي عن تكرّر لفظة ﴿مَا﴾، وهو الداعي إلى قلب ألِفها هاءً في "مَهما". وجعلُها شرطيّة أو زائدة[٨] ممّا لا يليق بالمقام.

---

١ **الكشف والبيان للثعلبي**، ١٧/٩؛ **الكشّاف للزمخشري**، ٣٠٧/٤.

٢ **الكشّاف للزمخشري**، ٣٠٨/٤؛ **اللباب لابن عادل**، ٤٠٩/١٧.

٣ **الكشّاف للزمخشري**، ٣٠٨/٤. وأخرجه الدينوري في **المجالسة**، ٢٩/٧، عن وهب.

٤ وفي هامش م: نفي. «منه».

٥ م س ي - ألم يروا.

٦ م س ي: وكم.

٧ م س ي: قبلكم.

٨ انظر: **أنوار التنزيل للبيضاوي**، ١١٦/٥.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ ليستعملوها / فيما خُلِقت هي له، [٩٣و]
ويعرِفوا بكلٍّ منها ما نِيطت به معرفته مِن فنون النِّعم، ويستدلّوا بها على شئون مُنعِمها عزّ وجلّ، ويداوِموا على شُكره.

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ﴾ حيث لم يستعملوه في استماع الوحي ومواعظ الرسل، ﴿وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ حيث لم يجتلوا بها الآيات التكوينيّة المَنصوبة في صحائف العالَم، ﴿وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم﴾ حيث لم يستعملوها في معرفة الله تعالى. ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ أي: شيئًا مِن الإغناء. و﴿مِن﴾ مزيدة للتأكيد.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ متعلّق بـ﴿مَآ أَغْنَىٰ﴾، وهو ظرف جَرى مَجرى التعليل مِن حيث إنّ الحكم مرتَّب على ما أُضيفَ إليه، فإنّ قولك: "أكرَمتُه إذ أكرَمَني" في قوّة قولك: "أكرَمتُه لإكرامه"؛ لأنّك إذا أكرمتَه وقت إكرامه فإنّما أكرمتَه فيه لوجود إكرامه فيه، وكذا الحال في "حيث".

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ مِن العذاب الذي كانوا يستعجلونه بطريق الاستهزاء، ويقولون: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.[١]

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم﴾ يا أهل مكّة ﴿مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ كحِجْر ثمود، وقُرى قومِ لوط. ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾ كرّرناها لهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لكي يرجعوا عمّا هم فيه مِن الكفر والمعاصي.

﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً﴾ القُربان: ما يُتقرَّب به إلى الله تعالى. وأحَدُ مفعولَي ﴿ٱتَّخَذُوا۟﴾ ضميرُ الموصول المحذوف، والثاني ﴿ءَالِهَةً﴾، و﴿قُرْبَانًا﴾ حال، والتقدير: فهلّا نصرَهم وخلّصَهم مِن العذاب الذين اتّخذوهم

---

[١] الأحقاف، ٢٢/٤٦.

آلِهةً حالَ كونها مُتقرَّبًا بها إلى الله تعالى، حيث كانوا يقولون: "إنّما نعبدهم ليقرّبونا إلى الله زُلفى"،[١] و"هؤلاء شفعاؤنا عند الله".[٢] وفيه تهكّم بهم.

ولا مساغَ لجعلِ ﴿قُرْبَانًا﴾ مفعولًا ثانيًا، و﴿ءَالِهَةً﴾ بدلًا منه؛[٣] لفساد المعنى، فإنّ البدلَ وإن كان هو المقصودَ لكنّه لا بدّ في غير بدل الغلط مِن صحّة المعنى بدونه، / ولا ريبَ في أنّ قولنا: "اتّخذوهم مِن دون الله قُربانًا"، أي: مُتقَرَّبًا به؛ [٩٣ظ]
ممّا لا صحّةَ له قطعًا؛ لأنّه تعالى مُتقرَّب إليه، لا مُتقرَّبٌ به، فلا يصحّ أنّهم اتّخذوهم قُربانًا متجاوِزين اللهَ في ذلك. وقُرئ: "قُرُبَانًا" بضمّ "الراء".[٤]

﴿بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ﴾ أي: غابوا عنهم. وفيه تهكّم آخر بهم، كأنّ عدم نَصرهم لغَيبتهم، أو ضاعوا عنهم، أي: ظهَر ضياعهم عنهم بالكلّيّة. وقيل: امتنَع نصرهم امتناعَ نصر الغائب عن المنصور.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي: ضياعُ آلهتهم عنهم، وامتناعُ نُصرتهم ﴿إِفْكُهُمْ﴾ أي: أثرُ إفكهم الذي هو اتّخاذهم إيّاها آلهةً، ونتيجةُ شِركهم.

وقُرئ: "أَفَكُهُمْ"،[٥] وكلاهما مصدر، كـ"الحِذْر" و"الحَذَر". وقُرئ: "أَفَكَهُمْ" على صيغة الماضي،[٦] فذلك إشارة حينئذ إلى الاتّخاذ، أي: وذلك الاتّخاذ الذي هذه ثمرتُه وعاقبتُه صَرَفَهم عن الحقّ. وقُرئ: "أَفَّكَهُمْ" بالتشديد[٧] للمبالغة، و"آفَكَهُمْ"[٨] مِن "الإفعال"، أي: جعلهم آفِكين. وقُرئ: "آفِكُهُمْ"[٩] على صيغة[١٠] الفاعل مضافًا إلى ضميرهم، أي: قولهم الآفِكُ، أي: ذو الإفك، كما يقال: قولٌ كاذب.

---

١ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر، ٣/٣٩].

٢ قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس، ١٨/١٠].

٣ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٦/٥.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٧.

٥ قراءة شاذّة، غير منسوبة، حكاها الفرّاء. انظر: معاني القرآن للفرّاء، ٥٦/٣.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وعكرمة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٧.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عياض. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٧.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن الزبير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٧.

٩ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٧.

١٠ س ي + اسم.

﴿وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ عطفٌ على ﴿إِفْكُهُمْ﴾، أي: وأَثَرُ افترائهم على الله تعالى، أو أثَرُ ما كانوا يفترونه عليه تعالى. وقُرئ: "وَذَلِكَ إِفْكٌ مِمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ"،[١] أي: بعضُ ما كانوا يفترون مِن الإفك.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ٢٩﴾

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أَمَلْناهم إليك، وأقبلنا بهم نَحوَك. وقُرئ: "صَرَّفْنَا" بالتشديد[٢] للتكثير؛ لأنهم جماعة، وهو السرّ في جمع الضمير في قوله تعالى: ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ وما بعده، وهو حال مقدَّرة مِن ﴿نَفَرًا﴾ لتخصُّصه بالصفة، أو صفة أخرى له، أي: واذكر لقومك وقتَ صَرَفنا إليك نفرًا كائنًا مِن الجنّ مُقَدَّرًا استماعُهم القرآن.

﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي: القرآنَ عند تلاوته، أو الرسولَ عند تلاوته له على الالتفات، والأوّل هو الأظهَر. ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: قال بعضهم لبعض: ﴿أَنصِتُواْ﴾ أي: اسكتُوا لنَسمعه.

﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أُتِمَّ وفُرغ عن تلاوته. وقُرئ على البناء للفاعل،[٣] وهو ضمير الرسول عليه السلام، وهذا يؤيّد عودَ ضمير ﴿حَضَرُوهُ﴾ إليه عليه السلام. ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ مقدِّرين إنذارَهم عند رجوعهم إليهم.

رُوي أنّ الجنّ كانت / تَسترِق السمع، فلمّا حُرِست السماء ورُجِموا بالشهُب قالوا: "ما هذا إلّا لِنبأ حدَث"، فنهَض سبعةُ نفرٍ أو تسعةُ نفرٍ مِن أشراف جنّ نُصيبين أو نينوى، منهم زَوبعة، فضربوا حَتّى بلغوا تِهامة، ثمّ اندفعوا إلى وادي نخلة، فوافقوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو قائم في جوف الليل يصلّي، أو في صلاة الفجر، فاستمعوا لقراءته، وذلك عند منصرَفِه مِن الطائف.[٤] [٩٤و]

---

١ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣١٠/٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٧.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن حبيب بن عبد الله بن الزبير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٧.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٣١١/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٦/٥. ونحوه في صحيح البخاري، ١٥٤/١ (٧٧٣)؛ وصحيح مسلم، ٣٣١/١ (٤٤٩).

وعن سعيد بن جبير: «ما قرأ رسول الله عليه السلام[١] على الجنّ ولا رآهم، وإنّما كان يتلو في صلاته، فمرّوا به فوقفوا مستمعين، وهو لا يشعر بهم، فأنبأه الله تعالى باستماعهم».[٢]

وقيل: بل أمره الله تعالى أن يُنذر الجنّ ويقرأ عليهم، فصرف إليهم[٣] نفرًا منهم جمعهم له، فقال عليه السلام: «إنّي أُمِرت أن أقرأ على الجنّ الليلةَ، فمَن يتبعُنِي؟» قالها ثلاثًا، فأطرقوا إلّا عبدَ الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «فانطلقنا حتّى إذا كنّا بأعلى مكّة في شِعْب الحَجُونِ خطّ لي خطًّا، فقال: "لا تخرج منه حتّى أعودَ إليك"، ثمّ افتتح القرآن وسمعتُ لَغَطًا شديدًا حتّى خِفت على رسول الله عليه السلام، وغَشِيَتْه أَسْوِدة كثيرة حالَت بيني وبينه حتّى ما أسمع صوته عليه السلام، ثمّ انقطعوا كقِطع السحاب، فقال لي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "هل رأيت شيئًا؟"، قلت: "نعم، رجالًا سودًا مستثغري[٤] ثيابٍ بيضٍ"، فقال: "أولئك جنُّ نصيبين، وكانُوا اثني عشر ألفًا"».[٥] والسورة التي قرأها عليهم: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العلق، ١/٩٦].[٦]

﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٠﴾

﴿قَالُواْ﴾ أي: عند رجوعهم إلى قومهم: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾ قيل: قالوه لأنّهم كانوا على اليهوديّة.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «إنّ الجنّ لم تكن سمعت بأمر عيسى عليه السلام».[٧]

---

١ س: صلّى الله عليه وسلّم.
٢ الكشّاف للزمخشري، ٣١١/٤. وهو بنحوه في صحيح مسلم، ٣٣١/١ (٤٤٩)، عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس رضي الله عنهما.
٣ كذا في الأصول الخطّيّة، وفي الكشّاف للزمخشري، ٣١١/٤: "فصرف إليه"، وهو الصواب.
٤ وفي هامش م: الاستثغار: أن يُدخل الرجل ثوبه بين رِجليه كما يفعل الكلب بذنَبه. «منه».
٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٠/٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٣١١/٤. وانظر: جامع البيان للطبري، ١٦٨/٢١.
٦ الكشّاف للزمخشري، ٣١٢/٤.
٧ الكشّاف للزمخشري، ٣١٢/٤. وقال أبو حيّان: «وهذا لا يصحّ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، كيف لا تسمع بأمر عيسى وله أمّة عظيمة لا تنحصر على ملّته؟ فيبعد عن الجنّ كونهم لم يسمعوا به». البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٥٠/٩.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أرادوا به التوراةَ، ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ مِن العقائد الصحيحة، ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ مُوصِلٍ إليه، وهو الشرائع والأعمال الصالحة.

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ أرادوا به ما سمعوه مِن الكتاب، وصفوه بالدعوة إلى الله تعالى بعد ما وصفوه بالهداية إلى الحقّ والصراط المستقيم لتلازمهما. دعَوهم إلى ذلك بعد بيان حقّيّته واستقامته / ترغيبًا لهم [٩٤ظ] في الإجابة، ثمّ أكّدوه بقولهم: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: بعضَ ذنوبكم، وهو ما كان في خالِص حقّ الله تعالى، فإنّ حقوق العباد لا تُغفَر بالإيمان. ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ مُعَدٍّ للكفَرة. واختُلف في أنّ لهم أجرًا غيرَ هذا أو لا، والأظهَر أنّهم في حكم بني آدم ثوابًا وعقابًا.

﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إيجاب للإجابة بطريق الترهيب إثْرَ إيجابها بطريق الترغيب، وتحقيقٌ لكونهم منذرين. وإظهار داعي الله مِن غير اكتفاءٍ بأحد الضميرين[١] للمبالغة في الإيجاب بزيادة التقرير وتربية المهابة وإدخال الروعة. وتقييد الإعجاز بكونه في الأرض لتوسيع الدائرة، أي: فليس بمعجزٍ له تعالى بالهرَب، وإن هرَب كلَّ مَهرَب[٢] مِن أقطارها، أو دخَل في أعماقها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ بيان لاستحالة نجاته بواسطة الغير إثْرَ بيان استحالة نَجاته بنفسه. وجمع "الأولياء" باعتبار معنى ﴿مَن﴾، فيكون مِن باب مقابلة الجمع بالجمع لانقسام الآحاد إلى الآحاد، كما أنّ الجمع

---

١ وفي هامش م: أي: ضمير الداعي وضمير الجلالة، بأن يقال: ومَن لا يُجبْه، أو ومَن لا يجب داعيَه. «منه».

٢ س – كلّ مهرب.

في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ بذلك الاعتبار. أي: أولئك الموصوفون بعدم إجابة داعي الله ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: ظاهرِ كونه ضلالًا بحيث لا يخفى على أحدٍ، حيث أعرضوا عن إجابة مَن هذا شأنه.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ٣٣﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ "الهمزة" للإنكار، و"الواو" للعطف على مقدَّر يستدعيه المقام، والرؤيةُ قلبيّة، أي: ألم يتفكّروا ولم يعلموا عِلمًا جازمًا مُتاخِمًا للمشاهدة والعيان ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ابتداءً مِن غير مثالٍ يَحتذيه، ولا قانونٍ ينتحيه ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ أي: لم يتعب ولم ينصَب بذلك أصلًا، أو لم يعجز عنه، يقال: "عَيِيتُ بالأمر" إذا لم تَعرِف وجهَه.

وقوله تعالى: ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ في حيّز الرفع؛ لأنّه خبر ﴿أَنَّ﴾، كما يُنبئ عنه القراءة بغير باء.[1] ووجه دخولها في القراءة الأولى اشتمال النفي الوارد في صدر الآية على ﴿أَنَّ﴾ وما في حيّزها، كأنّه قيل: أوليس الله بقادر ﴿عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، [٩٥و] ولذلك أجيبَ عنه بقوله تعالى: / ﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾ تقريرًا للقدرة على وجه عامّ يكون كالبرهان على المقصود.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ٣٤﴾

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ ظرفٌ عاملُه قولٌ مضمَر، مقولُه: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ على أنّ الإشارة إلى ما يشاهدونه حينئذ مِن حيث هو مِن غير أن يخطر بالبال لفظ يدلّ عليه، فضلًا عن تذكيره وتأنيثه؛ إذ هو اللائق بتهويله وتفخيمه، وقد مرّ في سورة الأحزاب.[2] وقيل: هي إلى "العذاب".

---

[1] أي: "قادر". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. الكشّاف للزمخشري، ٣١٣/٤. وقرأ يعقوب: "يَقدِرُ". النشر لابن الجزري، ٣٥٥/٢.

[2] الأحزاب، ٢٢/٣٣.

وفيه تهكّم بهم، وتوبيخ لهم على استهزائهم بوعد الله ووعيده، وقولِهم: "وما نحن بمُعذّبين".

﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أكّدوا جوابهم بالقسَم، كأنّهم يطمعون في الخلاص بالاعتراف بحقّيتها كما في الدنيا، وأنّى لهم ذلك. ﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بها في الدنيا. ومعنى الأمرِ الإهانةُ بهم والتوبيخُ لهم.

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭۚ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ٣٥﴾

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ جواب شرط محذوف، أي: إذا كان عاقبة أمر الكفرة ما ذُكر فاصبر على ما يصيبك مِن جهتهم كما صبَر أولو الثبات والحَزم مِن الرسل، فإنّك مِن جُملتهم؛ بل مِن عِلْيَتهم، و﴿مِن﴾ للتبيين. وقيل: للتبعيض. والمراد بـ"أولي العزم" أصحابُ الشرائع الذين اجتهدوا في تأسيسها وتقريرها، وصبَروا على تحمّل مشاقِّها، ومُعاداةِ الطاعنين فيها. ومشاهيرهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى.

وقيل: هم الصابرون على بلاء الله، كنوح صبَرَ على أذيّة قومه، كانوا يضربونه حتّى يُغشى عليه، وإبراهيمَ صبَرَ على النار وعلى ذبح ولَده، والذبيح على الذبح، ويعقوب على فقد الولد والبصر، ويوسف على الجُبّ والسجن، وأيّوب على الضرّ، وموسى قال له قومه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء، ٦١/٢٦-٦٢]، وداود بكى على خطيئته أربعين سنةً، وعيسى لم يضع لَبِنةً على لَبِنة صلوات الله تعالى[١] عليهم أجمعين.

﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أي: لكفّار مكّة بالعذاب، فإنّه على شَرَف النزول بهم، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ مِن العذاب ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً﴾ يسيرةً ﴿مِّن نَّهَارٍ﴾ لِما يشاهدون مِن شدّة العذاب، وطولِ مدّته.

---

[١] م - تعالى.

[٩٥ظ] وقوله تعالى: ﴿بَلَٰغٌ﴾ / خبر مبتدإٍ محذوف، أي: هذا الذي وُعِظتم به كفاية في الموعظة، أو تبليغٌ مِن الرسول، ويؤيّده أنّه قُرئ: "بَلِّغْ".[١] وقُرئ: "بَلَاغًا"،[٢] أي: بُلِّغوا بلاغًا.

﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: الخارِجون عن الاتّعاظ أو عن الطاعة. وقُرئ بفتح "الياء" وكسر "اللام"،[٣] وبفتحهما،[٤] مِن "هَلَكَ" و"هَلِكَ"، وبنون العظمة، مِن "الإهلاك"، ونصبِ ﴿ٱلْقَوْمُ﴾ ووصفِه.[٥]

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الأحقاف كُتب له عشر حسنات بعدد كلّ رَملة في الدنيا».[٦]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي مجلز وأبي سراج المدني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٨.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والثقفي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٨.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن محَيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٨.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن محَيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٨.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٨.

٦ الكشف والبيان للثعلبي، ٩/٥؛ التفسير الوسيط للواحدي، ١٠٢/٤. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سُورَةُ الأَحْقَافِ

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير أنها نزلت بمكة[1]، فأطلق غيرُ واحد القولَ بمكِّيتها من غير استثناء، واستثنى بعضُهم قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ الآية [١٠]، فقد أخرج الطبراني بسند صحيح عن عوف بن مالك الأشجعي أنها نزلت بالمدينة في قصة إسلام عبد الله بن سلام[2]، ورُوي ذلك عن محمد بن سيرين.

وفي «الدر المنثور»: أخرج البخاري ومسلم والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: ما سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض: إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلَام، وفيه نزلت (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ)[3].

وفي نزولها فيه رضي الله عنه أخبارٌ كثيرة. وظاهر ذلك أنها مدنية لأنَّ إسلامَه فيها، بل في الأخبار ما يدلُّ على مدنيَّتها من وجه آخر، وعكرمةُ يُنكر نزولها فيه ويقول: هي مكية؛ كما أخرج عبد بن حُميد وابن المنذر عنه[4]، وكذا مسروق، فقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه أنه قال في الآية: واللهِ ما نزلت في عبد الله بن سلَام،

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٧.

(٢) المعجم الكبير ١٨/ ٤٦ (٨٣)، وسيأتي بتمامه في تفسير الآية (١٠) وسنذكر ثمة تخريجه.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٩، وصحيح البخاري (٣٨١٢)، وصحيح مسلم (٢٤٨٣)، وسنن النسائي الكبرى (٨١٩٥)، وتفسير الطبري ٢١/ ١٢٦، وليس عند مسلم والنسائي أن الآية نزلت فيه. وينظر فتح الباري ٧/ ١٣٠.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٣٩.

ما نزلت إلا بمكة، وإنما كان إسلام ابن سلام بالمدينة، وإنما كانت خصومة خاصم بها محمدٌ ﷺ(١).

واستثنى بعضهم: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ﴾ الآيتين [١٧ و١٨]. وزعم مروان ـ مَن لعن رسولُ الله ﷺ أباه وهو في صُلبه ـ أنهما نزلتا في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما، فكذَّبته عائشة وقالت: كذب مروان ـ مرتين ـ والله ما هو به، ولو شئتُ أن أسمِّي الذي أُنزلت فيه لَسمَّيته، ولكن رسول الله ﷺ لعن أبا مروان ومروانُ في صُلبه، فمروان فضض ـ أي: قطعة ـ مِن لعنة الله تعالى(٢).

وفي رواية أنها قالت: إنما نزلت في فلان بن فلان. وسمَّت رجلًا آخر(٣).

واستثنى آخرُ: (وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ) الآيات الأربع كما حكاه في «جمال القُرَّاء»، وحَكَى أيضًا استثناء: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ﴾ الآية [٣٥](٤)، ونقله في «البحر» عن ابن عباس وقتادة، وكذا نقل فيه عنهما استثناء: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ﴾ إلخ [الآية: ١٠](٥). وتمام الكلام في ذلك سيأتي إن شاء الله تعالى.

وآيها خمسٌ وثلاثون في الكوفي، وأربعٌ وثلاثون في غيره، والاختلاف في «حم». وتُسمَّى لمجاوزتها الثلاثين: ثلاثين؛ أخرج أحمد بسند جيِّد عن ابن عباس(٦) قال: أقرأني رسولُ الله ﷺ سورةً من آل «حم»، وهي «الأحقاف»، وكانت السورةُ إذا كانت أكثرَ من ثلاثين آية سُمِّيت ثلاثين.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٩، وتفسير الطبري ٢١/ ١٢٥.
(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٤٢٧).
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه كما في الدر المنثور ٦/ ٤١.
(٤) جمال القرَّاء ١/ ١٣٩، وليس فيه استثناء «ووصينا الإنسان» الآيات الأربع، لكن المصنف نقل كلامه من الإتقان ١/ ٥٠، وفهم من عبارته أنه محكيٌّ في جمال القراء. وعبارة الإتقان هي: واستثنى بعضهم «ووصينا الإنسان...» الآيات الأربع. وقوله: «فاصبر كما صبر أولو العزم...» الآية، حكاه في جمال القراء.
(٥) البحر المحيط ٨/ ٥٤.
(٦) كذا في الأصل و(م): ابن عباس، والصواب: ابن مسعود، والحديث في مسند أحمد (٣٩٨١).

وروي أن رسول الله ﷺ قرأها على وجهين، أخرج ابن الضُّريس والحاكم - وصحَّحه - عن ابن مسعود قال: أقْرأني رسول الله ﷺ سورةَ الأحقاف، فسمعت رجلاً يقرؤها خلافَ ذلك، فقلت: مَنْ أقرأكها؟ قال: رسولُ الله ﷺ. فقلت: واللهِ لقد أقرأني رسول الله ﷺ غيرَ ذا. فأتينا رسولَ الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، ألم تُقرئني كذا وكذا؟ قال: «بلى»، فقال الآخر: ألم تُقرئني كذا وكذا؟ قال: «بلى»، فتمعَّر وجهُ رسول الله ﷺ، فقال: «ليقرأ كلٌّ واحد منكما ما سمع، فإنما هلك مَنْ قبلَكم بالاختلاف»(1). وأنت تعلم أن ما تواتر هو القرآن.

ووجهُ اتصالها أنه تعالى لما ختم السورة التي قبلها بذكر التوحيد وذمِّ أهل الشِّرك والوعيد افتتح هذه بالتوحيد، ثم بالتوبيخ لأهل الكفر من العبيد، فقال عز وجل:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ الكلامُ فيه كالذي تقدَّم في مطلع السورة السابقة ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ بما فيهما من حيث الجُزئية منهما ومن حيث الاستقرار فيهما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ من المخلوقات ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ استثناءٌ مفرَّغ. من أعمِّ المفاعيل، أي: إلا خلقًا مُلتبسًا بالحقِّ الذي تقتضيه الحِكمة التكوينية والتشريعة، وفيه من الدلالة على وجود الصانع وصفات كماله وابتناء أفعاله على حِكم بالغة وانتهائها إلى غايات جليلة ما لا يخفى.

وجوِّز كونه مفرَّغًا من أعمِّ الأحوال من فاعل «خلقنا» أو من مفعوله، أي: ما خلقناها في حال من الأحوال إلا حال ملابستنا بالحقّ، أو حال مُلابستها به.

﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ عطف على «الحقِّ» بتقدير مضاف، أي: وبتقدير أجل مسمًّى، وقُدِّر لأن الخَلْق إنما يلتبس به لا بالأجل نفسه. والمراد بهذا الأجل - كما قال ابن عباس - يومُ القيامة، فإنه ينتهي إليه أمورُ الكل، وتبدَّل فيه الأرض غيرَ الأرض

(1) الدر المنثور ٦/ ٣٧، والمستدرك ٢/ ٢٢٣، وأخرجه أيضاً أحمد (٤٣٢٢)، وأصله عند البخاري (٢٤١٠).

والسماوات، وبرزوا لله الواحد القهار. وقيل: مُدَّة البقاء المقدَّر لكلٍّ واحد.

ويؤيِّد الأول قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ فإنَّ ما أُنذروه يومُ القيامة وما فيه من الطامَّة التامَّة والأهوال العامة، لا آخر أعمارهم.

وجُوِّز كون «ما» مصدرية، أي: عن إنذارهم بذلك الوقت، على إضافة المصدر إلى مفعوله الأول القائم مقام الفاعل، والجملة حالية، أي: ما خلقنا الخَلْق إلا بالحقِّ وتقدير الأجل الذي يُجازَوْنَ عنده، والحال أنهم غير مؤمنين به، مُعرضون عنه، غيرُ مستعدِّين لحلوله.

﴿قُلْ﴾ توبيخًا لهم وتبكيتًا: ﴿أَرَءَيْتُم﴾ أخبروني، وقرئ: «أرأيتكم»[1] ﴿مَّا تَدْعُونَ﴾ ما تعبدون ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام، أو جميع المعبودات الباطلة، ولعله الأظهر، والموصول مفعول أول لـ «أرأيتم»، وقوله تعالى: ﴿أَرُونِي﴾ تأكيدٌ له، فإنه بمعنى: أخبروني، أيضًا.

وقوله تعالى: ﴿مَاذَا خَلَقُوا﴾ جُوِّز فيه أن تكون «ما» اسم استفهام مفعولًا مقدَّمًا لـ «خلقوا»، و«ذا» زائدة، وأن تكون «ماذا» اسمًا واحدًا مفعولًا مقدَّمًا، أي: أيَّ شيء خلقوا، وأن تكون اسم استفهام مبتدأ أو خبرًا مقدَّمًا، و«ذا» اسم موصول خبرًا أو مبتدأ مؤخَّرًا، وجملة «خلقوا» صلة الموصول، أي: ما الذي خلقوه، وعلى الأولين جملة «خلقوا» مفعولٌ ثانٍ لـ «أرأيتم»، وعلى ما بعدهما جملة «ماذا خلقوا».

وجوِّز أن يكون الكلام من باب الإعمال، وقد أعمل الثاني وحذف مفعولُ الأول، واختاره أبو حيان[2].

وقيل: يحتمل أن يكون «أروني» بدل اشتمال من «أرأيتم».

وقال ابن عطية[3]: يحتمل «أرأيتم» وجهين: كونها متعدِّية و«ما» مفعولًا لها.

---

(١) ذكرها الفراء في معاني القرآن ٣/ ٤٩، وأبو السعود في تفسيره ٨/ ٧٧.
(٢) النهر الماد (بهامش البحر المحيط) ٨/ ٥٤.
(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٩١.

وكونها منبهة لا تتعدَّى و«ما» استفهامية على معنى التوبيخ. وهذا الثاني قاله الأخفش[١] في ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ [الكهف: ٦٣].

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ تفسيرٌ للمبهم في «ماذا خلقوا»، قيل: والظاهرُ أن المرادَ: من أجزاء الأرض وبقعها، وجُوِّز أن يكون المرادُ ما على وجهها من حيوان وغيره بتقدير مضاف يُؤدِّي ذلك، ويجوز أن يُرادَ بالأرض السُّفليات مطلقًا، ولعله أولى.

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ أي: شركةٌ مع الله سبحانه ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: في خَلْقها، ولعل الأولى فيها أيضًا أن تُفسَّر بالعلويات. و«أم» جُوِّز أن تكون منقطعةً وأن تكون مُتَّصلة، والمرادُ نفي استحقاق آلهتهم للمعبودية على أتمِّ وجه، فقد نفى أولًا مدخليَّتها في خَلْق شيء من أجزاءِ العالم السُّفلي حقيقةً واستقلالًا، وثانيًا مدخليَّتها على سبيل الشَّرِكة في خَلْق شيء من أجزاء العالم العُلوي، ومن المعلوم أن نفي ذلك يستلزم نفيَ استحقاق المعبودية. وتخصيصُ الشركة في النظم الجليل بقوله سبحانه: «في السموات» مع أنه لا شركةَ فيها وفي الأرض أيضًا؛ لأنَّ القصدَ إلزامهم بما هو مسلَّم لهم ظاهرٌ لكلِّ أحدٍ، والشركة في الحوادث السفلية ليست كذلك، لتملُّكهم وإيجادهم لبعضها بحسب الصورة الظاهرة.

وقيل: الأظهر أن تُجعل الآية مِن حَذْف معادل «أم» المتصلة لوجود دليله، والتقدير: ألهم شِرْكٌ في الأرض، أم لهم شِرْك في السماوات. وهو كما ترى.

وقوله تعالى: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ﴾ إلى آخره تبكيتٌ لهم بتعجيزهم عن الإتيان بسندٍ نقليٍّ، بعد تبكيتهم بالتعجيز عن الإتيان بسندٍ عقليٍّ، فهو من جملة القول، أي: ائتوني بكتابٍ إلهيٍّ كائنٍ ﴿مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ الكتاب، أي: القرآن الناطق بالتوحيد وإبطال الشِّرك، دالّ على صحّة دينكم ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي: بقيةٍ من عِلم بقيت عليكم من علوم الأوَّلين شاهدةٍ باستحقاقهم العبادة، فالأثارة مصدرٌ كالضلالة بمعنى البقيَّة؛ من قولهم: سَمِنت الناقة على أثارة من لحم، أي: بقيَّة منه.

---

(١) كما في البحر المحيط ٨/ ٥٤، وعنه نقل المصنف.

وقال القُرظي(١): هي بمعنى الإسناد والرواية؛ ومنه قول الأعشى:

إن الـذي فـيـه تـمـارَيْـتُـمـا بُـيِّـن لـلـسـامـع والآثـر(٢)

وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن وقتادة: المعنى: أو خاصَّة من عِلم، فاشتقاقها من الأثرة، فكأنها قد آثر اللهُ تعالى بها مَن هي عنده. وقيل: هي العلامة. وأخرج أحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ: «أو أثارة من علم»، قال: الخطّ»(٣)، ورُوي ذلك أيضًا موقوفًا على ابن عباس(٤)، وفُسِّر بعِلْم الرَّمل، كما في حديث أبي هريرة مرفوعًا: «كان نبيٌّ من الأنبياء يخطُّ، فمن صادفَ مثل خَطِّه عَلِم»(٥)، وفي رواية عن الحِبر أنه قال: «أو أثارة من علم» خطٌّ كان يخطُّه العرب في الأرض(٦). وهذا ظاهرٌ في تقوية أمرِ علم الرَّمل، وأنه شيء له وجهٌ، ويُرشِد إلى بعض الأمور، وفي ذلك كلام يُطلب من محلِّه.

وفي «البحر»: قيل: إنْ صحَّ تفسيرُ ابن عباس الأثارة بالخطِّ في التراب كان ذلك من باب التهكُّم بهم وبأقوالهم ودلائلهم(٧).

والتنوين للتقليل، و«من علم» صفة، أي: أو ائتوني بأثارة قليلةٍ كائنة مِن علم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤﴾ في دعواكم، فإنها لا تكادُ تصحُّ ما لم يقم عليها برهان عقليٌّ، أو دليل نقليٌّ، وحيث لم يَقُمْ عليها شيء منهما وقد قاما على خلافها تبيَّن بطلانها.

---

(١) في الأصل و(م): القرطبي، وهو تحريف، والمثبت من المحرر الوجيز ٥/ ٩٢، وتفسير القرطبي ١٩/ ١٨٠.
(٢) ديوان الأعشى ص١٩١، والخزانة ٣/ ٤٠٠.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٧، ومسند أحمد (١٩٩٢)، ومعجم الطبراني الكبير (١٠٧٢٥).
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٥٤.
(٥) أخرجه عبد بن حُميد وابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ٣٨، وأخرجه أحمد (٢٣٧٦٢)، ومسلم (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي ﷺ بلفظ: «كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطَّه فذاك» وهو قطعة من حديث طويل.
(٦) أخرجه الطبري ٢١/ ١١٣.
(٧) البحر المحيط ٨/ ٥٥.

وقرئ: «إثارة» بكسر الهمزة[1]، وفُسِّرت بالمناظرة، فإنها تُثير المعاني. قيل: وذلك من باب الاستعارة على تشبيه ما يبرزُ ويتحقَّق بالمناظرة بما يثور من الغبار الثائر من حركات الفُرسان.

وقرأ عليٌّ وابن عباس ﵃ ـ بخلاف عنهما ـ وزيد بن عليٍّ وعكرمة وقتادة والحسن والسلمي والأعمش وعمرو بن ميمون: «أَثَرَةٍ» بغير ألف[2]، وهي واحدة جمعها أَثَر، كقَتَرة وقَتَر. وعليٌّ كرم الله تعالى وجهه والسُّلمي وقتادة أيضًا بإسكان الثاء[3]، وهي الفَعْلة الواحدة مما يُؤثر، أي: قد قنعتُ منكم بخبر واحدٍ أو أثر واحد يشهدُ بصحَّة قولكم.

وعن الكسائي ضمُّ الهمزة وإسكان الثاء[4]، فهي اسمٌ للمقدار، كالغُرفة لما يُغرف باليد، أي: ائتوني بشيء ما يؤثر من عِلْم. ورُوي عنه أيضًا أنه قرأ: «إِثْرة» بكسر الهمزة وسكون الثاء[5]، وهي بمعنى الأَثَرة بفتحتين.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ﴾ إنكارٌ لأنْ يكون [أحدٌ][6] أضلَّ من المشركين، وذكر بعضُ الفُضلاء أن المرادَ نفيُ أن يكون أحدٌ يُساويهم في الضلالة، وإن كان سبكُ التركيب لنفي الأضلّ، وقد مرَّ ما يتعلَّق بذلك فتذكَّر، أي: هو أضلُّ مِنْ كلِّ ضالّ حيث تركَ دعاءَ المجيب القادرِ المستجمع لجميع صفات الكمال كما يُشعر بذلك الاسم الجليل، ودعا مَنْ ليس شأنُه الاستجابة له وإسعافه بمطلوبه.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: ما دامت الدنيا، وظاهره أنه بعدَها تقع الاستجابة، وليس بمراد، لتحقُّق ما يدلُّ على خلافه، فهذه الغاية على ما في «الانتصاف»[7] من الغايات المُشعرة بأنَّ ما بعدها وإن وافقَ ما قبلها إلا أنه أَزْيَدُ منه زيادةً بيِّنةً تُلحقه

---

(١) ذكرها أبو السعود في تفسيره ٨/ ٧٨.
(٢) القراءات الشاذة ص١٣٩، والمحتسب ٢/ ٢٦٤، والبحر المحيط ٨/ ٥٥.
(٣) المحتسب ٢/ ٢٦٤، والبحر المحيط ٨/ ٥٥.
(٤) القراءات الشاذة ص١٣٩، والبحر ٨/ ٥٥.
(٥) المصدر السابق.
(٦) ما بين حاصرتين من تفسير البيضاوي ٨/ ٢٦.
(٧) الانتصاف (بهامش الكشاف) ٣/ ٥١٥.

بالمباين، حتى كأنَّ الحالتين ـ وإن كانتا نوعًا واحداً ـ لتفاوت ما بينهما كالشيء وضدِّه، وذلك أن الحالةَ الأُولى التي جُعلت غايتها القيامة لا تزيدُ على عدم الاستجابة، والحالة الثانية التي في القيامة زادتْ على عدمِ الاستجابة بالعداوة وبالكُفر بعبادتهم إياهم كما يَنطِقُ به ما بعدُ، فهو من وادي قوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ الآية [٢٩]، ونحوه قوله سبحانه في إبليس: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [ص: ٧٨].

وقد يقال: المرادُ بهذه الغاية التأبيد، كما قيل في قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [هود: ١٠٧] وقولهم: مادام ثبير.

وقال بعضهم: لا إشكال في الآية؛ لأن الغايةَ مفهومٌ فلا تُعارض المنطوق. وفيه بحث، ففي «الدرر»[١] و«الينبوع» عن «البديع»[٢] أن الغاية عندنا من قَبيل إشارة النَّصِّ لا المفهوم.

وقال الزركشي في «شرح جمع الجوامع»: ذهب القاضي أبو بكر إلى أن الحكم في الغاية منطوق، وادَّعى أن أهل اللغة صرَّحوا بأن تعليقَ الحُكم بالغاية موضوع على أن ما بعدَها خلافُ ما قبلها، لأنهم اتفقوا على أنها ليست كلامًا مستقلًّا، فإن قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠] وقوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] لا بد فيه من إضمار لضرورة تتميم الكلام؛ وذلك أن المضمر إما ضدّ ما قبله أَوْ لا، والثاني باطل؛ لأنه ليس في الكلام ما يدلُّ عليه، فيقدَّر: حتى يَطْهُرنَ فاقربوهنَّ، حتى تنكح زوجًا غيره فتحلّ، قال: والمضمر بمنزلة الملفوظ، فإنه إنما يضمر لسبقه إلى ذهن العارف باللسان، وعليه جرى صاحب «البديع» من الحنفية فقال: هو عندنا من دلالة الإشارة لا من المفهوم، لكن الجمهور على أنه مفهوم، ومنعوا وضع اللغة لذلك[٣]. انتهى.

---

(١) لعله: الدرر اللوامع شرح جمع الجوامع، لمؤلفه: أحمد بن إسماعيل الكوراني الشافعي، المتوفى سنة (٨٩٣هـ). كشف الظنون ١/ ٥٩٦.

(٢) هو كتاب بديع النظام الجامع بين البزدوي والإحكام في أصول الفقه، لمؤلفه: أحمد بن علي بن ثعلب المعروف بابن الساعاتي. المتوفى سنة (٦٩٤هـ). كشف الظنون ١/ ٢٣٥.

(٣) تشنيف المسامع شرح جمع الجوامع ١/ ٣٦٩، والمصنِّف نقله عنه بواسطة الشهاب ٨/ ٢٧.

ويُعلم من هذا أن قوله في «التلويح»[١]: إنَّ مفهوم الغاية متفقٌ عليه، لا يخلو من الخلل.

﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ﴾ الضمير الأول لمفعول «يدعوا» أعني «من لا يستجيب»، والثاني لفاعله، والجمع فيهما باعتبار معنى «من» كما أن الإفراد فيما سبق باعتبار لفظها، أي: والذين يدعون مَن لا يستجيبون لهم [وهم][٢] عن دعائهم إياهم ﴿غَٰفِلُونَ ۝٥﴾ لا يسمعون ولا يَدْرون، أمَّا إن كان المدعوُّ جمادًا فظاهر، وأما إنْ كان مِن ذوي العقول؛ فإن كان من المقبولين المقرَّبين عند الله تعالى فلاشتغاله عن ذلك بما هو فيه من الخير، أو كونه في محلٍّ ليس من شأن الذي فيه أن يسمع دعاء الداعي للبعد، كعيسى عليه الصلاة والسلام اليومَ، أو لأنَّ الله تعالى يصون سمعه عن سماع ذلك، لأنه ـ لكونه مما لا يُرضي اللهَ تعالى ـ يُؤلمه لو سمعه. وإن كان من أعداء الله تعالى كشياطين الجِنِّ والإنس الذين عُبدوا من دون الله تعالى، فإن كان ميتًا فلاشتغاله بما هو فيه من الشرّ، وقيل: لأن الميت ليس من شأنه السماع، ولا يتحقَّق منه سماع إلا معجزةً، كسماع أهل القَلِيب، وفي هذا كلام تقدَّم بعضه. وإن كان حيًّا؛ فإن كان بعيدًا مثلًا فالأمر ظاهرٌ، وإن كان قريبًا سليم الحاسَّة، فقيل: الكلام بالنسبة إليه بعد تأويل الغفلة بعدم السماع وعلى التغليب لِنُدرة هذا الصنف.

ومن الناس من أوَّل الغفلة بعدم الفائدة، وتُعقِّب بأنه حينئذ لا يكون لوصفهم بالغَفْلة بعد وصفهم بعدم الاستجابة كثيرُ فائدة.

واعتبر بعضُهم التغليب من غير تأويلٍ، بمعنى أنه غُلِّب مَن يتصوَّر منه الغفلة حقيقةً على غيره، وهذا كالتغليب في التعبير عن تلك الآلهة بما هو موضوعٌ لأن يستعمل في العُقلاء.

وإن كانت الآيةُ في عَبَدة الأصنام ونحوها مما لا يعقل تجوّز في الغفلة، وكأنَّ التعبير بما هو للعاقل لإجراء العبدة إيَّاها مُجرى العُقلاء.

---

(١) هو كتاب التلويح شرح التوضيح لمتن التنقيح لسعد الدين التفتازاني، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في حاشيته ٨/ ٢٧.
(٢) زيادة يقتضيها السياق.

وقال بعضهم على جعلها في عبدة الأصنام: إنَّ وصفها بما ذكر من ترك الاستجابة والغَفْلةِ مع ظهور حالها للتهكُّم بها، فتدبَّر ولا تغفُلْ.

﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ عند قيامِ القيامة ﴿كَانُوا﴾ أي: المعبودون ﴿لَهُمْ﴾ أي: العابدين ﴿أَعْدَآءً﴾ شديدي العداوة ﴿وَكَانُوا﴾ أي: المعبودون أيضًا ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي: بعبادة الكَفَرة إياهم ﴿كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ مُكذِّبين، والأمر ظاهرٌ في ذوي العقول. وأما في الأصنام فقد رُوي أن الله تعالى يخلق لها إدراكًا ويُنطِقُها فتتبرَّأ عن عبادتهم، وكذا تكون أعداءً لهم.

وجُوِّز كون تكذيب الأصنام بلسان الحال؛ لظهور أنهم لا يصلحون للعبادة، وأنهم لا نفعَ لهم كما توهَّموه أولًا حيث قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٣] ورجوا الشفاعة منهم. وفُسِّرت العداوة بالضرِّ على أنها مجازٌ مُرسَل عنه، فمعنى «كانوا لهم أعداء»: كانوا لهم ضارِّين، وما ذكرناه في بيان الضمائر هو الظاهر.

وقيل: ضمير «هم» المرفوع البارز والمُستتر في قوله تعالى: (وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ) للكَفَرة الداعين، وضمير «دعائهم» لهم أو للمعبودين. والمعنى أن الكُفَّار عن ضلالهم بأنهم يَدْعون مَن لا يستجيب لهم غافلون لا يتأمَّلون ما عليهم في ذلك، وفيه من ارتكابِ خلاف الظاهر ما فيه، وفي الضمائر بعدُ نحو ذلك. والمعنى: إذا حُشر الناس كان الكُفَّار أعداءً لآلهتهم الباطلة؛ لِمَا يرون من ترتُّب العذاب على عبادتهم إياها، وكانوا لذلك مُنكرين أنهم عبدوا غيرَ الله تعالى كما حكَى اللهُ تعالى عنهم أنهم يقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

وتُعقِّب بأنَّ السِّياق لبيان حالِ الآلهة معهم لا عكسه، ولأن كفرهم حينئذ إنكارٌ لعبادتهم، وتسميته كفرًا خلافُ الظاهر.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: واضحات، أو مُبيِّنات ما يلزم بيانه ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ أي: الآياتِ المتلوَّةِ، وُضِعَ موضعَ ضميرها تنصيصًا على حقِّيتها ووجوب الإيمان بها، كما وُضِعَ الموصول موضعَ ضمير المتلوِّ عليهم تسجيلًا عليهم بكمال الكُفر والضلالة.

وجُوِّز كون المراد بالحقِّ النبوَّة أو الإسلام، فليس فيه موضوعًا موضع الضمير، والأول أظهر.

واللام متعلِّقة بـ «قال» على أنها لام العلَّة، أي: قالوا لأجل الحقِّ وفي شأنه، وما يقال في شأن شيء مسوقٌ لأجله، وجُوِّز تعلُّقه بـ «كفروا» على أنه بمعنى الباء، أو حمل الكفر على نقيضه، وهو الإيمان، فإنه يتعدَّى باللام نحو: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾ [الشعراء: ١١١] وهو خلافُ الظاهر كما لا يخفى.

﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي: في وقت مجيئه إياهم، ويُفهم منه في العُرف المبادرة، وتستلزم عدمَ التأمُّل والتدبُّر، فكأنه قيل: بادروا أولَ سماع الحقِّ من غير تأمُّل إلى أن قالوا: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ أي: ظاهرٌ كونُه سحرًا، وحُكمهم بذلك على الآيات لعجزهم عن الإتيان بمثلها، وعلى النبوَّة لِمَا معها من الخارق للعادة، وعلى الإسلام لتفريقه بين المرء وزوجه وولده.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ إضرابٌ وانتقال من حكاية شناعتهم السابقة إلى حكاية ما هو أشنعُ منها، وهو الكذب عمدًا على الله تعالى، فإن الكذب خصوصًا عليه عز وجل متفقٌ على قُبحه، حتى ترى كلَّ أحد يشمئزُّ من نسبته إليه، بخلاف السِّحر فإنه وإن قَبُحَ فليس بهذه المرتبة، حتى تكاد تُعَدُّ معرفته من الأمور المرغوبة، وما في «أمْ» المنقطعةِ من الهمزة معنًى للإنكار التوبيخي المتضمِّن للتعجُّب من نسبته إلى الافتراء مع قولهم: هو سحرٌ، لعجزهم عنه، والضميرُ المنصوب في «افتراه» ـ كما قال أبو حيان[١] ـ «للحق» الذي هو الآياتُ المتلُوة. وقال بعضهم: للقرآن الدالِّ عليه ما تقدَّم، أي: بل أيقولون: افتراه.

﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ على الفرض ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: [إن][٢] عاجلني الله تعالى بعقوبة الافتراء عليه سبحانه، فلا تقدرون على كَفِّه عز وجل عن معاجلتي، ولا تُطيقون دفع شيء من عقابه سبحانه عني، فكيف أَفتريه وأَتعرَّض لعقابه، فجواب «إن» في الحقيقة محذوفٌ، وهو: عاجَلني، وما ذكر مُسبَّب عنه أُقيم مُقامه، أو تجوّز به عنه.

---

(١) البحر المحيط ٨/٥٦.

(٢) ما بين حاصرتين من تفسير البيضاوي ٨/٢٨.

﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ بالذي تأخذون فيه من القَدْح في وحي الله تعالى والطَّعن في آياته، وتسميتِه سحرًا تارةً وافتراءً أُخرى. واستعمالُ الإفاضة في الأخذ في الشيء والشروع فيه ـ قولًا كان أو فعلًا ـ مجازٌ مشهور، وأصلها إسالةُ الماء؛ يقال: أفاضَ الماء: إذا أساله.

وما أشرنا إليه من كون «ما» موصولةً وضمير «فيه» عائد عليه هو الظاهرُ. وجُوِّز كون «ما» مصدريةً وضمير «فيه» للحقِّ أو للقرآن.

﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ﴾ حيث يشهد لي سبحانه بالصدق والبلاغ وعليكم بالكذب والجُحود، وهو وعيدٌ بجزاء إفاضتهم في الطعن في الآيات، واستؤنف؛ لأنه في جواب سؤال مقدَّر، و«به» في موضع الفاعل بـ «كفى» على أصحِّ الأقوال، و«شهيدًا» حال، و«بيني وبينكم» متعلِّق به، أو بـ «كفى».

﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾ وعدٌ بالغفران والرحمة لمن تاب وآمن، وإشعارٌ بحِلْم الله تعالى عليهم إذ لم يُعاجلهم سبحانه بالعقوبة، وأَمهلهم جلَّ شأنه ليتداركوا أمورهم.

﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: بديعًا منهم، يعني: لست مبتدعًا لأمرٍ يُخالِفُ أمورهم، بل جئتُ بما جاؤوا به من الدعوة إلى التوحيد، أو فعلتُ نحوَ ما فعلوا من إظهارِ ما آتاني الله تعالى من المُعجزات دون الإتيان بالمقترحات كلّها، فقد قيل: إنهم كانوا يقترحون عليه عليه الصلاة والسلام آياتٍ عجيبةً، ويسألونه عن المُغيَّبات عِنادًا ومُكابرةً، فأمر ﷺ أن يقول لهم ذلك، ونظير «بِدْع»: الخِفّ بمعنى الخفيف، والخِلّ بمعنى الخليل، فهو صفةٌ مشبَّهة، أو مصدرٌ مؤَّول بها، وجُوِّز إبقاؤه على أصله.

وقرأ عكرمة وأبو حيوة وابن أبي عَبْلة: «بِدَعًا» بفتح الدال[1]، وخُرِّج على أنه جمع بِدْعة، كسِدْرة وسِدْر، والكلام بتقدير مضاف، أي: ذا بِدَع، أو مصدر والإخبار به مبالغة، أو بتقدير المضاف أيضًا.

وقال الزمخشري[2]: يجوز أن يكون صفةً على فِعَل كقولهم: دين قِيَم ولحم

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٩، والمحتسب ٢/ ٢٦٤، والبحر ٨/ ٥٦.

(٢) الكشاف ٣/ ٥١٧.

زِيَم، أي: متفرّق، قال في «البحر»[1]: ولم يُثبت سيبويه[2] صفةً على هذا الوزن إلا عِدًى، حيث قال: ولا نعلمه جاء صفةً إلا في حرف معتلّ يُوصف به الجمع، وهو: قوم عِدًى، واستُدرك عليه: زِيَم، وهو استدراكٌ صحيح، وأما قِيَم فمقصور من قيام، ولولا ذلك لصحَّت عينُه كما صحَّت في حِوَل وعِوَض. وأما قول العرب: مكان سِوًى، وماء رِوًى، ورجل رِضًا، وماء صِرًى، فمتأوَّلة عند التصريفيين إما بالمصدر أو بالقصر.

وعن مجاهد وأبي حيوة: «بَدِعًا» بفتح الباء وكسر الدال[3]، وهو صفة كحَذِر.

﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ أي: في الدارين على التفصيل كما قيل، وأخرج ابن جرير[4] عن الحسن أنه قال في الآية: أما في الآخرة فمعاذ الله تعالى قد عَلِمَ ﷺ أنه في الجنة حين أخذ ميثاقه في الرُّسل، ولكن ما أدري ما يفعل بي في الدنيا أَأُخرجُ كما أُخرجت الأنبياء عليهم السلام من قَبْلي، أم أُقتل كما قُتلت الأنبياء عليهم السلام من قَبْلي، ولا بكم، أَأُمتي المكذِّبة أم أمتي المصدِّقة، أَمْ أمتي المرمية بالحجارة من السماء قذفًا، أم المخسوف بها خسفًا، ثم أوحي إليه: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾ [الإسراء: ٦٠] يقول سبحانه: أحطت لك بالعرب أن لا يقتلوك، فعرف عليه الصلاة والسلام أنه لا يُقتل، ثم أنزل الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ [الفتح: ٢٨] يقول: أشهد لك على نفسه أنه سَيُظهر دينَك على الأديان، ثم قال سبحانه له عليه الصلاة والسلام في أمته: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] فأخبره الله تعالى بما صنع به وما يصنع بأمته.

وعن الكلبي أنه ﷺ قال له أصحابُه وقد ضَجِروا مِنْ أذى المشركين: حتى

(١) البحر المحيط ٨/ ٥٦.
(٢) الكتاب ٤/ ٢٤٤.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٥٦.
(٤) تفسير الطبري ٢١/ ١٢٢.

متى نكون على هذا؟ فقال: «وما أدري ما يفعل بي ولا بكم، أأترك بمكة أمْ أُومر بالخروج إلى أرض قد رُفعت لي ورأيتها ـ يعني في منامه ـ ذاتِ نخل وشجر»(١).

وحكى في «البحر»(٢) عن أنس بن مالك(٣) وقتادة وعكرمة والحسن أيضًا وابن عباس أن المعنى: ما يفعل بي ولا بكم في الآخرة. وأخرج أبو داود في «ناسخه»(٤) من طريق عكرمة عن ابن عباس أنه قال في الآية: نسختها الآية التي في «الفتح»، يعني: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الآية: ٢] فخرج ﷺ إلى الناس فبشَّرهم بأنه غُفِرَ له ما تقدَّم من ذَنْبه وما تأخَّر، فقال رجلٌ من المؤمنين: هنيئًا لك يا نبيَّ الله، قد عَلِمنا الآن ما يُفعل بك، فماذا يُفعل بنا؟ فأنزل الله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الآية: ٤٧]، وقال سبحانه: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ [الفتح: ٥] فبيَّن الله تعالى ما يُفعل به وبهم. واستشكل ـ على تقدير صحَّته ـ بأنَّ النسخ لا يجري في الخبر، فلعلَّ المنسوخَ الأمرُ بقوله تعالى: «قل» إنْ قلنا: إنه هنا للتكرار، أو المراد بالنسخ مطلق التغيير.

وقال أبو حيان(٥): هذا القول ليس بظاهر، بل قد أعلم اللهُ تعالى نبيَّه عليه الصلاة والسلام من أول الرسالة بحاله وحال المؤمن وحال الكافر في الآخرة.

قال الإمامُ(٦): أكثرُ المحقِّقين استبعدوا هذا القولَ، واحتجُّوا بأن النبيَّ لا بد أن يعلم من نَفْسه كونَه نبيًّا، ومتى عَلِمَ ذلك عَلِمَ أنه لا يصدر عنه الكبائر، وأنه مغفورٌ [له] وإذا كان كذلك امتنع كونه شاكًّا في أنه هل هو مغفورٌ له أَمْ لا، وبأنه

(١) أسباب النزول للواحدي ص٤٠١، ونقله عنه القرطبي ١٩/١٨٦.
(٢) البحر المحيط ٨/٥٧.
(٣) في الأصل و(م): مالك بن أنس، والمثبت من البحر المحيط ٨/٥٧، والمحرر الوجيز ٥/٩٤.
(٤) كما في الدر المنثور ٦/٣٨.
(٥) البحر المحيط ٨/٥٧.
(٦) تفسير الرازي ٢٨/٨، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

لا شكَّ أن الأنبياءَ أرفعُ حالًا من الأولياء، وقد قال الله تعالى فيهم: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] فكيف يعتقد بقاء الرسول وهو رئيسُ الأنبياء وقُدوة الأولياء شاكًّا في أنه هل هو من المغفورين أمْ لا؟!

وقد يقال: المرادُ أيضًا أنه عليه الصلاة والسلام ما يدري ذلك على التفصيل، وما ذكر لا يتعين فيه حصولُ العلم التفصيلي؛ لجوازِ أن يكون عليه الصلاة والسلام قد أُعلم بذلك في مبدأ الأمر إجمالًا، بل في إعلامه[1] ﷺ بعدُ بحال كلِّ شخص شخص على سبيل التفصيل، بأن يكون قد أُعلم عليه الصلاة والسلام بأحوال زيدٍ مثلًا في الآخرة على التفصيل وبأحوال عمرو كذلك، وهكذا = توقُّفٌ.

وفي «صحيح البخاري» ـ وأخرجه الإمام أحمد والنسائي وابن مردويه ـ عن أُمِّ العلاء، وكانت بايعت رسولَ الله ﷺ، أنها قالت لمَّا مات عثمان بن مظعون: رحمةُ الله تعالى عليك يا أبا السائب، شهادتي عليك لقد أكرمك الله تعالى. فقال رسولُ الله عليه الصلاة والسلام: «وما يُدريك أن الله تعالى أكرمه؟ أما هو فقد جاءه اليقين مِن ربِّه، وإني لأرجو له الخير، واللهِ ما أدري وأنا رسولُ الله ما يُفعل بي ولا بكم» قالت أُمُّ العلاء: فواللهِ ما أُزكِّي بعدَه أحدًا[2].

وفي رواية ابن حبان والطبراني عن زيد بن ثابت أنها قالت لما قُبض: طِبْ أبا السائب نفسًا، إنك في الجنة. فقال النبيُّ ﷺ: «وما يدريك»؟ قالت: يا رسول الله، عثمان بن مظعون! قال: «أجل، وما رأينا إلا خيرًا، واللهِ ما أدري ما يُصنع بي»[3].

وفي رواية الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس أنه لمَّا مات قالت امرأته، أو امرأةٌ: هنيئًا لك ابنَ مظعون الجنةَ. فنظر إليها رسولُ الله ﷺ نظر مُغْضَب، وقال: «وما يدريك؟ واللهِ إني لرسول الله وما أدري ما يَفعل اللهُ بي» فقالت: يا رسول الله، صاحبُك وفارسُك، وأنت أعلمُ! فقال: «أرجو له رحمةَ ربِّه تعالى، وأخاف عليه

---

(١) قوله: في إعلامه، متعلق بخبر مقدم، والمبتدأ ما سيرد من قوله: توقفٌ.
(٢) صحيح البخاري (١٢٤٣)، ومسند أحمد (٢٧٤٥٧)، وسنن النسائي الكبرى (٧٥٨٧).
(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٨، والمعجم الكبير (٤٨٧٩)، وصحيح ابن حبان (٦٤٣).

ذَنْبه» لكن في هذه الرواية أن ابن عباس قال: وذلك قبل أن ينزل: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢][١].

وعن الضحاك: المراد: لا أدري ما أُومر به ولا ما تُؤمرون به في باب التكاليف والشرائع والجهاد، ولا في الابتلاء والامتحان.

والذي أختاره أن المعنى على نفي الدراية من غير جهةِ الوحي، سواء كانت الدراية تفصيليةً أو إجمالية، وسواء كان ذلك في الأمور الدنيوية أو الأُخروية، وأَعتقدُ أنه ﷺ لم ينتقلْ من الدنيا حتى أُوتي من العلمِ بالله تعالى وصفاته وشؤونه والعلمِ بأشياء يُعَدُّ العلمُ بها كمالًا ما لم يُؤتَه أحدٌ غيره من العالمين، ولا أعتقد فواتَ كمالٍ بعدم العلم بحوادث دنيوية جُزئية؛ كعدم العِلم بما يصنع زيدٌ مثلًا في بيته، وما يجري عليه في يومه أَوْ غَدِه، ولا أرى حَسنًا قولُ القائل: إنه عليه الصلاة والسلام يعلم الغيبَ، وأستحسن أن يقال بدله: إنه ﷺ أَطلعه الله تعالى على الغيب، أو علَّمه سبحانه إيَّاه، أو نحو ذلك.

وفي الآية ردٌّ على من ينسب لبعض الأولياء علمَ كلِّ شيء من الكُلِّيات والجزئيات، وقد سمعتُ خطيبًا على منبر المسجد الجامع المنسوب للشيخ عبد القادر الكيلاني قُدِّس سرُّه يومَ الجمعة قال بأعلى صوت: يا باز، أنت أعلمُ بي من نفسي. وقال لي بعضٌ: إني لأعتقدُ أن الشيخَ قدِّس سرُّه يعلم كلَّ شيء منِّي حتى منابتَ شعري. ومثل ذلك مما لا ينبغي أن يُنسب إلى رسول الله ﷺ فكيف يُنسب إلى مَنْ سواه؟ فليتقِ العبدُ مولاه.

وفيما تقدَّم من الأخبار في شأن عثمان بن مظعون ردٌّ أيضًا على مَن يقول فيمَن دونه في الفضل، أو مَنْ لم يبشِّره الصادق بالجنة والكرامة، نحوَ ما قيل فيه. نعم ينبغي الظنُّ الحسنُ في المؤمنين أحياءً وأمواتًا، ورجاءُ الخير لكلٍّ منهم، فالله تعالى أرحم الراحمين.

هذا، والظاهر أن «ما» استفهامية مرفوعة المحلّ بالابتداء، والجملة بعدها خبرٌ، وجملة المبتدأ والخبر معلَّق عنها الفعل القلبي، وهو إما متعدٍّ لواحد أو اثنين، وجُوِّز

---

(١) المعجم الكبير (٨٣١٧)، والدر المنثور ٦/ ٣٨، وليس عند الطبراني قول ابن عباس رضي الله عنهما.

أن تكون «ما» موصولة في محلّ نصب على المفعولية لفعل الدراية، وهو حينئذ متعدٍّ لواحد، والجملة بعدَها صلة، وأن تكون حرفًا مصدريًّا فالمصدرُ مفعولُ «أدري»، والاستفهامية أقضى لحقِّ مقام التبرِّي عن الدراية، و«لا» لتذكير النفي المنسحب على «ما يُفعل» إلخ، وتأكيدِه، ولولا اعتبار الانسحاب لكان التركيب: ما يُفعل بي وبكم، دون «لا» لأنه ليس محلًّا للنفي، ولا لزيادة «لا»، ونظيرُ ذلك زيادةُ «مِن» في قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ [البقرة: ١٠٥] لانسحاب النفي، فإنه إذا انتفتْ ودادة التنزيل انتفى التنزيل. وزيادةُ الباء في قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ﴾ [الأحقاف: ٣٣] لانسحاب النفي على «أنَّ» مع ما في حيِّزها، ولولاه ما زِيدت الباء في الخبر. وقيل: الأصل: ولا ما يفعل بكم، فاختصر وقيل: «ولا بكم».

وقرأ زيد بن عليٍّ وابن أبي عبلة: «يَفعل» بالبناء للفاعل(١)، وهو ضمير الله عز وجل.

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ أي: ما أفعل إلا اتِّباع ما يُوحى إليَّ، على معنى قصر أفعاله ﷺ على اتِّباع الوحي. والمراد بالفعل ما يشملُ القولَ وغيره. وهذا جوابٌ عن اقتراحهم الإخبار عمَّا لم يُوحَ إليه عليه الصلاة والسلام من الغيوب. والخطاب السابق للمشركين. وقيل: عن استعجال المسلمين أن يتخلَّصوا عن أذية المشركين، والخطاب السابق لهم.

والأول أوفق لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أُنذركم عقابَ الله تعالى حسبما يُوحى إليَّ ﴿مُّبِينٌ ۝٩﴾ بيِّن الإنذار بالمعجزات الباهرة، والحصرُ إضافي.

وقرأ ابن عمير: «يُوحِي» على البناء للفاعل(٢).

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ أي: ما يُوحى إليَّ من القرآن. وقيل: الضمير للرسول. وفيه أن الظاهر لو كان المعنى عليه: كنتُ ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لا سحرًا ولا مُفترى كما تزعُمون ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ الواو للحال، والجملةُ حالٌ بتقدير «قد» على المشهور

---

(١) ذكرها أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ٥٧.

(٢) الكشاف ٣/ ٥١٧، والبحر ٨/ ٥٧.

من الضمير في الخبر، وُسِّطت بين أجزاء الشرط اهتمامًا بالتسجيل عليهم بالكفر، أو للعطف على «كان» كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ [فصلت: ٥٢]، وكذا الواو في قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إلا أنها تعطفه بما عطف عليه على جملة ما قبله، فالجملُ المذكورات بعد الواوات ليست متعاطفةً على نسقٍ واحد، بل مجموع: «شهد»، «فآمن»، «واستكبرتم»، معطوفٌ على مجموع «كان» وما معه، مثله في المفردات: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] والمعنى: إن اجتمع كونُه من عند الله تعالى مع كُفركم، واجتمع شهادةُ الشاهد فإيمانه مع استكباركم عن الإيمان. وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلام في جواب الشرط وفي مفعولي «أرأيتم».

وضمير «به» عائدٌ على ما عاد عليه اسمُ «كان»، وهو ما يُوحى من القرآن أو الرسول. وعن الشعبي أنه للرسول، ولعله يقول في ضمير «كان» أيضًا كذلك، وكذا في ضمير ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ لئلا يلزم التفكيك. وأنت تعلم أن الظاهرَ رجوعُ الضمائر كلِّها للقرآن.

وتنوين «شاهدٌ» للتفخيم، وكذا وصفه بالجارِّ والمجرور، أي: وشهد شاهدٌ عظيمُ الشأن من بني إسرائيل الواقفين على شؤون الله تعالى وأسرار الوحي بما أُوتوا من التوراة على مِثل القرآن من المعاني المنطوية في التوراة من التوحيد والوعد والوعيد وغيرِ ذلك، فإنها في الحقيقة عينُ ما فيه، كما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦] على وجه، وكذا قوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨] والمِثليةُ باعتبار تأديتها بعباراتٍ أُخرى.

أو: على مثل ما ذكر من كونه من عند الله تعالى، والمِثليَّة لما ذكر. وقيل: على مثل شهادته ـ أي: لنفسه ـ بأنه من عند الله تعالى، كأنه لإعجازه يشهدُ لنفسِهِ بذلك. وقيل: «مِثْله» كناية عن القرآن نفسِهِ للمبالغة.

وعلى تقدير كونِ الضمير للرسول ﷺ فُسِّر المِثْل بموسى عليه السلام.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ﴾ أي: بالقرآن، للسببية، فيكون إيمانه مترتِّبًا على شهادته له بمطابقته للوحي. ويجوز أن تكون تفصيلية، فيكون إيمانُه به هو

الشهادةَ له، والمعنى على تقدير أن يراد فآمن بالرسول ﷺ ظاهرٌ بأدنى التفات.

وقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۖ﴾ أي: عن الإيمان، معطوفٌ ـ على ما أشرنا إليه ـ على «شهد شاهد»، وجُوِّز كونه معطوفًا على «آمن» لأنه قَسيمه، ويجعل الكلّ معطوفًا على الشرط، ولا تكرار في «استكبرتم» لأن الاستكبارَ بعد الشهادة، والكفر قبلَها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠﴾ أي: الموسومين بهذا الوصف، استئنافٌ بياني في مقام التعليل للاستكبار عن الإيمان. ووصفهم بالظلم للإشعار بعلَّة الحكم، فتشعر هذه الجملة بأنَّ كفرهم به لضلالهم المُسبَّب عن ظُلمهم، وهو دليلُ جواب الشرط، ولذا حُذف، ومفعولا «أرأيتم» محذوفان أيضًا لدلالة المعنى عليهما، والتقدير: أرأيتم حالكم إنْ كان كذا فقد ظلمتم، ألستم ظالمين، فالمفعول الأول: حالكم، والثاني: ألستم ظالمين، والجواب: فقد ظلمتم.

وقال ابن عطية في «أرأيتم»: يحتمل أن تكون منبهة، فهي لفظٌ موضوعٌ للسؤال لا تقتضي مفعولًا، ويحتمل أن تكون جملة «إن كان».. إلخ سادَّة مسدَّ مفعوليها[1]. وهو خلافُ ما قرَّره محقِّقو النُّحاة في ذلك.

وقدَّر الزمخشري[2] الجوابَ: ألستم ظالمين، بغير فاء. وردَّه أبو حيان[3] بأن الجملة الاستفهامية إذا وقعت جوابًا للشرط لَزِمها الفاء، فإن كانت الأداة الهمزة تقدَّمت على الفاء، وإلا تأخَّرت، ولعلَّه تقديرُ معنى لا تقدير إعراب.

وقدَّره بعضهم: أفتؤمنون، لدلالة «فآمن»، وقدَّره الحسن: فمن أضلُّ منكم، لقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ [فصلت: ٥٢]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وقيل: التقدير: فمَنِ المحقُّ منَّا ومنكم، ومَن المُبطل؟ وقيل: تهلكون. وقيل: هو «فآمن واستكبرتم» أي: فقد آمن محمد ﷺ به، أو الشاهد، واستكبرتُم أنتم عن الإيمان، وأكثرُها كما ترى.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٩٤.
(٢) الكشاف ٣/ ٥١٩.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٥٧.

والشاهد عبد الله بن سلَام ﷺ عند الجمهور وابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة وابن سيرين والضحاك وعكرمة في رواية ابن سعد وابن عساكر عنه(١).

وفي «الكشف»: في جعله شاهدًا والسورة مكيةٌ بحثٌ، ولهذا استُثنيت هذه الآية. وتحقيقُه أنه نُزِّل ما سيكون منزلةَ الواقع، ولهذا عطف «شهد» وما بعده على قوله تعالى: (كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم) ليعلم أنه مثله في التحقيق، فيكون على أسلوب قوله سبحانه: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ [الحجر: ٩٠] أي: أنذر قريشًا مثلَ ما أنزلناه على يهود بني قريظة، وقد أنزل عليهم بعدَ سبع سنين من نزول الآية، ومصبّ الإلزام في قوله تعالى: «فآمن»، كأنه قيل: أخبروني إن يؤمن به عالمٌ من بني إسرائيل أيّ عالم لِمَا تحقَّق عنده أنه مثلُ التوراة، ألستم تكونون أضلَّ الناس؟! ففيه الدلالةُ على أنه مثلُ التوراة يجب الإيمانُ به، شَهِدَ ذلك الشاهدُ أَوْ لم يَشْهَدْ، لأن تلك الشهادةَ يعقبها الإيمان من غير مهلة، فلو لم يُؤمن لم يكن عالمًا بما في التوراة؛ وهذا يصلحُ جوابًا مستقلًّا من غير نظر إلى الأول، فافهم.

وقول من قال: الشاهد عبدُ الله ـ على هذا ـ بيانٌ للواقع، وأنه كان ممن شَهِدَ وآمن لا أنَّ المرادَ بلفظ الآية عبدُ الله خصوصًا. وعلى الوجهين لا بدَّ من تأويل قول سعد ـ وقد تقدَّم في حديث الشيخين وغيرهما ـ: وفيه نزل «وشهد شاهد»(٢)، بأنَّ المرادَ في شأنه الذي سيحدثُ على الأول، أو فيه وفيمن هو على حاله، كأنه قيل: هو من النازلين فيه، لأنه كان من الشاهدين. انتهى.

وتُعقِّب قوله: إنه نُزِّل ما سيكون منزلةَ الواقع بأنه لا حاجةَ إلى ذلك التنزيل على تقدير مَكِّيتها. وكون الشاهدِ ابنَ سلَام لمكان العطف على الشرط الذي يصيرُ به الماضي مستقبلًا، وحينئذ لا ضيرَ في شهادة الشاهدِ بعد نزولها. ومع هذا فالظاهرُ من الأخبار أن النزولَ كان في المدينة، وأنه بعدَ شهادة ابن سلَام؛ أخرج أبو يعلى والطبراني والحاكم بسند صحيح عن عوف بن مالك الأشجعي قال:

---

(١) طبقات ابن سعد ٢/ ٣٥٣، وتاريخ دمشق ٢٩/ ١٣٠-١٣١، وينظر تفسير الطبري ٢١/ ١٢٧-١٣٠.
(٢) تقدم أول السورة.

انطلق النبيُّ ﷺ وأنا معه حتى دخلنا كنيسةَ اليهود يومَ عيدهم، فكرهوا دخولَنا عليهم، فقال لهم رسولُ الله ﷺ: «أروني اثني عشر رجلًا منكم يشهدون أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسولُ الله، يُحبطِ اللهُ تعالى عن كلِّ يهوديٍّ تحت أديم السماء الغضبَ الذي عليه» فسكتوا، فما أجابه منهم أحدٌ، ثم ردَّ عليهم عليه الصلاة والسلام، فلم يُجبه أحدٌ، فثلَّث فلم يُجبه أحدٌ، فقال: «أبيتم، فوالله لأنا الحاشرُ، وأنا العاقبُ، وأنا المُقفِّي، آمنتم أو كذَّبتم» ثم انصرف ﷺ وأنا معه حتى كِدْنا أن نخرجَ، فإذا رجلٌ من خَلْفه فقال: كما أنت يا محمد، فأقبل، فقال ذلك الرجل: أيّ رجلٍ تعلموني فيكم يا معشر اليهود؟ قالوا: والله ما نعلم فينا رجلًا أعلمَ بكتاب الله تعالى ولا أفقهَ منك ولا من أبيك ولا من جدِّك، قال: فإني أشهدُ بالله أنه النبيُّ الذي تجدونه في التوراة والإنجيل، فقالوا: كذبتَ. ثم ردُّوا عليه وقالوا شرًّا، فقام رسول الله ﷺ وأنا وابنُ سلَام، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الآية[١]. ورُوي حديثُ شهادته وإيمانه على وجهٍ آخر[٢]. ولا يظهرُ لي الجمعُ بينه وبين ما ذكر، وهو أيضًا ظاهرٌ في كون النزولِ بعدَ الشهادة.

وأخرج عبد بن حُميد[٣] عن سعيد بن جُبير قال: جاء ميمون بن يامين إلى النبي ﷺ وكان رأسَ اليهود بالمدينة، فأسلم وقال: يا رسولَ الله، ابعَثْ إليهم - يعني اليهود - فاجعل بينك وبينهم حكمًا من أنفسهم، فإنهم سيرضوني، فبعث عليه الصلاة والسلام إليهم وأدخله الداخلَ، فأتَوْه فخاطبوه مليًّا فقال لهم: «اختاروا رجلًا من أنفسكم يكون حكمًا بيني وبينكم» قالوا: فإنا قد رَضِينا بميمون بن يامين، فأخرجه إليهم فقال لهم ميمون: لِنشهدْ[٤] أنه رسول الله، وأنه على الحق، فأَبَوْا أن يُصدقوه، فأنزل الله تعالى فيه ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ الآية.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٩، والمعجم الكبير ١٨/ ٤٦ (٨٣)، والمستدرك ٣/ ٤١٥، وأخرجه أحمد (٢٣٩٨٤)، وزاد السيوطي في الدر نسبته لابن جرير، وهو في تفسيره ٢١/ ١٣١.
(٢) أخرجه أحمد (١٢٠٥٧)، والبخاري (٣٣٢٩).
(٣) كما في فتح الباري ٧/ ١٣٠، والدر المنثور ٦/ ٤٠.
(٤) في الفتح والدر: أشهد.

وهو ظاهر في مدنيَّة الآية، وأنَّ نزولها قبلَ شهادة الشاهدِ، لكنه ظاهرٌ في أن الشاهدَ غير عبد الله بن سلام، وكونه كان يُسمَّى بذلك قبلُ لم أَرَهُ، ولا يظهر لي وجهُ التعبير به دون المشهور إن كان، والذي رأيته في «الاستيعاب»[(١)] في ترجمة عبد الله أنه ابنُ سلام بن الحارث الإسرائيلي الأنصاري، يُكنى أبا يوسف، وكان اسمُه في الجاهلية: الحُصين، فلما أسلم سمَّاه رسول الله ﷺ: عبدَ الله، والله تعالى أعلم.

ومن كَذِبِ اليهود وجَهْلهم بالتاريخ ما يعتقدونه في عبد الله بن سلام أنه ﷺ حين سافر إلى الشام في تجارة لخديجة ﷺ اجتمع بأحبار اليهود وقصَّ عليهم أحلامَه، فعلموا أنه صاحبُ دولة، فأصحبوه عبدَ الله بن سلام وبقي معه مُدَّة فتعلَّم منه علمَ الشرائع والأُمم السالفة، وأَفرطوا في الكذب إلى أن نسبوا القرآنَ المُعجِزَ إلى تأليفِ عبد الله بن سلام، وعبدُ الله هذا مما ليس له إقامةٌ بمكة ولا تردُّدٌ إليها، ولم يَرَ النبيَّ ﷺ إلا في المدينة، وأسلم إذْ قَدِمَها عليه الصلاة والسلام، أو قبلَ وفاته ﷺ بعامين، على ما حكاه في «البحر» عن الشعبي[(٢)]، فما أَكذبَ اليهودَ وأَبهتهم، لعنهم اللهُ تعالى، وناهيك من طائفة ما ذمَّ في القرآن طائفة مثلها.

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر عن مسروق أنَّ الشاهدَ هو موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام[(٣)]، وقد تقدَّم أنه كان يدَّعي مكيةَ الآية، ويُنكر نزولها في ابن سلَام، ويقول: إنما كانت خصومة خاصمَ بها محمد ﷺ[(٤)]. وكأنه على هذا لا يُحتاج إلى القول بأنها نزلَتْ بخصوص شاهد، وأُيِّد عدمُ إرادة الخصوص بأن «شاهد» في الآية نكرة، والنكرة في سياق الشرط تَعمُّ.

وأنا أقول بكون التنوين في «شاهد» للتعظيم؛ وبمدنيَّة الآية ونزولها في ابن سلام، والخطابات فيها مطلقًا لكُفَّار مكة، وربما يُظَنُّ على بعض الروايات أنها

---

(١) لابن عبد البر (بهامش الإصابة) ٦/ ٢٨٨.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٥٨.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٤٠، وتفسير الطبري ٢١/ ١٢٥.
(٤) تقدم أول السورة.

لليهود، وليس كذلك، وهم المَعنيون أيضًا بالذين كفروا في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى آخره، وهو حكايةٌ لبعضٍ آخرَ من أقاويلهم الباطلةِ في حقِّ القرآن العظيم والمؤمنين به. وفيه تحقيقٌ لاستكبارهم، أي: وقال كفارُ مكة ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا﴾ أي: لأجلهم وفي شأنهم، فاللام للتعليل كما سمعتَ في ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ [سبأ: ٤٣].

وقيل: هي لامُ المشافهة والتبليغ، والتفتوا في قولهم: ﴿لَوْ كَانَ﴾ أي: ما جاء به ﷺ من القرآن، وقيل: الإيمان ﴿خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ ولولاه لقالوا: سبقتمونا، بالخطاب، أو لمَّا سمعوا أنَّ جماعةً آمنوا خاطبوا جماعةً أُخرى من المؤمنين، أي: قالوا للذين آمنوا: لو كان خيرًا ما سبقنا إليه أولئك الذين بلغنا إيمانهم.

وتُعقِّب بأنَّ هذا ليس من مواطنِ الالتفات، وكونهم قصدوا تحقيرَ المؤمنين بالغَيبةِ لا وجهَ له، وكون المشافَهين طائفةٌ من المؤمنين والمُخبَر عنهم طائفة أُخرى خلافُ الظاهر، فالأَولى كونها للتعليل، وقالوا ذلك لمَّا رأَوا أن أكثرَ المؤمنين كانوا فقراءَ ضُعفاء كعمَّار وصُهيب وبلال، وكانوا يزعُمون أن الخير الديني يتبع الخيرَ الدنيوي، وأنه لا يتأهَّل للأول إلا من كان له القدحُ المُعلَّى من الثاني، ولذا قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وخَطؤهم في ذلك مما لا يخفى.

وأخرج ابن المنذر عن عون بن أبي شداد قال: كانت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه أَمَة أسلمت قبلَه يقال لها: زِنِّيرة، فكان رضي الله عنه يضربها على إسلامها، وكان كفار قريش يقولون: لو كان خيرًا ما سبقَتْنا إليه زِنِّيرة. فأنزل الله تعالى في شأنها: (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا) الآية(١). ولعلهم لم يُريدوا زِنِّيرة بخصوصها، بل مَنْ شابهها أيضًا. وفي الآية تغليبُ المذكَّر على المؤنَّث.

وقال أبو المتوكِّل: أسلم أبو ذَرٍّ، ثم أسلمت غِفار، فقالت قريش ذلك.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٤٠، وذكر ابن عبد البر في الاستيعاب ١٣/ ١٤ (بهامش الإصابة) والحافظ ابن حجر في الإصابة ١٣/ ٢٧٢ أنها مولاة أبي بكر رضي الله عنه.

وقال الكلبي والزجاج[١]: قال ذلك بنو عامر بن صعصعة وغَطَفان وأسَد وأشجع لمَّا أَسْلَمَ أسلمُ وجهينةُ ومُزينة وغِفار.

وقال الثعلبي: هي مقالةُ اليهود حين أسلم ابنُ سلَام وأصحابه منهم[٢]. ويلزم عليه القول بأنَّ الآيةَ مدنيَّةٌ، وعدُّها في المستثنيات، أو كون «قال» فيها كـ «نادى» في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ﴾ [الأعراف: ٤٨] وهذا كما ترى، والمعوَّل عليه ما تقدَّم.

﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن، وقيل: بالرسول ﷺ، و«إذ» على ما اختاره جار الله ظرفٌ لمقدَّر دلَّ عليه السابق واللاحق، أي: وإذ لم يهتدوا به ظهر عِنادهم واستكبارهم، وقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ۝١١﴾ - أي: يتحقَّق منهم هذا القولُ والطعن حينًا فحيناً كما يُؤذن بذلك صيغةُ المضارع - مسبَّبٌ عن العناد والاستكبار[٣]، وإذا جاز مثل: حينئذ الآن، أي: كان ذلك حينئذ وامتنع الآن، بدليل قرينة الحال، فهذا أَجْوَزُ. والإشارة إلى القرآن العظيم، وقولهم ذلك فيه، كقولهم: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥].

ولم يجوِّز[٤] أن يكون: «فسيقولون» عاملًا في الظرف لتدافع دلالتي المضيِّ والاستقبال، وإنما لم يجعله من قبيل: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ﴾ [غافر: ٧٠-٧١] نظمًا للمستقبل في سلك المقطوع - كما اختاره ابنُ الحاجب في «الأمالي» - لأن المعنى هاهنا - كما في «الكشف» - على أن عدم الهداية محقَّقٌ واقعٌ، لا أنه سيقع البتة، ألا ترى إلى قوله تعالى: (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ) بعد ما بين استكبارهم وعنادهم كيف ينصُّ على أنهم مُجادلون مُعرضون عن القرآن وتدبُّره غير مهتدين ببشائره ونُذره؟

وقال بعضهم: الظرفُ معمول لـ «سيقولون»، والفاء لا تمنع عن عمل ما بعدَها فيما قبلها - كما ذكره الرَّضي - والتسبُّب المُشعرة به عن كفرهم، و«سيقولون» بمعنى: قالوا، والعدول إليه للإشعار بالاستمرار. وتُعقِّب بأن ذلك مع السين بعيد.

وقيل: «إذ» تعليلية للقول. وتُعقِّب بأنه معلّل بكفرهم كما آذنت به الفاء.

---

(١) معاني القرآن ٤/ ٤٤٠، وينظر تفسير القرطبي ١٩/ ١٩٠.
(٢) تفسير الثعلبي ٩/ ١٠.
(٣) الكشاف ٣/ ٥١٩.
(٤) يعني الزمخشري. الكشاف ٣/ ٥١٩.

وقدّر بعضهم العامل المحذوف: قالوا ما قالوا، ورجَّحه على التقدير السابق، وليس براجح عليه كما لا يخفى على راجح.

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من قبل القرآن، وهو خبرٌ مقدَّم لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ قُدِّم للاهتمام، وجوَّز الطبرسي[1] كون «كتاب» معطوفًا على «شاهد»، والظرف فاصلٌ بين العاطف والمعطوف، والمعنى: وشهد كتابُ موسى من قَبْله، وجعل ضمير «قبله» للقرآن أيضًا، وليس بشيء أصلًا.

وقوله سبحانه: ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ حال من الضمير في الخبر، أو من «كتاب» عند من جوَّز الحال من المبتدأ. وقيل: حال من محذوف، والعامل كذلك، أي: أنزلناه إمامًا. وهو كما ترى.

والمعنى: وكائنٌ من قبله كتاب موسى يقتدى به في دين الله تعالى وشرائعه كما يقتدى بالإمام، ورحمة من الله سبحانه لمن آمن به وعمل بموجبه.

وقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا﴾ أي: القرآن الذي يقولون في شأنه ما يقولون ﴿كِتَٰبٌ﴾ مبتدأ وخبر، وقوله عز وجل: ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ نعت «كتاب» وهو مصبُّ الفائدة، أي: مصدِّق لكتاب موسى الذي هو إمامٌ ورحمة، أو لما بين يديه من جميع الكتب الإلهية، وقد قُرئ: «مصدقٌ لما بين يديه»[2]، والجملة عطفٌ على الجملة قبلها، وهي حالية أو مستأنفة، وأيّاما كان فالكلامُ ردٌّ لقولهم: «هذا إفك قديم» وإبطالٌ له، والمعنى: كيف يصحُّ كونه إفكًا قديمًا وقد سلَّموا كتابَ موسى، والقرآن مصدِّق له متحدٌ معه في المعنى، أو لجميع الكتب الإلهية.

وقوله تعالى: ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ حال من ضمير «كتاب» المُستتر في «مصدِّق»، أو منه نفسه لتخصيصه بالصفة، وعامله على الأول «مصدق»، وعلى الثاني ما في «هذا» من معنى الفعل، وفائدة هذه الحال مع أن عربيته أمرٌ معلومٌ لكلِّ أحد الاشعارُ بالدلالة على أن كونه مصدقًا، كما دلَّ على أنه حقٌّ دلَّ على أنه وحيٌ وتوقيف من الله تعالى.

---

(١) مجمع البيان ٢٦/ ١٠.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٥١، والكشاف ٣/ ٥٢٠، ونسبها الفراء لعبد الله.

هذا على القول بأنَّ الكلامَ مع اليهود ظاهرٌ، وأما على القول بأنه مع كفار مكة فلأنهم قد يُسلِّمون التوراة ونحوها من الكتب الإلهية السابقة وإن كانوا أحيانًا يُنكرون إنزال الكتب وإرسالَ الرُّسل عليهم السلام مطلقًا.

وفي «الكشف»: وجه تقديم الخبر في قوله تعالى: «ومن قبله كتاب موسى» أن إرسالَ الرسل وإنزال الكتب أمرٌ مستمرٌّ كائن من عند الله تعالى، فمن قبل إنزال القرآن إمامًا ورحمة كان إنزالُ التوراة كذلك، وليس من تقديم الاختصاص، بل لأن العناية والاهتمام بذكره، ولمَّا ألزم الكفار بنزول مثله وشهادة أَعْلَمِ بني إسرائيل ذُكر على سبيل الاعتراض من حال كتاب موسى عليه السلام ما يؤكِّد كونه من عند الله تعالى، وأن ما يُطابقه يكون من عنده سبحانه لا محالة، وتوصّل منه إلى أن القرآن لمَّا كان مصدِّقَه بل مصدِّق سائر الكتب السماوية وجب أن يُؤمَن به ويُتَلقَّى بالقبول؛ وهو بالحقيقة إعادةٌ للدعوى الأُولى على وجهٍ أَخْصَرَ وأشمل؛ إذ دلَّ فيه على أن كونه مصدِّقًا كافٍ، شَهِدَ شاهد بني إسرائيل أَوْ لا.

وإن قيل: نُزِّلوا لعنادهم منزلةَ من لا يعرف أن كتاب موسى قبلَه، إذ لو عرفوا وقد تبيَّن أنه مثله لأذعنوا، فقيل: «ومن قبله» لا من بعده = لكان وجهًا موفًّى فيه حقُّ الاختصاص كما آثره السكَّاكي من أنه لازم التقديم. انتهى. وهو ظاهر في أن الجملة ليست حالية.

وجوِّز كون «لسانًا» مفعولًا لـ «مصدّق»، والكلام بتقدير مضاف، أي: ذا لسان عربي، وهو النبيُّ عليه الصلاة والسلام، وتصديقه إيَّاه بموافقته كتاب موسى أو الكتب السماوية مطلقًا وإعجازه. وجوِّز على المفعولية كون «هذا» إشارةً إلى كتاب موسى، فلا يحتاج إلى تقدير مضاف، ويُراد بـ «لسانًا عربيًّا» القرآن، ووضعت الإشارة موضعَ الضمير للتعظيم، والأصل: وهو مصدّق لسانًا عربيًّا. وقيل: هو منصوبٌ بنزع الخافض، أي: مصدِّق بلسان عربي. والكلُّ كما ترى.

وقرأ الكلبي: «ومَن قبله» بفتح الميم «كتابَ موسى» بالنصب(١)، وخُرِّجت على

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٥٩.

أن «مَنْ» موصولة معمولة لفعل مقدَّر، وكذا «كتاب»، أي: وآتينا الذين كانوا قبلَ نزول القرآن من بني إسرائيل كتابَ موسى.

﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ متعلِّق بـ «مصدّق»، وفيه ضمير للكتاب أو لله تعالى أو للرسول عليه الصلاة والسلام، ويُؤيِّد الأخير قراءة أبي رجاء وشيبة والأعرج وأبي جعفر وابن عامر ونافع وابن كثير في رواية: «لتُنذِر» بتاء الخطاب[1]، فإنه لا يصلح بدون تكلُّف لغير الرسول، والتعليل صحيحٌ على الكلِّ، ولا يتوهَّم لزوم حذف اللام على أن الضمير للكتاب لوجود شرط النصب[2]؛ لأنه شرطُ الجواز.

﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾ عطف على المصدر الحاصل من «أنْ» والفعل. وقال الزمخشري[3] وتَبِعه أبو البقاء[4]: هو في محلِّ النصب معطوف على محلِّ «لينذر»؛ لأنه مفعول له، وزعم أبو حيان[5] أن ذلك لا يجوز على الصحيح من مذهب النحويين، لأنَّ المحلَّ ليس بحقّ الأصالة، وهم يشترطون في الحمل عليه ذلك إذ الأصل في المفعول له الجرّ، والنصب ناشئ من نزع الخافض، لكنه كثر بشرطه، وحَكَى في إعرابه أوجهًا، فقال: قيل: معطوف على «مصدّق»، وقيل: خبر مبتدأ محذوف، أي: هو بشرى، وقيل: منصوب بفعل محذوف معطوف على «ينذر»، أي: ويُبشر بشرى. وقيل: منصوب بنزع الخافض، أي: ولبشرى.

والظاهر أن «المحسنين» في مقابلة «الذين ظلموا» والمرادُ بالأول الكفرة وبالثاني المؤمنون.

وفي «شرح الطيبي»: إنما عدل عن العادلين إلى «المحسنين» ليكون ذريعةً إلى البِشارة بنفي الخوف والحزن لمن قالوا: «ربُّنا الله ثم استقاموا»، وقيل: «المحسنين» دون: الذين أحسنوا، بعدَ قوله تعالى: «الذين ظلموا» ليكون المعنى:

(١) قراءة أبي جعفر وابن عامر ونافع وابن كثير ـ في رواية البزي ـ في التيسير ص١٩٩، والنشر ٢/ ٣٧٢، وهي قراءة يعقوب أيضاً.

(٢) وهو اتحاد الفاعل. ينظر الدر المصون ٩/ ٦٦٦.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٢٠.

(٤) إملاء ما من به الرحمن (بهامش الفتوحات الإلهية) ٤/ ٣٢٠.

(٥) البحر المحيط ٨/ ٥٩.

لينذر الذين وُجد منهم الظُّلم ويُبَشِّر الذين ثبتوا واستقاموا على الصراط السَّوي، فيناسب تعليل البِشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ إلى آخره، أي: إن الذين جمعوا بين التوحيد ـ الذي هو خُلاصة العلم ـ والاستقامة في الدين التي هي منتهى العمل، و«ثم» للتراخي الرُّتبي، فالعمل متراخي الرتبة عن التوحيد، وقد نصُّوا على أنه لا يعتدُّ به بدونه.

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من لحوق مكروه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ من فوات محبوب، والمرادُ استمرارُ النفي، والفاء لتضمّن الاسم معنى الابتداء، فلا تدخل في خبر «ليت» و«لعلَّ» و«كأن»، وإن كانت أسماؤها موصولات، وتقدَّم في سورة السجدة نظيرُ هذه الآية، وذكرنا في تفسيره ما ذكرنا، فليراجع.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من الوصفين الجليلين ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال من المستكنِّ في «أصحاب»، وقوله تعالى: ﴿جَزَآءًۢ﴾ منصوب إما بعامل مقدَّر، أي: يُجزون جزاء، والجملة استئنافٌ أو حال، وإما بمعنى ما تقدَّم على ما قيل، فإن قوله تعالى: «أولئك أصحاب الجنة» في معنى: جازيناهم ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ من الحسنات القلبية والقالبية.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا﴾ نزلت كما أخرج ابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى قوله تعالى: (وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ)(١).

«وإحسانًا» قيل: مفعولٌ ثانٍ لـ «وصَّينا» على تضمينه معنى ألزمنا، وقيل: منصوب على المصدر على تضمين «وصينا» معنى أَحسنَّا، أي: أحسنَّا بالوصية للإنسان بوالديه إحسانًا، وقيل: صفة لمصدر محذوف بتقدير مضاف، أي: إيصاءً ذا إحسان، وقيل: مفعولٌ له، أي: وصَّيناه بهما لإحساننا إليهما.

وقال ابن عطية: إنه منصوب على المصدر الصريح، و«بوالديه» متعلِّق

(١) الدر المنثور ٦/ ٤٠، وتاريخ مدينة دمشق ٣٠/ ٣٣٨، وأخرجه من هذا الطريق أيضًا الفراء في معاني القرآن ٣/ ٥٣.

بـ «وصَّينا»، أو به[١]. وكأنه عنى: يحسن إحسانًا، وهو حَسَنٌ، لكن تعقَّب أبو حيان[٢] تجويزَه تعلُّق الجارِّ بـ «إحساناً» بأنه لا يصحُّ؛ لأنه مصدرٌ مقدَّر بحرف مصدري والفعل، فلا يتقدم معموله عليه، ولأن أحسن لا يتعدَّى بالباء، وإنما يتعدَّى باللام، تقول: أحسنت لزيد، ولا تقول: أحسنت بزيد، على معنى أن الإحسان يصل إليه.

وفيه أنَّا لا نُسَلِّم أن المقدَّر بشيء يُشارك ما قدّر به في جميع الأحكام؛ لجواز أن يكون بعضُ أحكامه مختصًا بصريح لفظه، مع أنَّ الظرف يكفيه رائحة الفعل، ولذا يعمل الاسم الجامد فيه باعتبار لمح المعنى المصدري، وقد قالوا: إنه يتصرف فيه ما لا يتصرف في غيره لاحتياج معظم الأشياء إليه. والجارُّ والمجرور محمولٌ عليه، وقد كَثُر ما ظاهره التعلُّق بالمصدر المتأخِّر نكرة، كـ: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ [النور: ٢] ومعرفة نحو: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ [الصافات: ١٠٢] وتأويل كلٍّ ذلك تكلُّف.

وأيضًا قوله: لأن أحسن لا يتعدَّى بالباء.. إلخ، فيه منعٌ ظاهر، وقدَّر بعضُهم الفعل قبلَ الجارِّ، فقال: وصَّينا الإنسان بأن يُحسن بوالديه إحسانًا.

ولعل التنوين للتفخيم، أي: إحسانًا عظيمًا، والإيصاء والوصية التقدُّم إلى الغير بما يعمل به مقترنًا بوعظ، من قولهم: أرض واصية، متصلة النبات، ففي الآية إشعارٌ بأنَّ الإحسان بهما أمرٌ معتنًى به، وقد عُدَّ في الحديث ثاني أفضل الأعمال وهو الصلاة لأول وقتها، وعُدَّ عقوقهما ثاني أكبر الكبائر، وهو الإشراك بالله عز وجل، والأحاديث في الترغيب في الأول والترهيب عن الثاني كثيرةٌ جدًّا، وفي الآيات ما فيه كفايةٌ لمن ألقى السمع وهو شهيد.

وقرأ الجمهور: «حُسْناً» بضمِّ الحاء وإسكان السين[٣]، أي: فعلًا ذا حُسْنٍ، أو كأنه في ذاته نفس الحسن لفرط حُسنه، وجوَّز أبو حيان[٤] فيه أن يكون بمعنى «إحسانًا» فالأقوال السابقة تجري فيه.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٩٦.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٦٠.
(٣) التيسير ص ١٩٩، والنشر ٢/ ٣٧٣. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف: «إحسانًا».
(٤) البحر المحيط ٨/ ٦٠.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه والسلمي وعيسى: «حَسَناً» بفتح الحاء والسين، وعن عيسى: «حُسُناً» بضمِّهما[١].

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أي: ذات كره، أو حملًا ذا كُرْهٍ، وهو المشقَّة كما قال مجاهد والحسن وقتادة، وليس الكُرْهُ في أول عُلوقها، بل بعد ذلك حين تجد له ثِقَلًا.

وقرأ شيبة وأبو جعفر والحِرْميان: «كَرْهًا» بفتح الكاف[٢]، وهما لغتان بمعنى واحد كالفَقْر والفُقْر والضَّعْف والضُّعْف، وقيل: المضمومُ اسمٌ، والمفتوح مصدر.

وقال الراغب[٣]: قيل: الكَرْه: ـ أي: بالفتح ـ المشقَّة التي تنال الإنسان من خارج مما يُحمل عليه بإكراه، والكُرْه: ما يناله من ذاته، وهو ما يعافه من حيث الطبع أو من حيث العقل أو الشرع.

وطعن أبو حاتم في هذه القراءة فقال: لا تحسن هذه القراءة؛ لأنَّ الكَرْه ـ بالفتح ـ الغصب والغَلَبة[٤]. وأنت تعلم أنها في السبعة المتواترة فلا معنى للطعن فيها، وقد كان هذا الرجل يَطْعَنُ في بعض القراءات بما لا علمَ له به جسارةً منه عفا الله تعالى عنه.

﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ﴾ أي: مدَّة حمله وفصاله، وبتقدير هذا المضاف يصحُّ حمل قوله تعالى: ﴿ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ على المبتدأ من غير كره.

والفِصال: الفِطام، وهو مصدر فاصَلَ، فكأنَّ الولد فاصَلَ أُمَّه، وأُمّه فاصَلته.

وقرأ أبو رجاء والحسن وقتادة ويعقوب والجحدري: «وفَصْله»[٥] أي: فطمه. فالفَصْل والفِصال كالفَطْم والفِطام بناءً ومعنى، وقيل: الفِصال بمعنى وقت الفصل،

(١) القراءات الشاذة ص١٣٩.
(٢) وقرأ بها أيضاً أبو عمرو، وابن عامر في رواية هشام. التيسير ص١٩٩، والنشر ٢/ ٢٤٨، والبحر المحيط ٨/ ٦٠.
(٣) مفردات ألفاظ القرآن (كره).
(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٦٤.
(٥) النشر ٢/ ٣٧٣ عن يعقوب.

أي: الفَطْم، فهو معطوف على مدَّة الحمل، والمراد بالفِصَال الرضاعُ التامّ المنتهي بالفِطام ولذلك عبَّر بالفصال عنه أو عن وقته دون الرضاع المطلق، فإنه لا يُفيد ذلك، وفي الوصف تطويل.

والآية بيانٌ لما تُكابده الأمُّ وتُقاسيه في تربية الولد مبالغةً في التوصية لها، ولذا اعتنى الشارع ببِرِّها فوق الاعتناء ببرِّ الأب، فقد رُوي: أنَّ رجلًا قال: يا رسولَ الله، مَنْ أبرُّ؟ قال: «أمّك»، قال: ثم مَنْ؟ قال: «أُمّك»، قال: ثم مَنْ؟ قال: «أُمّك»، قال: ثم مَنْ؟ قال: «أباك»[1]، وقد أُشير في الآية إلى ما يقتضي البرّ بها على الخصوص في ثلاث مراتب، فتكون الأوامر في الخبر كالمأخوذة من ذلك.

واستدلَّ بها عليٌّ كرم الله تعالى وجهه، وابن عباس رضي الله عنهما، وجماعة من العلماء على أنَّ أقلَّ مدَّة الحمل ستَّة أشهر؛ لِمَا أنه إذا حطَّ عن الثلاثين للفصال حولان لقوله تعالى: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣] يبقى الحمل[2] ذلك، وبه قال الأطباء، قال جالينوس: كنت شديدَ الفحص عن مقدار زمن الحمل فرأيتُ امرأةً ولدت لمئة وأربع وثمانين ليلة. وادَّعى ابن سينا أنه شاهد ذلك.

وأما أكثر مدَّة الحمل، فليس في القرآن العظيم ما يدلُّ عليه؛ وقال ابن سينا في «الشفا»: بلغني من جهة من أَثِقُ به كلَّ الثقة أن امرأةً وضعت بعد الرابع من سني الحمل ولدًا نبتَتْ أسنانه، وحكى عن أرسطو أنه قال: أزمنة الحمل لكلِّ حيوان مضبوطة سوى الإنسان فربما وضعت المرأة لسبعة أشهر، وربما وضعت لثمانية، وقلَّما يعيش الولدُ في الثامن إلا في بلاد معيَّنة مثل مصر[3].

ولعلَّ تخصيصَ أقلِّ الحمل وأكثر الرضاع بالبيان في القرآن الكريم بطريق الصراحة والدلالة دون أكثر الحمل وأقلِّ الرضاع وأوسطهما؛ لانضباطهما بعدم النقص والزيادة بخلاف ما ذكر؛ وتحقُّق ارتباط حكم النَّسب بأقلِّ مدَّة الحمل حتى

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (٢٠٠٢٨) من حديث معاوية بن حيدة، وهو الذي سأل النبي ﷺ هذا السؤال، وهو عند البخاري (٥٩٧١)، ومسلم (٢٥٤٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه.

(٢) في (م): للحمل.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٦٠.

لو وضعته فيما دونه لم يثبتْ نسبه منه، وبعده يثبت وتَبْرَأُ من الزنى، ولو أَرضعت مرضعةٌ بعد حولين لم يثبت به أحكام الرضاع في التناكح وغيره، وفي هذا خلاف لا يُعبأ به.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ غايةٌ لمقدَّر، أي: فعاش ـ أو: استمرَّت حياته ـ حتى إذا اكتهل واستحكم قوَّته وعقله ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ الظاهر أنه غير بلوغ الأشُدّ، وقال بعضهم: إنه بلوغ الأشُدّ، والعطف للتأكيد.

وقد ذكر غير واحد أن الإنسان إذا بلغ هذا القدر يتقوَّى جدًّا خَلْقُه الذي هو عليه فلا يكاد يُزايله بعد، وفي الحديث: «إنَّ الشيطان يجرّ يدَه على وجه مَنْ زاد على الأربعين ولم يَتُبْ، ويقول: بأبي، وجهٌ لا يفلح»(١). وأخرج أبو الفتح الأزدي من طريق جُويبر عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعًا: «مَنْ أتى عليه الأربعون سنة فلم يغلبْ خيرُه شرَّه فليتجهَّز إلى النار»(٢)، وعلى ذلك قول الشاعر:

إذا المرء وافى الأربعين ولم يكن ... له دون ما يهوى حياءٌ ولا سترُ
فدَعْهُ ولا تَنْفَسْ عليه الذي مضى ... وإنْ جرَّ أسبابَ الحياة له العمرُ(٣)

وقيل: لم يُبعث نبيٌّ إلا بعد أربعين(٤). وذهب الفخر(٥) إلى خلافه مستدلًّا بأنَّ عيسى ويحيى عليهما السلام أُرسلا صبيَّين؛ لظواهر ما حكي في الكتاب الجليل عنهما. وهو ظاهرُ كلام السعد حيث قال: من شروط النبوَّة الذكورة وكمال العقل والذكاء والفِطنة وقوَّة الرأي ولو في الصبا كعيسى ويحيى عليهما السلام، إلى آخر ما قال.

وذهب ابن العربي في آخَرِينَ إلى أنه يجوز على الله سبحانه بعث الصبي إلا أنه لم

---

(١) أورده ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩٧.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٤١، وجويبر متروك، والضحاك لم يسمع من ابن عباس.
(٣) البيتان لأيمن بن خُريم الأسدي، وهما في أمالي القالي ١/ ٧٨، والأغاني ١٧/ ٢٣٨-٢٣٩ باختلاف يسير.
(٤) قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف ص ١٢٦: لم أجده.
(٥) في التفسير الكبير ٢٨/ ١٩.

يقع، وتأولوا آيتي عيسى ويحيى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠] ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] بأنهما إخبار عما سيحصل لهما لا عمَّا حصل بالفعل، ومثله كثيرٌ في الآيات وغيرها، والواقع عند هؤلاء البعثُ بعد البلوغ.

وحكى اللقاني عن بعضٍ اشتراطَه فيه، ويترجَّح عندي اشتراطُه فيه دون أصل النبوَّة لما أنَّ النفوس في الأغلب تأنفُ عن اتباع الصغير وإن كَبُرَ فضلًا كالرقيق والأنثى، وصرَّح جمعٌ بأنَّ الأعمَّ الأغلب كون البِعثة على رأس الأربعين كما وقع لنبيِّنا ﷺ.

﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾ أي: رغِّبني ووفِّقني، مِنْ أوزعته بكذا، أي: جعلته مُولعًا به راغبًا في تحصيله. وقرأ البزيُّ: «أوزعنيَ» بفتح الياء[1] ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ أي: نعمة الدِّين أو ما يعمُّها وغيرها، وذلك يؤيِّد ما رُوي أنها نزلت في أبي بكر الصديق ﷺ لأنه لم يكن أحدٌ أَسلمَ هو وأبواه من المهاجرين والأنصار سواه، كذا قيل، وإسلامُ أبيه بعد الفتح وحينئذ يلزم أن تكونَ الآيةُ مدنية، وإليه ذهب بعضُهم.

وقيل: إن هذا الدعاء بالنسبة إلى أبويه دعاء بتوفيقهما للإيمان، وهو كما ترى.

واعترض على التعليل بابن عمر وأسامة بن زيد وغيرهما، ونُقل عن الواحدي[2] أنه قد صحب النبيَّ ﷺ وهو ابنُ ثمان عشرة سنة ورسول الله ﷺ ابن عشرين سنة في سفرٍ للشام في التجارة، فنزل تحت شجرة سمرة، وقال له الراهب: إنه لم يستظلَّ بها أحدٌ بعد عيسى غيره ﷺ، فوقع في قلبه تصديقه، فلم يكن يُفارقه في سفر ولا حضر، فلما نُبِّئ وهو ابن أربعين آمن به وهو ابنُ ثماني وثلاثين، فلما بلغ الأربعين قال: «ربِّ أوزعني» إلخ.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ التنوين للتفخيم والتكثير، والمراد بكونه مرضيًّا له تعالى ـ مع أن الرِّضا على ما عليه جمهورُ أهل الحقِّ الإرادةُ مع تَرْكِ الاعتراض،

(١) وقرأ بها ورش أيضًا كما في التيسير ص٢٠٠، والنشر ٢/ ٣٧٣.
(٢) الوسيط للواحدي ٤/ ١٠٧.

وكلُّ عمل صالح كذلك ـ أن يكون سالمًا من غوائل عدم القَبول كالرياء والعُجب وغيرهما، فحاصله: اجعل عملي على وفق رضاك.

وقيل: المراد بالرضا هنا ثمرته على طريق الكناية.

﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ أي: اجعل الصلاح ساريًا في ذريتي راسخًا فيهم، كما في قوله:

فإن تعتذر في المَحْلِ من ذي ضروعها لدى المَحْلِ يجرح في عراقيبها نَصْلِي[1]

على أن «أَصْلِحْ» نُزِّلَ منزلةَ اللازم ثم عُدِّي بـ «في» ليفيد ما أشرنا إليه من سَريان الصلاح فيهم، وكونهم كالظرف له لتمكُّنه فيهم، وإلا فكان الظاهر: وأصلح لي ذرِّيتي. وقيل: عُدِّيَ بـ «في» لتضمُّنه معنى اللطف، أي: الطُفْ بي في ذرِّيتي. والأولُ أحسنُ.

قال ابن عباس: أجاب اللهُ تعالى دعاءَ أبي بكر فأعتق تسعةً من المؤمنين منهم بلال وعامر بن فهيرة، ولم يُرِدْ شيئًا من الخير إلا أعانه الله تعالى عليه، ودعا أيضًا فقال: «أصلح لي في ذريتي» فأجابه الله تعالى فلم يكن له ولد إلا آمنوا جميعًا، فاجتمع له إسلامُ أبويه وأولاده جميعًا، وقد أدرك أبوه وولده عبد الرحمن وولده أبو عتيق النبيَّ ﷺ وآمنوا به، ولم يكن ذلك لأحد من الصحابة ﷺ أجمعين.

﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ عمَّا لا ترضاه، أو يشغل عنك ﴿وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ الذين أخلصوا أنفسهم لك.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الإنسان، والجمع؛ لأنَّ المرادَ به الجنس المتَّصف بالمعنى المَحكي عنه، وما فيه من معنى البُعد للإشعار ببعد منزلته وعلوِّ درجته، أي: أولئك المنعوتون بما ذكر من النعوت الجليلة ﴿ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ من الطاعات، فإن المباح حسنٌ لا يُثابُ عليه ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ لتوبتهم المُشار

---

(١) البيت لذي الرمة، وهو في ديوانه ١/ ١٥٦، والرواية فيه:

وإن تعتذر بالمحل من ذي ضروعها على الضيف يجرح في عراقيبها نصلي

وسلف ١٣/ ٤٧٨.

إليها بـ: «إني تبت»، وإلا فعند أهل الحقِّ أنَّ مغفرةَ الذنب مطلقًا لا تتوقَّف على توبة ﴿فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ كائنين في عِدادهم، منتظمين في سِلْكهم. وقيل: «في» بمعنى «مع»، وليس بذاك ﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ﴾ مصدر لفعل مقدَّر، وهو مؤكِّد لمضمون الجملة قبلَه، فإن قوله سبحانه: «نتقبل» و«نتجاوز» وعدٌ منه عز وجل بالتقبُّل والتجاوُز ﴿ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ١٦﴾ على ألسنة الرُّسل عليهم السلام.

وقُرئ: «يُتقَبَّل» بالياء والبناء للمفعول و«أحسنُ» بالرفع على النيابة منابَ الفاعل، وكذا «يُتجاوَز عن سيئاتهم»[1].

وقرأ الحسن والأعمش وعيسى بالياء فيهما مبنيَّين للفاعل، وهو ضميره تعالى شأنه، و«أحسنَ» بالنصب على المفعولية[2].

﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ﴾ عند دعوتهما إيَّاه للإيمان ﴿أُفّٖ لَّكُمَآ﴾ صوتٌ يصدرُ عن المرء عند تضجُّره، وفيه قراءات ولغات نحو الأربعين، وقد نبَّهنا على ذلك في سورة الإسراء[3]، واللام لبيان المؤفَّف له كما في ﴿هَيۡتَ لَكَۚ﴾ [يوسف: ٢٣] والموصول مبتدأٌ خبره: (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ) والمرادُ به الجنس، فهو في معنى الجمع، ولذا قيل: «أولئك» وإلى ذلك أشار الحسن بقوله: هو الكافر العاقُّ لوالديه المُنكِرُ للبعث.

ونزول الآية في شخص لا يُنافي العموم كما قُرِّر غير مرَّة، وزعم مروان ـ عليه ما يستحقُّ ـ أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، وردَّت عليه عائشة رضي الله عنها. أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن عبد الله قال: إني لفي المسجد حين خطب مروان، فقال: إنَّ الله تعالى قد أرى لأمير المؤمنين ـ يعني معاوية ـ في يزيد رأيًا حسنًا أن يستخلفه، فقد استَخْلَفَ أبو بكر وعمر، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: أهرقليَّة، إن أبا بكر رضي الله عنه والله ما جعلها في أحدٍ من ولدِهِ، ولا أحدٍ من

(١) قرأ بهما نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم ـ في رواية شعبة ـ وأبو جعفر ويعقوب. التيسير ص١١٩، والنشر ٢/ ٣٧٣.
(٢) القراءات الشاذة ص١٣٩، والبحر المحيط ٨/ ٦١.
(٣) عند تفسير الآية (٢٣) منها.

أهل بيته، ولا جعلها معاويةُ إلا رحمةً وكرامةً لولده. فقال مروان: ألستَ الذي قال لوالديه: أُفٍّ لكما؟ فقال عبد الرحمن: ألستَ ابنَ اللعين الذي لعن رسولُ الله ﷺ أباك؟ فسمعَتْ عائشةُ، فقالت: [يا] مروان، أنتَ القائلُ لعبد الرحمن كذا وكذا، كذبتَ واللهِ، ما فيه نزلت، نزلَتْ في فلان بن فلان(١).

وفي رواية تقدَّمت رواها جماعةٌ وصحَّحها الحاكم عن محمد بن زياد أنها كذَّبته ثلاثًا، ثم قالت: واللهِ ما هو به ـ تعني أخاها ـ ولو شئتُ أن أُسمِّي الذي أُنزلت فيه لَسمَّيته... إلى آخر ما مرَّ(٢)، وكان ذلك من فضض(٣) اللعنة إغاظةً لعبد الرحمن وتنفيرًا للناس عنه لئلا يلتفتوا إلى ما قاله، وما قال إلا حقًّا، فأين يزيدُ الذي تجلُّ اللعنة عنه وأين الخلافة.

ووافق بعضهم كالسُّهيلي في «الإعلام» مروانَ في زعم نزولها في عبد الرحمن(٤)، وعلى تسليم ذلك لا معنى للتعيير لاسيما من مروان، فإن الرجل أسلم وكان من أفاضل الصحابة وأبطالهم، وكان له في الإسلام غَنَاءٌ يوم اليمامة وغيره، والإسلام يجبُّ ما قبلَه، فالكافر إذا أسلم لا ينبغي أن يُعيَّر بما كان يقول.

﴿أَتَعِدَانِنِيٓ أَنْ أُخْرَجَ﴾ أبعث من القبر بعد الموت. وقرأ الحسن وعاصم وأبو عمرو ـ في رواية ـ وهشام: «أتعدانِّي» بإدغام نون الرفع في نون الوقاية(٥).

وقرأ نافع في رواية وجماعة بنون واحدة(٦).

وقرأ الحسن وشيبة وأبو جعفر ـ بخلاف عنه ـ وعبد الوارث عن أبي عمرو

---

(١) تفسير ابن كثير عند هذه الآية، والدر المنثور ٦/ ٤١، وما ورد بين حاصرتين منهما.

(٢) في أول السورة، وهو في المستدرك ٤/ ٤٨١، وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (١١٤٢٧).

(٣) قال ابن الأثير في النهاية (فضض): أي: قطعة وطائفة منها.

(٤) في التعريف والإعلام للسهيلي ص١٥٦: ويقال: نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قبل أن يسلم، وقد أنكرت ذلك عائشة رضي الله عنها.

(٥) قراءة هشام في التيسير ص١٩٩، والنشر ٢/ ٣٧٣. وهي غير مشهورة عن عاصم وأبي عمرو ونافع، والمشهور عنهم كقراءة العشرة غير هشام: «أتعدانني» بنونين خفيفتين. وينظر النشر ١/ ٣٠٣، والبدور الزاهرة ص٢٩٥.

(٦) الكشاف ٣/ ٢٢٢، والبحر المحيط ٨/ ٦٢.

وهارون بن موسى عن الجحدري، وبسام[١] عن هشام: «أتعدانَني» بنونين من غير إدغام ومع فتح الأُولى[٢]، كأنهم فَرُّوا من اجتماع الكسرتين والياء، ففتحوا للتخفيف. وقال أبو حاتم: فتح النون باطلٌ غلط. وقال بعضهم: فتح نون التثنية لغةٌ رديئةٌ، وهوَّن الأمر هنا الاجتماع.

وقرأ الحسن وابن يعمر والأعمش وابنُ مصرِّف والضحاك: «أَخْرُجَ» مبنيًّا للفاعل من الخروج[٣].

﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ أي: مضت ولم يخرج منها أحدٌ ولا بُعِث، فالمرادُ إنكارُ البعث كما قيل:

ما جاءنا أحَدٌ يخبّر أنَّه ... في جنَّة لمَّا مضى أو نارِ[٤]

وقال أبو سليمان الدمشقي: أراد: وقد خلت القرون من قبلي مُكذِّبة بالبعث، فالكلام كالاستدلال على نفي البعث.

﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ أي: يقولان: الغياث بالله تعالى منك، والمرادُ إنكارُ قوله واستعظامُه كأنهما لجأا إلى الله سبحانه في دَفْعه، كما يقال: العياذ بالله تعالى من كذا، أو يطلبان من الله عز وجل أنْ يُغيثه بالتوفيق حتى يرجِع عمَّا هو عليه من إنكار البعث ﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾ أي: قائلين، أو يقولون له ذلك، وأصل «ويل» دعاء بالثُّبور يُقامُ مقام الحثِّ على الفعل أو تركه إشعارًا بأن ما هو مرتكِبٌ له حقيقٌ بأن يَهْلِكَ مرتكبُه وأن يُطلب له الهلاكِ، فإذا أسمع ذلك كان باعثًا على ترك ما هو فيه والأخذِ بما يُنجيه. وقيل: إن ذلك لأنَّ فيه إشعارًا بأن الفعل الذي أُمر به مما يُحسَد عليه فَيُدْعى عليه بالثُّبور، فإذا سمع ذلك رغب فيه. وأيًّاما كان فالمراد هنا الحثُّ والتحريض على الإيمان، لا حقيقةُ الدعاء بالهلاك.

---

(١) كذا في الأصل و(م)، ولعله: محمد بن محمد بن بسام البسامي، روى القراءة عن هشام. كذا ذكره ابن الجزري في غاية النهاية ٢/ ٢٣٩.
(٢) القراءات الشاذة ص١٣٩، والبحر ٨/ ٦٢.
(٣) القراءات الشاذة ص١٣٩، وتفسير القرطبي ١٩/ ٢٠١، والبحر ٨/ ٦٢.
(٤) ذكره الشهاب في حاشيته ٨/ ٣٢ دون نسبة.

﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: البعث، وأضاف الوعد إليه تعالى تحقيقًا للحقِّ وتنبيهًا على خطئه في إسناد الوعد إليهما.

وقرأ الأعرج وعمرو بن فائد: «أَنَّ» بفتح الهمزة[1]، على تقدير: لأنَّ، أو: آمِن بأنَّ وعدَ الله حقٌّ، ورُجِّح الأول بأنَّ فيه توافقَ القراءتين.

﴿فَيَقُولُ﴾ مُكذِّبًا لهما: ﴿مَا هَٰذَآ﴾ الذي تُسمِّيانه وعدَ الله تعالى ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾﴾ أباطيلهم التي سطروها في الكتب مِن غير أن يكونَ لها حقيقة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ القائلون ذلك، وقيل: أي: صنف هذا المذكور بناءً على زعم خصوص «الذي»، وليس بشيء.

﴿ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ وهو قوله تعالى لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥] وقد مرَّ تمام الكلام في ذلك. ورُدَّ بهذا على مَن زعم أنَّ الآيَةَ في عبد الرحمن بن أبي بكر لأنه رضي الله عنه أسلم وجُبَّ عنه ما قبلُ، وكان من أفاضل الصحابة، ومن حقَّ عليه القولُ هو مَن عَلِمَ اللهُ تعالى أنه لا يُسلمُ أبدًا.

وقيل: الحكم هنا على الجنس فلا يُنافي خروجَ البعض من أحكامه الأخروية.

وقيل غيرُ ذلك مما لا يُلتفتُ إليه.

﴿فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم﴾ في مقابلة: «في أصحاب الجنة»، فهو مثله إعرابًا ومبالغةً ومعنًى، وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ بيانٌ للأمم ﴿إِنَّهُمْ﴾ جميعًا ﴿كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ قد ضيَّعوا فطرتَهم الأصلية الجارية مجرى رؤوس أموالهم باتِّباع الشيطان، والجملة تعليلٌ للحكم بطريق الاستئناف.

وقرأ العباس عن أبي عمرو: «أنهم» بفتح الهمزة[2] على تقدير: لأنهم.

واستُدلَّ بقوله عز وجل: (فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ) إلخ على أن الجنَّ يموتون قرنًا بعد

(١) ذكرها أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ٦٢.
(٢) المصدر السابق.

قرن كالإنس. وفي «البحر»[1]: قال الحسن في بعض مجالسه: الجِنُّ لا يموتون، فاعترضه قتادة بهذه الآية، فسكت.

﴿وَلِكُلٍّ﴾ من الفريقين المذكورَيْن في قوله تعالى: (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ) وفي قوله سبحانه: (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ) وإنْ شئتَ فقل في: «الذين قالوا ربنا الله» و«الذي قال لوالديه أف» = ﴿دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ﴾ أي: من جزاء ما عملوا، فالكلام بتقدير مضاف، والجارُّ والمجرور صفة «درجات»، و«من» بيانية أو ابتدائية، و«ما» موصولة، أي: من الذي عملوه من الخير والشَّرِّ، أو مصدرية، أي: من عملهم الخيرَ والشرّ، ويجوز أن تكون «من» تعليلية بدون تقدير مضاف، والجارّ والمجرور كما تقدَّم.

والدرجات جمع: دَرَجة، وهي نحو المنزلة، لكن يقال للمنزلة: درجة، إذا اعتُبرت بالصعود، و: دَركاً إذا اعتُبرت بالحدور، ولهذا قيل: درجات الجنة، ودَرَكات النار.

والتعبير بالدرجات ـ كما قال غيرُ واحد ـ على وجه التغليب؛ لاشتمال «كلّ» على الفريقين، أي: لكلٍّ منازلُ ومراتبُ سواء كانت درجات أو دركات، وإنما غُلِّب أصحابُ الدرجات لأنهم الأَحِقَّاء به، لاسيما وقد ذُكر جزاؤهم مرارًا وجزاء المقابل مرَّة.

﴿وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي: جزاءَ أعمالهم، والفاعلُ ضميره تعالى.

وقرأ الأعمش والأعرج وشيبة وأبو جعفر والأخوان وابن ذكوان ونافع بخلاف عنه: «لِنُوَفِّيهم» بنون العظمة[2]، وقرأ السُّلمي بتاء فوقية[3] على الإسناد للدرجات مجازًا.

﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٩﴾ بنَقْصِ ثوابٍ وزيادةِ عقابٍ، وقد مرَّ الكلام في مثله غير مرَّة. والجملة حال مؤكِّدة للتوفية أو استئنافٌ مُقرِّرٌ لها، واللام متعلِّقة بمحذوف

---

(١) ٨/ ٦٢.
(٢) قراءة الأخوين ـ وهما حمزة والكسائي ـ ونافع وأبي جعفر في التيسير ص١٩٩، والنشر ٢/ ٣٧٣، والبحر ٨/ ٦٢.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٦٢.

مؤخَّر، كأنه قيل: وليوفِّيهم أعمالهم ولا يظلمهم فَعَلَ ما فَعَلَ من تقدير الأجزية على مقادير أعمالهم، فجَعَلَ الثواب درجات والعقابَ دَرَكات.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: يُعذَّبون بها، من قولهم: عُرض بنو فلان على السيف: إذا قتلوا به، وهو مجاز شائع، وذهب غيرُ واحد إلى أنه من باب القَلْب المعنوي، والمعنى: يوم تُعرض النار على الذين كفروا، نحو: عرضتُ الناقة على الحوض، فإن معناه أيضًا كما قالوا: عرضتُ الحوضَ على الناقة؛ لأنَّ المعروضَ عليه يجب أن يكون له إدراكٌ ليميل به إلى المعروض أو يرغب عنه، لكن لمَّا كان المناسبُ هو أن يُؤْتَى بالمعروض عند المعروض عليه، ويُحرَّك نحوَه، وهاهنا الأمر بالعكس، لأن الحوضَ لم يُؤْتَ به، وكذا النار = قُلِبَ الكلامُ رعايةً لهذا الاعتبار.

وفي «الانتصاف»: إن كان قولهم: عرضتُ الناقةَ على الحوض، مقلوبًا، فليس قوله تعالى: (وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ) كذلك؛ لأن المُلجئ ثَمَّ إلى اعتقاد القلب أن الحوضَ جمادٌ لا إدراك له والناقة هي المُدركة، فهي التي يُعرض عليها الحوض حقيقة، وأما النار فقد وردت النصوصُ بأنها حينئذ مُدركة إدراكَ الحيوانات، بل إدراك أُولي العلم، فالأمر في الآية على ظاهره، كقولك: عرضت الأسرى على الأمير[١].

وربما يقال: لا مانع من تنزيلها منزلةَ المُدرِك إن لم تكن حينئذ مُدركة، وكذا تنزيلُ الحوض منزلته حتى كأنه يستعرض الناقةَ، كما قال أبو العلاء المعري:

إذا اشتاقت الخيلُ المناهلَ أَعْرَضَتْ عن الماء فاشتاقت إليها المناهلُ[٢]

وبعد ذلك قد لا يحتاج إلى اعتبار القلب، وقال أبو حيان[٣]: لا ينبغي حمل القرآن على القلب، إذ الصحيحُ فيه أنه مما يُضطر إليه في الشعر، وإذا كان المعنى صحيحًا واضحًا بدونه فأيّ ضرورة تدعو إليه؟! والمثال المذكور لا قلب فيه أيضًا، فإنَّ عرضَ الناقة على الحوض وعرض الحوض على الناقة كلٌّ منهما صحيح، إذ

(١) الانتصاف بحاشية الكشاف ٣/ ٥٢٣.
(٢) شروح سقط الزند (القسم الثاني) ص ٥٤١.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٦٣.

العرض أمرٌ نسبي يصحُّ إسناده لكلٍّ واحد من الناقة والحوض.

وابن السكيت في كتاب «التوسعة» ذهب إلى أن: عرضت الحوضَ على الناقة، مقلوبٌ، والأصل إنما هو: عرضت الناقة على الحوض، وهو مخالفٌ للمشهور.

وأنت تعلم مما ذكرنا أولًا أن سببَ اعتبارهم القلب في المثال كون المناسب في العرض أن يؤتى بالمعروض عند المعروض عليه، وأن الأمر في: عرضت الحوض على الناقة بالعكس. وتفصيلُ الكلام في ذلك على وجه يُعرف منه منشأ الخلاف: أن العرض مطلقًا لا يقتضي ذلك، وإنما المقتضي له المعنى المقصود من العرض في المثال، وهو الميلُ إلى المعروض، ومن لم ينظر إلى هذا المعنى ونظر إلى أن المعروض يتحرك إلى المعروض عليه قال: إنه الأصل، ومن لم ينظر إلى الاعتبارين وقال: العرضُ إظهار شيء لشيء قال: إن كلًّا من القولين على الأصل، وهو - كما قال العلامة السيالكوتي - الحقُّ، لأنَّ كلا الاعتبارين خارجٌ عن مفهوم العرض، فاحفَظْه فإنه نفيس.

والظرف منصوبٌ بقولٍ محذوفٍ مَقولُه قولُه تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ﴾ إلى آخره، أي: فيقال لهم يوم يُعرضون: أذهبتم لذَّاتكم ﴿فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ باستيفائها ﴿وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ فلم يبقَ لكم بعدُ شيء منها، وهو عطفُ تفسير لـ «أذهبتم».

وقرأ قتادة ومجاهد وابن وثَّاب وأبو جعفر والحسن والأعرج وابن كثير: «آذهبتم» بهمزة بعدها مدَّة مطولة، وابن عامر بهمزتين حقَّقهما ابنُ ذكوان، وليَّن الثانية هشام وابن كثير في رواية، وعن هشام الفصل بين المحقَّقة والمُليَّنة بألف[1].

والاستفهام على معنى التوبيخ فهو خبر في المعنى، ولو كان استفهامًا محضًا لم تدخل الفاء في قوله سبحانه: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي: الهوان، وكذلك

(١) قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بهمزتين مفتوحتين على الاستفهام، وكلٌّ على أصله من التسهيل وغيره، فابن كثير ورويس يسهلان من غير إدخال، وأبو جعفر يسهل مع الإدخال، وهشام له التسهيل والتحقيق مع الإدخال، وابن ذكوان وروح يُحقِّقان من غير إدخال. وقرأ الباقون بهمزة واحدة على الخبر. البدور الزاهرة ص٢٩٥، وينظر السبعة لابن مجاهد ص٥٩٨، والتيسير ص١٩٩، والنشر ١/ ٣٦٦.

قرئ[1] ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ بغير استحقاق لذلك، وقد مرَّ بيانُ سِرِّ «في الأرض».

﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: تخرجون من طاعةِ الله عز وجل، أي: بسبب استكباركم وفسقكم المستمرَّين، وفي «البحر»[2]: أُريد بالاستكبار الترفُّع عن الإيمان، وبالفسق معاصي الجوارح، وقُدِّم ذنب القلب على ذنب الجوارح إذ أعمالُ الجوارح ناشئةٌ عن مُراد القلب. وقرئ: «تَفْسِقون» بكسر السين[3].

وهذه الآية مُحرِّضة على التقلُّل من الدنيا وترك التنعُّم فيها والأخذ بالتقشُّف، أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حُميد وابن المنذر والحاكم والبيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن عمر أنَّ عمر رضي الله عنه رأى في يدِ جابر بن عبد الله رضي الله عنه درهمًا، فقال: ما هذا الدِّرهم؟ قال: أُريد أن أشتري به لأهلي لحمًا قَرِمُوا[4] إليه. فقال: أكلَّما اشتهيتُم شيئًا اشتريتموه، أين تذهب عنكم هذه الآية: (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا)[5]؟!.

وأخرج ابن المبارك وابن سعد وأحمد في «الزهد» وعبد بن حُميد وأبو نُعيم في «الحلية» عن الحسن قال: قَدِمَ وفدُ أهل البصرة على عمر رضي الله عنه مع أبي موسى الأشعري، فكان له في كلِّ يومٍ خبزٌ يُلَتُّ، فربَّما وافقناه مأدومًا بزيت، وربَّما وافقناه مأدومًا بسمن، وربَّما وافقناه مأدومًا بلبن، وربَّما وافقنا القدائد اليابسة قد دُقَّت ثم أُغلي عليها، وربَّما وافقنا اللحم الغريض - أي: الطريّ - وهو قليلٌ، قال: وقال لنا عمر رضي الله عنه: إني والله ما أجهلُ عن كَرَاكرَ وأَسْنِمةٍ وعن صِلَاءٍ وصِنَابٍ وسلائقَ، ولكن وجدتُ الله تعالى عيَّر قومًا بأمرٍ فعلوه، فقال عز وجل: (أَذْهَبْتُمْ

---

(١) ذكرها أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ٦٣.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٦٣.
(٣) الكشاف ٣/ ٥٢٣.
(٤) القَرَم: شدة شهوة اللحم حتى لا يصبر عنه. النهاية (قرم).
(٥) الدر المنثور ٦/ ٤٢، والمستدرك ٢/ ٤٥٥، وشعب الإيمان (٥٦٧٢) و(٥٦٧٣)، وفي إسناده: القاسم بن عبد الله بن عمر بن حفص وهو متروك، رماه أحمد بالكذب، كما في تقريب التهذيب. ورواه بنحوه مالك في الموطأ ٢/ ٩٣٦ عن يحيى بن سعيد أن عمر...، وينظر الاستذكار ٢٦/ ٢٤٧.

طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا)[1].

والكراكر جمع كِرْكِرة بالكسرة: زَوْر البعير الذي إذا برك أصابَ الأرضَ، وهو من أطيب ما يُؤكَل منه. والأسنمة جمع سنام معروفٌ. والصِّلاء بالكسر والمدِّ: الشواء. والصِّناب ككتاب: صِباغ يُتخَذُ من الخردل والزبيب. والسلائق جمع سَليقة كسفينة: ما سُلِقَ من البقول وغيرها، ويُروى بالصاد: الخبز الرقاق، واحدتها: صَليقة كسفينة أيضًا، وقيل: هي الحِملان المشوية، وقيل: اللحم المشوي المُنضَج، وأنشدوا لجرير:

تُكلِّفني معيشةَ آلِ زيد ومَنْ لي بالصَّلائق والصِّناب[2]

وأخرج أحمد والبيهقي في «شعب الإيمان» عن ثوبان ﵁ قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر كان آخر عهده من أهله بفاطمة، وأول من يدخل عليه منهم فاطمةُ ﵂، فَقَدِمَ من غَزاة له فأتاها فإذا بِمِسْح على بابها، ورأى على الحسن والحسين قُلْبين من فضة، فرجع ولم يدخل عليها، فلما رأتْ ذلك ظَنَّتْ أنه لم يدخل من أجل ما رأى، فهتكَتِ السِّتر ونزعت القُلْبين من الصبيين فقطعتهما، فبكيا، فقسمَتْ ذلك بينهما، فانطلقا إلى رسول الله ﷺ وهما يبكيان، فأخذه رسول الله ﷺ منهما فقال: «يا ثوبان، اذهب بهذا إلى بني فلان - أهلِ بيت بالمدينة - واشترِ لفاطمة قلادةً من عَصبٍ وسوارين من عاج، فإن هؤلاء أهل بيتي ولا أحبُّ أن يأكلوا طيباتهم في حياتهم الدنيا»[3].

والمِسْح بكسر فسكون: ثوب من شعر غليظ، والقُلْبين تثنية قُلْب بضمٍّ فسكون: السِّوار. والعَصْب بفتح فسكون؛ قال الخطابي[4]: إن لم يكن الثيابَ اليمانية فما أدري ما هو، وما أرى[5] أن القلائد تكون منها، ويحتمل أن الرواية بفتح

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٤٣، والزهد لابن المبارك (٥٧٩)، والطبقات ٣/ ٢٧٩، والحلية١/ ٤٩.

(٢) ديوان جرير ٢/ ٨١٢.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٤٣، ومسند أحمد (٢٢٣٦٣)، وشعب الإيمان (٥٦٥٩)، وأخرجه أيضاً أبو داود (٤٢١٣)، وفي إسناده: حُميد الشامي وسليمان المُنَبِّهي وهما مجهولان، كما في التقريب.

(٤) معالم السنن ٤/ ٢١٢، وينظر النهاية (عصب).

(٥) في الأصل و(م): أدري، والمثبت من معالم السنن والنهاية.

الصاد وهو أطناب مفاصل الحيوان، فلعلَّهم كانوا يتخذون من طاهره مثل الخرز، قال: ثم ذكر بعضُ أهل اليمن أنَّ العصبَ سنُّ دابَّةٍ بحرية تُسمَّى: فرس فرعون، يُتَّخذُ منها الخرز البيض وغيرها.

وأحاديثُ الزهد في طيبات الحياة الدنيا كثيرةٌ، وحال رسول الله ﷺ في ذلك معروفةٌ بين الأمة، وفي «البحر» بعد حكاية حال عمر رضي الله عنه على نحو مما ذكرنا: قال ابن عباس رضي الله عنهما: وهذا من باب الزهد، وإلا فالآية نزلت في كفار قريش، والمعنى: أنه كانت لكم طيباتُ الآخرة لو آمنتم، لكنكم لم تُؤمنوا فاستعجلتم طيباتِكم في الحياة الدنيا. فهذه كنايةٌ عن عدم الإيمان، ولذلك ترتَّب عليه: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ ولو أُريد الظاهر ولم يكن كناية عما ذكرنا لم يترتَّب عليه الجزاء بالعذاب[١].

هذا، ولما كان أهلُ مكة مستغرقين في لذَّات الدنيا مُعرضين عن الإيمان وما جاء بهم الرسول ﷺ ناسبَ تذكيرهم بما جرى للعرب الأولى ممن كانوا أكثرَ أموالًا وأشدَّ قوة وأعظمَ جاهًا منهم، فسلَّط عليهم العذابَ بسبب كفرهم.

وبضربِ الأمثال وقصص من تقدَّم يُعرف قُبْحُ الشيء وحُسنه، فقال سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿وَٱذْكُرْ﴾ لكفار مكة ﴿أَخَا عَادٍ﴾ هودًا عليه السلام ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ﴾ بدل اشتمال منه، أي: وقت إنذاره إياهم ﴿بِٱلْأَحْقَافِ﴾ جمع حِقْف: رَمْلٌ مستطيل فيه اعوجاجٌ وانحناء، ويقال: احقوقَفَ الشيء: اعوجَّ، وكانوا بدويين أصحابَ خِباء وعُمُد يسكنون بين رمال، مشرفين على البحر بأرض يقال لها: الشِّحْر، من بلاد اليمن، قاله ابن زيد.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: بين عُمان ومَهْرَة. وفي رواية أخرى عنه: الأحقاف جبل بالشام. وقال ابن إسحاق: مساكنهم من عُمان إلى حضرموت. وقال ابن عطية[٢]: الصحيح أنَّ بلاد عاد كانت باليمن، ولهم كانت إرمُ ذاتُ العماد، وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلام في «إرم» وبيانُ الحقِّ فيها.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٦٣.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٠١.

﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾ أي: الرسل، كما هو المشهور، وقيل: مَنْ يعمُّهم والنُّواب عنهم، جمع نذير بمعنى مُنذر.

وجُوِّز كون النذر جمع نذير بمعنى الإنذار فيكون مصدرًا، وجُمع لأنه يختلف باختلاف المُنذَر به. وتُعقِّب بأن جمعه على خلافِ القياس، ولا حاجةَ تدعو إليه.

﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي: مِنْ قبله عليه السلام ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ أي: من بعده، وقُرئ به[1]، ولولا ذلك لجاز العكس، والظاهرُ أن المرادَ النُّذر المتقدِّمون عليه والمتأخِّرون عنه. وعن ابن عباس: يعني الرسل الذين بُعثوا قبلَه والذين بُعثوا في زمانه، فمعنى «من خلفه»: من بعد إنذاره.

وعطف «من خلفه» ـ أي: من بعده ـ على ما قبله إما من باب:

علفتها تِبنًا وماءً باردا[2]

وفيه أقوال، فقيل: عامِلُ الثاني مقدَّر، أي: وسقيتُها ماء، ويقال في الآية، أي: خلت النُّذر من بين يديه وتأتي مِن خلفه؛ وقيل: إنه مُشاكلة، وقيل: إنه من قَبيل الاستعارة بالكناية. وإما لإدخال الآتي في سلك الماضي قطعًا بالوقوع، وفيه شائبةُ الجمع بين الحقيقة والمجاز. وجُوِّز أن يقال: المُضي باعتبار الثبوت في علم الله تعالى، أي: وقد خلت النذر في علم الله تعالى، يعني ثبت في علمه سبحانه خلو الماضين منهم والآتين.

والجملة إما حال من فاعل «أَنْذَرَ» أي: إذْ أنذرَ مُعْلِمًا إياهم بخلوِّ النُّذر، أو مفعولِه، أي: وهم عالمون بإعلامه إياهم، وهو قريبٌ من أسلوب قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ الآية [البقرة: ٢٨]. ويجوز أن يكون المعنى: أنذرهم على فترة من الرسل، وهي حال أيضًا على تفسير ابن عباس، وعِلْمُ القوم يجوز أن يكون من إعلامه ومن مشاهدتهم أحوالَ من كانوا في زمانه وسماعهم أحوالَ من قبله.

---

(١) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٢٣.

(٢) وعجزه: حتى شتت همَّالة عيناها. وسلف ٥/ ٢٩١ و٦/ ٣٢٥ وغيرها.

وإما اعتراضٌ بين المُفسَّر أعني «أَنْذَرَ قومَه»، وبين المُفسِّر أعني قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ فإن النهي عن الشيء إنذار عن مَضرَّته، كأنه قيل: واذكر زمان إنذار هود قومَه بما أنذر به الرسلُ قبلَه وبعدَه، وهو أن لا تعبدوا إلا الله، تنبيهًا على أنه إنذارٌ ثابتٌ قديمًا وحديثًا اتَّفقت عليه الرسل عليهم السلام عن آخرهم فهو يؤكِّد قوله تعالى: «واذكر» ويؤكِّد قوله سبحانه: «أنذر قومه» ولذلك توسّط، وهو أيضًا مقصودٌ بالذكر، بخلاف ما إذا جعل حالًا فإنه حينئذ قيدٌ تابع، وهذا الوجهُ أولى مما قبله على ما قرَّره في «الكشف». وجوَّز بعضُهم العطفَ على «أَنذر» أي: وأعلمهم بذلك، وهو كما ترى.

وجعلت «أن» مفسِّرة لتقدُّم معنى القول دون حروفه وهو الإنذار والمُفسَّر معموله المُقدَّر، وجُوِّز كونها مصدرية وكونها مخفَّفة من الثقيلة فقبلها حرف جرٍّ مقدَّر متعلِّق بـ«أنذر»، أي: أنْذَرَهم بأن لا تعبدوا إلا الله.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٢١﴾ صفة «يوم»، وعِظَمُه مجازٌ عن كونه مَهُولًا؛ لأنه لازمٌ له، وكونُ اليوم مَهولًا باعتبار هول ما فيه من العذاب، فالإسناد فيه مجازي، ولا حاجةَ إلى جعله صفةً للعذاب والجرّ للجوار. والجملة استئناف تعليل للنهي، ويُفهم: إني أخاف عليكم ذلك بسبب شِرْككم.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا﴾ استفهامٌ توبيخي ﴿لِتَأۡفِكَنَا﴾ أي: لتَصْرِفنا ـ كما قال الضحاك ـ من الأَفْك بمعنى الصَّرْف. وقيل: أي: لِتُزيلنا بالإفك، وهو الكذب ﴿عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ أي: عن عبادتها ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من مُعاجلة العذاب على الشِّرك في الدنيا ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٢﴾ في وعدك بنزوله بنا.

﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ﴾ أي: بوقت نزوله، أو العلم بجميع الأشياء التي من جملتها ذلك ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وحدَه لا علمَ لي بوقت نزوله، والكلام كنايةٌ عن أنه لا يَقدِرُ عليه ولا على تعجيله؛ لأنه لو قَدَرَ عليه وأراده كان له علمٌ به في الجملة، فنفيُ علمه به المدلولُ عليه بالحصر نفيٌ لمدخليته فيه حتى يطلبَ تعجيلَه من الله عز وجل ويدعو به. وبهذا التقرير عُلم مطابقةُ جوابه عليه السلام لقولهم: «ائتنا»: فيأتيكم به في وقته المُقدَّر له.

﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾ من مواجب الرسالة التي من جُملتها بيانُ نزول العذاب إذ لم تنتهوا عن الشِّرك.

وقرأ أبو عمرو: «أُبْلِغكم» من الإبلاغ[1].

﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٣﴾ شأنكم الجهل، ومن آثار ذلك أنكم تقترحون عليَّ ما ليس من وظائف الرُّسل من الإتيان بالعذاب.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا﴾ فصيحةٌ، أي: فأتاهم فلمَّا رَأَوْه، وضمير النصب قيل: راجعٌ إلى «ما» في «بما تعدنا»، وكونُ المرئيِّ هو الموعود باعتبار المآل والسببية له، وإلا فليس هو المرئي حقيقة، وجوز الزمخشري[2] أن يكون مُبهمًا يُفسِّره «عارضًا» وهو إما تمييزٌ وإما حال، ثم قال: وهذا الوجهُ أَعْربُ ـ أي: أبينُ وأظهرُ؛ لما أَشرنا إليه في الوجه الأول من الخَفاء ـ وأفصحُ لما فيه من البيان بعد الإبهام والإيضاحِ غِبَّ التعمية.

وتعقَّبه أبو حيان[3] بأنَّ المُبهم الذي يُفسِّره ويُوضحه التمييز لا يكون إلا في باب رُبَّ، نحو: رُبَّه رجلًا لقيته، وفي باب نِعْمَ وبئس على مذهب البصريين نحو: نِعْم رجلاً زيدٌ، وبئس غلامًا عمرو، وأما أن الحالَ تُوضح المبهمَ وتُفسِّره فلا نعلم أحدًا ذهب إليه، وقد حصر النحاةُ المُضمر الذي يُفسِّره ما بعده فلم يذكروا فيه مفعول رأى إذا كان ضميرًا، ولا أن الحال يفسّر الضمير ويوضحه.

وأنت تعلم جلالة جار الله وإمامته في العربية.

والعارض: السحاب الذي يعرض في أفق السماء، ومنه قول الشاعر:

يا مَنْ رأى عارضًا أَرِقْتُ له   بين ذراعَيْ وجبهةِ الأسدِ[4]

---

(١) التيسير ص١١١، والنشر ٢/ ٢٧٠.

(٢) في الكشاف ٣/ ٥٢٤.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٦٤.

(٤) البيت للفرزدق، وهو في الكتاب ١/ ١٨٠، والحُلَل في شرح أبيات الجمل للبطليوسي ص٢١٣، وخزانة الأدب ٢/ ٣١٩، وجاء في الكتاب والخزانة: أُسَرُّ به، بدل: أرقت له، ولم نقف عليه في الديوان.

وقول الأعشى:

يا مَنْ رأى عارضًا قد بِتُّ أرمقُه كأنمَّا البرقُ في حَافاتِهِ الشُّعَل[1]

﴿مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ﴾ أي: مُتوجِّه أوديتهم وفي مُقابلتها، وهي جمع وادٍ، وأَفْعلة في جمع فاعل الاسم شاذٌّ نحو: نادٍ وأندية، وجائز ـ للخشبة المُمتدة في أعلى السَّقف ـ وأَجوِزة، والإضافة لفظيةٌ كما في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ﴾ ولذلك وقعا صفتين للنكرة، وأطلق عليها الزمخشري[2] مجازيةً، ووجه التجوُّز أنَّ هذه الإضافة للتوسُّع والتخفيف حيث لم تُفِد فائدةً زائدة على ما كان قبلُ، فكما أنَّ إجراء الظرف مُجرى المفعول به مجازٌ، كذلك إجراء المفعول أو الفاعل مُجرى المضاف إليه في الاختصاص، ولم يُرِد أنها من باب الإضافة لأدنى مُلابسة.

﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ﴾ أي: من العذاب، والكلامُ على إضمار القول قبلَه، أي: قال هود: «بل هو» إلخ؛ لأن الخطاب بينه وبينهم فيما سبق، ويُؤيِّده أنه قُرئ كذلك[3]، وقدَّره بعضهم: قل: بل هو. . إلخ، للقراءة به أيضًا[4]، والاحتياج إلى ذلك لأنه إضرابٌ، ولا يصلحُ أن يكون من مقول من قال: «هذا عارضٌ مُمطرنا». وقدَّر البغوي[5]: قال الله: بل هو. . إلخ، وينفكُّ النظمُ الجليل عليه كما لا يخفى.

وقرئ: «بل ما استعجلتم»[6] أي: بل هو، وقرأ قومٌ: «ما استُعجِلتم» بضمِّ التاء وكسر الجيم[7].

﴿رِيحٞ﴾ بدل من «ما» أو من «هو»، أو خبر لمبتدأ محذوف، أي: هي ـ أو هو ـ ريح ﴿فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٤﴾ صفة «ريح» لكونه جملةً بعد نكرة، وكذا قوله تعالى:

---

(١) ديوان الأعشى ص١٠٧، وفيه: أرقبه، بدل: أرمقه.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٠.

(٣) المحتسب ٢/ ٢٦٥، وعزاها لابن مسعود.

(٤) الكشاف ٣/ ٥٢٤، وفيه: «قل بل ما استعجلتم به هي ريح» ولم ينسبها.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٧٠.

(٦) الكشاف ٣/ ٥٢٤.

(٧) البحر المحيط ٨/ ٦٤.

﴿تُدَمِّرُ﴾ أي: تُهلك ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من نفوسهم وأموالهم، أو مما أُمرت بتدميره ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ ويجوز أن يكونَ مستأنفًا.

وقرأ زيد بن عليٍّ: «تَدْمُر» بفتح التاء وسكون الدال وضمِّ الميم، وقرئ كذلك أيضًا إلا أنه بالياء، ورفع «كلّ»[1] على أنه فاعل «يَدْمُر» وهو من دمر دمارًا، أي: هلك، والجملة صفةٌ أيضًا، والعائد محذوفٌ، أي: بها، أو الضمير من «ربها» ويجوز أن يكون استئنافًا كما في قراءة الجمهور وارداً لبيان[2] أنَّ لكلٍّ ممكن وقتًا مقضيًّا منوطًا بأمر بارئه لا يتقدَّم ولا يتأخَّر، ويكون الضميرُ من «ربها» لكلِّ شيء، فإنه بمعنى الأشياء. وفي ذكر الأمر والربِّ والإضافة إلى الريح من الدلالة على عظمة شأنه عز وجل ما لا يخفى.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ فصيحة، أي: فَجَأتهم الريحُ فدمَّرتهم فأَصبحوا لا يُرى إلا مساكنهم، وجعلها بعضُهم فاءَ التعقيب على القول بإضمار القول مسندًا إليه تعالى، وادَّعى أنه ليس هناك قولٌ حقيقة بل هو عبارة عن سرعة استئصالهم وحصول دمارهم من غير رَيْث، وهو كما ترى.

وقرأ الجمهور: «لا تَرى» بتاء الخطاب «إلا مساكنَهم» بالنصب[3]، والخِطاب لكلِّ أحدٍ تتأتَّى منه الرؤية تنبيهًا على أنَّ حالهم بحيث لو حضر كلُّ أحدٍ بلادَهم لا يَرى إلا مساكنَهم، أو لسيِّد المخاطبين ﷺ.

وقرأ أبو رجاء ومالك بن دينار ـ بخلاف عنهما ـ والجحدري والأعمش وابن أبي إسحاق والسُّلمي: «لا تُرى» بالتاء من فوق مضمومة «إلا مساكنُهم» بالرفع[4]، وجمهورُ النُّحاة على أنه لا يجوز التأنيثُ مع الفصل بـ «إلَّا» إلا في الشعر، كقول ذي الرُّمة:

---

(١) تفسير القرطبي ١٩/ ٢١٥، والبحر المحيط ٨/ ٦٤.
(٢) في (م): وأراد البيان، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٨/ ٨٦، والكلام منه.
(٣) التيسير ص٢٠٠، والنشر ٢/ ٣٧٣. وقرأ عاصم وحمزة ويعقوب وخلف: «لا يُرى إلا مساكنُهم».
(٤) المحتسب ٢/ ٢٦٥، والبحر المحيط ٨/ ٦٥.

كأنها جمل وَهْمٌ[١] وما بقيت إلا النحيزةُ والألواحُ والعصبُ[٢]

وقول الآخر وعزاه ابن جنّي لذي الرمة أيضًا:

بَرَى النحزُ والأجرالُ ما في غروضها وما بقيت إلا الضلوع الجراشع[٣]

وبعضهم يُجيزه مطلقًا، وتمامُ الكلام فيه في محلّه.

وقرأ عيسى الهمداني: «لا يُرى» بضمِّ الياء التحتية، «إلا مسكنُهم» بالتوحيد والرفع، ورُوي هذا عن الأعمش ونصر بن عاصم، وقرئ: «لا تَرى» بتاء فوقية مفتوحة «إلا مسكنَهم» مفردًا منصوبًا[٤]، وهو الواحد الذي أُريد به الجمع، أو مصدر حُذف مضافه، أي: آثارَ سكونهم.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الجزاء الفظيع ﴿نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب «السحاب»، وأبو الشيخ في «العظمة»، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قوله تعالى: (فَلَمَّا رَأَوْهُ) الآية: أول ما عرفوا أنه عذاب رأوا[٥] ما كان خارجًا من رحالهم ومواشيهم يطير بين السماء والأرض مثلَ الريش، فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابَهم، فجاءت الريح ففتحت أبوابَهم ومالت عليهم بالرمل، فكانوا تحت الرمل سبعَ ليال وثمانيةَ أيام حسومًا، لهم أنينٌ، فأمر اللهُ تعالى الريحَ فكشفَتْ عنهم الرملَ وطرحتهم في البحر، فهو قوله تعالى: (فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ)[٦].

وروي أنَّ أول من أبصر العذاب امرأةٌ منهم رأت ريحًا فيها كشهب النار. ورُوي أن هودًا عليه السلام لما أحسَّ بالريح خطَّ على نفسه وعلى المؤمنين خطًّا إلى جنب عين تنبع.

---

(١) في الأصل و(م) والبحر ٨/ ٦٥ (والكلام منه): كأنه جمل هم، والمثبت من الديوان.

(٢) ديوان ذي الرمة ١/ ٤٣، قال الشارح: الجمل الوَهْم: الضخم. والنحيزة: الطبيعة، وألواحها: عظامها.

(٣) المحتسب ٢/ ٢٦٦، وهو في ديوان ذي الرمة ٢/ ١٢٩٦ برواية: طوى النحز والأجراز...، قال الشارح: النحز: ضرب الأعقاب والاستحثاث في السير، والجراشع: المنتفخ الجَنْبَيْن.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٦٥.

(٥) في (م) والأصل: ما رأوا، والمثبت من المصادر.

(٦) الدر المنثور ٦/ ٤٣، والعظمة (٨٣٩).

وعن ابن عباس: أنه عليه السلام اعتزل ومن معه في حظيرةٍ ما يُصيبهم من الريح إلا ما يلين به الجلود وتلذُّه الأنفس، وإنها لتمرُّ من عاد بالظعن بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة. وكانت ـ كما أخرج ابنُ أبي شيبة وابن جرير عن عمرو بن ميمون ـ تجيء بالرجل الغائب[1]. ومرَّ في سورة الأعراف مما يتعلَّق بهم ما مرَّ، فارجع إليه[2] إنْ أردته.

ولما أصابهم من الريح ما أصابهم كان ﷺ يدعو إذا عصفَت الريح، أخرج مسلمٌ والترمذي والنسائي وابن ماجه وعبد بن حُميد عن عائشة ﵂ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريحُ قال: «اللهم إني أسألُكَ خيرَها وخيرَ ما فيها وخيرَ ما أُرسلت به، وأعوذُ بك من شرِّها وشرِّ ما فيها وشرِّ ما أُرسلَتْ به»، فإذا أَخْيَلت السماء تغيَّر لونُه ﷺ وخرجَ ودخل وأَقبلَ وأدبرَ، فإذا مطرت سُرِّي عنه، فسألته، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا أدري لعلَّه كما قال قومُ عاد: (هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا)»[3].

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ﴾ أي: قررنا عادًا وأقدرناهم، و«ما» في قوله تعالى: ﴿فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ موصولة أو موصوفة، و«إن» نافية، أي: في الذي ـ أو في شيء ـ ما مكنَّاكم فيه من السعة والبسطة وطول الأعمار وسائر مبادي التصرفات كما في قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ [الأنعام: ٦] ولم يكن النفي بلفظ «ما» كراهةً لتكرير اللفظ وإن اختلف المعنى، ولذا قال مَن ذهب إلى أنَّ أصلَ مهما ماما على أنَّ ما الشرطية مكرَّرة للتأكيد: قلبت الألف الأُولى هاء فرارًا من كراهة التكرار. وعابوا على المتنبي قوله:

لعمرك ما ما بانَ منك لضاربٍ ... بأقتلَ مما بانَ منكَ لعائبِ[4]

(١) الدر المنثور ٦/ ٤٤، ومصنف ابن أبي شيبة ١١/ ٥٥١، وتفسير الطبري ٢١/ ١٥٧.

(٢) في (م): إليهم.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٤٣، وصحيح مسلم (٨٩٩)، وسنن الترمذي (٣٤٤٩)، وسنن النسائي (١٠٧١٠)، وسنن ابن ماجه (٣٨٩١) واللفظ لمسلم. وأخرجه البخاري (٤٨٢٩) بنحوه. وقوله: أخيلت السماء: تهيأت للمطر. القاموس (خيل).

(٤) ديوان المتنبي ١/ ٢٨٥، وفيه: يرى أنَّ، بدل: لعمرك.

أي: ما الذي بان.. إلخ، يريد: لسانه لا يتقاعد عن سِنانه؛ هذا للعائب وذلك للضارب، وكان يسعه أن يقول: إنْ ما بان، وإدخال الباء للنفي لا للعمل، على أنّ إعمال «إنْ» قد جاء عن المبرِّد.

وقيل: «إنْ» شرطية محذوفةُ الجواب، والتقدير: إنْ مكنّاكم فيه طغيتم.

وقيل: إنها صلة بعد «ما» الموصولة تشبيهًا بـ «ما» النافية و«ما» التوقيتية، فهي في الآية مثلها في قوله:

يُــرَجِّــي الــمــرءُ مــا إن لا يــراه وتَــعــرضُ دون أدنــاه الــخــطــوبُ[١]

أي: مكنّاهم في مثل الذي مكنّاكم فيه. وكونها نافيةً هو الوجه؛ لأن القرآنَ العظيم يدلُّ عليه في مواضع، وهو أبلغُ في التوبيخ وأدخلُ في الحثّ على الاعتبار.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ ليستعملوها فيما خُلقت له ويعرفوا بكلٍّ منها ما نيطتْ به معرفتُه من فنون النِّعم، ويستدلُّوا بها على شؤون مُنعمها عز وجلٍ ويُداوموا على شُكره جلَّ شأنه ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ﴾ حيث لم يستعملوه في استماع الوحي ومواعظ الرسل ﴿وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ حيث لم يجتلوا بها الآيات التكوينية المرسومة في صحائف العالم ﴿وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم﴾ حيث لم يستعملوها في معرفة الله تعالى ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ أي: شيئًا من الإغناء، و«من» مَزيدة للتوكيد، والتنوين للتقليل.

وجوّز أن تكون تبعيضية، أي: ما أغنى بعضَ الإغناء، وهو القليل. و«ما» في «ما أغنى» نافية، وجوّز كونها استفهامية. وتعقَّبه أبو حيَّان بأنه يلزم عليه زيادة «من» في الواجب[٢]، وهو لا يجوز على الصحيح. ورُدَّ بأنهم قالوا: تُزاد في غير الموجب، وفسَّروه بالنفي والنهي والاستفهام.

---

(١) نوادر أبي زيد ص٦٠، ونسبه لجابر بن رَألان الطائي الجاهلي، والصاهل والشاحج ص٢٥٤، والخزانة ٨/ ٤٤٠.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٦٥.

وإفرادُ السمع في النظم الجليل وجمعُ غيره لاتّحاد المُدرك به، وهو الأصوات، وتعدد مدركات غيره، أو لأنه في الأصل مصدر، وأيضًا مسموعهم من الرسل متَّحد.

﴿إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ ظرف متعلِّق بالنفي الصريح أو الضمني في قوله تعالى: «ما أغنى» وهو ظرفٌ أُريد به التعليل كنايةً لاستواء مؤدَّى الظرف، والتعليل في قولك: ضربته لإساءته، وضربته إذ أساء، لأنك إنما ضربته في ذلك الوقت لوجود الإساءة فيه، وهذا مما غُلِّب في «إذ» و«حيث» من بين سائر الظروف حتى كاد يلحق بمعانيهما الوضعية.

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾﴾ من العذاب الذي كانوا يستعجلونه بطريق الاستهزاء ويقولون: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم﴾ يا أهل مكة ﴿مِّنَ الْقُرَىٰ﴾ كحِجْر ثمود وقرى قوم صالح، والكلام بتقدير مضاف، أو تجوّز بالقُرى عن أهلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾ أي: كرَّرناها ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ وأمر «ما» سهل، والترجِّي مصروفٌ لغيره تعالى، أو «لعل» للتعليل، أي: لكي يرجعوا عمَّا هم فيه من الكفر والمعاصي إلى الإيمان والطاعة.

﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ﴾ فهلا منعهم من الهلاك الذي وقعوا فيه ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ أي: آلهتهم الذين اتخذوهم. ﴿مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ والضمير الذي قدَّرناه عائدًا هو المفعول الأول لـ «اتخذوا»، و«آلهة» هو المفعول الثاني، و«قربانًا» بمعنى متقرَّبًا بها حال، أي: اتخذوهم آلهةً من دون الله حال كونها مُتقرَّبًا بها إلى الله عز وجل حيث كانوا يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] و﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وفي الكلام تهكُّم بهم.

وأجاز الحوفي كون «قربانًا» مفعولًا من أجله، وأجاز هو أيضًا وابن عطية ومكيّ وأبو البقاء كونه المفعول الثاني لـ «اتخذوا»(١) وجعل «آلهة» بدلًا منه، وقال

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٠٣، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٦٩، والإملاء ٤/ ٣٢٣.

في «الكشاف»: لا يصح ذلك لفساد المعنى[١]. ونُقل عنه في بيانه أنه لا يصح أن يقال: تقرَّبوا بها من دون الله، لأنَّ الله تعالى لا يُتقرَّب به، وأراد كما في «الكشف» أنه إذا جعل مفعولًا ثانيًا يكون المعنى: فلولا نصرهم الذين اتَّخذوهم قربانًا بدل الله تعالى، أو متجاوزين عن أخذه تعالى قربانًا إليهم، وهو معنى فاسد.

واعتُرض عليه بجعل «دون» بمعنى قُدَّام، كما قيل به في قوله تعالى: ﴿وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣] وبأنه قد قيل: إن قربانًا مفعول له، فهو غير مختصّ بالمتقرَّب به، وجاز أن يُطلق على المتقرَّب إليه، وحينئذ يلتئم الكلام.

وأُجيب عن الأول بأنه غير قادح لأنه مع نزارة استعمال «دون» بمعنى قُدَّام لا يصلح ظرف الاتّخاذ[٢] لأنه ليس بين يدي الله تعالى، وإنما التقرُّب بين يديه تعالى ولأجله سبحانه، واتّخاذهم قربانًا ليس التقرب به، لأن معناه تعظيمهم بالعبادة ليشفعوا بين يدي الله عز وجل ويُقرِّبوهم إليه سبحانه، فزمان الاتِّخاذ ليس زمانَ التقرب البتة، وحينئذ إن كان مستقرًّا حالًا لَزِمَ ما لَزِمَ في الأول. ولا يجوز أن يكونَ معمول «قربانًا» لأنه اسمٌ جامدٌ بمعنى ما يُتقرَّب به فلا يصلح عاملًا كالقارورة وإن كان فيها معنى القرار، وفيه نظر.

وأُجيب عن الثاني بأن الزمخشري بعد أن فسَّر القربان بما يتقرَّب به ذكر هذا الامتناع على أن قوله تعالى بعد: (بَلۡ ضَلُّواْ) إلخ ينادي على فساد ذلك أرفعَ النداء.

وقال بعضهم في امتناع كون «قربانًا» مفعولًا ثانيًا و«آلهة» بدلًا منه: إن البدل وإن كان هو المقصودَ لكن لا بدَّ في غير بدل الغلط من صحة المعنى بدونه، ولا صحةَ لقولهم: اتخذوهم من دون الله قُربانًا، أي: ما يُتقرَّب به، لأن الله تعالى لا يُتقرَّب به، بل يُتقرَّب إليه، فلا يصح أنهم اتخذوهم قربانًا مُتجاوزين الله تعالى في ذلك. وجنح بعضُهم إلى أنه يصحُّ أن يقال: الله تعالى يُتقرَّب به، أي: برضاه تعالى والتوسل به جلَّ وعلا.

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٢٦.

(٢) كذا في الأصل و(م)، وجاء في حاشية الشهاب ٨/ ٣٦: لا يصلح ظرفاً للاتخاذ. وهو الأنسب بالسياق.

وقال الطيبي: إن الزمخشري لم يُرد بفساد المعنى إلا خلافَ المعنى المقصود، إذ لم يكن قصدُهم في اتِّخاذهم الأصنام آلهةً على زعمهم إلا أن يتقرَّبوا بها إلى الله تعالى كما نطقَتْ به الآياتُ، فتأمَّل.

وقرئ: «قُرُبانًا» بضمِّ الراء[1].

﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ أي: غابوا عنهم، وفيه تهكُّم بهم أيضًا كأنَّ عدمَ نصرهم لغيبتهم، أو ضاعوا عنهم، أي: ظهر ضياعُهم عنهم بالكُلِّيَّة، وقد امتنع نصرُهم الذي كانوا يؤمِّلونه امتناعَ نصر الغائب عن المنصور.

﴿وَذَلِكَ﴾ أي: ضلال آلهتهم عنهم ﴿إِفْكُهُمْ﴾ أي: أَثَرُ إفكهم، أي: صرفِهم عن الحقِّ واتخاذِهم إياها آلهة، ونتيجةُ شِرْكهم ﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي: وأَثَرُ افترائهم وكذبهم على الله تعالى، أو أَثَرُ ما كانوا يفترونه على الله عز وجل. وقيل: «ذلك» إشارة إلى اتِّخاذ الأصنام آلهةً، أي: ذلك الاتخاذ الذي أثره ضلال آلهتهم عنهم كذبُهم وافتراؤهم، أو: والذي كانوا يفترونه، وليس بذاك وإن لم يُحوج إلى تقدير مضاف.

وقرأ ابن عباس في رواية: «أَفْكُهم» بفتح الهمزة[2]، والإِفْك والأَفْك مصدران كالحِذْر والحَذَر.

وقرأ ابن الزبير والصباح بن العلاء الأنصاري وأبو عياض وعكرمة وحنظلة بن النعمان بن مرة ومجاهد، وهي رواية عن ابن عباس أيضًا: «أَفَكَهم» بثلاث فتحات[3]، على أن أَفَكَ فعلٌ ماضٍ، وحينئذ الإشارة إلى الاتِّخاذ، أي: ذلك الاتِّخاذ صَرَفَهم عن الحقّ، «وما كانوا» قيل: عطف على «ذلك»، أو على الضمير المستتر، وحَسُنَ للفصل، أو هو مبتدأ والخبر محذوفٌ، أي: كذلك، والجملة حينئذ معطوفةٌ على الجملة قبلها.

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٢٦، وتفسير القرطبي ١٩/ ٢١٩.

(٢) وفتح الفاء أيضًا، ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٦٨.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٣٩، والمحتسب ٢/ ٢٦٧، والبحر ٨/ ٦٦.

وأبو عياض وعكرمة أيضًا كذلك إلا أنهما شدَّدا الفاء للتكثير. وابن الزبير أيضًا وابن عباس فيما ذكر ابن خالويه: «آفَكهم» بالمدِّ(١)، فاحتمل أن يكون فاعَلَ فالهمزة أصلية، وأن يكون أَفْعَلَ والهمزة للتعدية، أي: جَعَلهم يأفكون؛ وجوّز أن تكون للوِجدان كأَحْمَدْتُه، وأن يكون أَفْعَلَ بمعنى فَعَلَ. وحكى في «البحر» أنه قُرِئ: «أَفَكُهم» بفتح الهمزة والفاء وضمِّ الكاف، وهي لغة في الإفك(٢).

وقرأ ابن عباس فيما روى قطرب وأبو الفضل الرازي: «آفِكُهم» اسم فاعل من أَفَكَ(٣)، أي: وذلك الاتخاذ صارفُهم عن الحق.

وقرئ: «وذلك إفكٌ مما كانوا يفترون»(٤) والمعنى: ذلك بعضُ ما يفترون من الإفك، أي: بعض أكاذيبهم المفتريات، فالإفك بمعنى الاختلاق، فلا تغفل.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي: أَمَلْناهم إليك ووجَّهناهم لك، والنفر على المشهور ما بين الثلاثة والعشرة من الرجال، لأنه من النفير، والرجال هم الذين إذا حزبهم أمرٌ نفروا لكفايته، والحقّ أن هذا باعتبار الأغلب، فإنه يُطلق على ما فوق العشرة في الفصيح، وقد ذكر ذلك جمعٌ من أهل اللغة، وفي «المجمل»: الرَّهْط والنفر يستعمل إلى الأربعين(٥)، وفي كلام الشعبي: حدَّثني بضعة عشر نفرًا، وسيأتي إن شاء الله تعالى تفسيره هنا بما زاد على العشرة، ولا يختصُّ بالرجال، والأخذ من النفير لا يدلُّ على الاختصاص بهم، بل ولا بالناس لإطلاقه على الجنِّ هنا.

والجارُّ والمجرور صفة «نفرًا»، وقوله تعالى: ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ حال مقدَّرة منه لتخصُّصه بالصفة، أو صفةٌ له أُخرى، وضمير الجمع لأنه اسم جمع، فهو في

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٩، والمحتسب ٢/ ٢٦٧، وتفسير القرطبي ١٩/ ٢١٩.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٦٦.
(٣) المحتسب ٢/ ٢٦٨، والبحر ٨/ ٦٦.
(٤) الكشاف ٣/ ٥٢٦.
(٥) الذي في مجمل اللغة لابن فارس ٢/ ٤٠٢ (رهط): الرهط: العصابة دون العشرة، ويقال: بل إلى الأربعين. وفي ٣/ ٨٧٨ (نفر): النفر: عدة رجال من ثلاثة إلى العشرة.

المعنى جمع، ولذا قُرئ: «صرَّفنا» بالتشديد للتكثير[١]، و«إذ» معمولة لمقدَّر لا عطف على «أخا عاد» [الآية: ٢١] أي: واذكر لقومك وقتَ صرفنا إليك نفرًا من الجنِّ مقدَّرًا استماعهم القرآن، لعلهم يتنبَّهون لجهلهم وغلطهم وقبح ما هم عليه من الكُفر بالقرآن والإعراض عنه حيث إنهم كفروا به وجهلوا أنه من عند الله تعالى وهم أهلُ اللسان الذي نزل به ومن جنس الرسول الذي جاء به، وأولئك استمعوه وعلموا أنه من عنده تعالى وآمنوا به وليسوا من أهل لسانه، ولا من جنس رسوله. ففي ذكر هذه القصة توبيخٌ لكفار قريش والعرب، ووقوعها إثرَ قصة هود وقومه وإهلاكِ من أهلك من أهل القُرى لأنَّ أولئك كانوا ذوي شدَّة وقوَّة كما حُكي عنهم في غيرِ آية، والجنُّ تُوصَف بذلك أيضًا كما قال تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: ٣٩] ووصفُهم بذلك معروفٌ بين العرب، فناسبت ما قبلها لذلك، مع ما قيل إن قصةَ عاد مُتضمِّنة ذكرَ الريح، وهذه متضمِّنةٌ ذكرَ الجنِّ، وكلاهما من العالَم الذي لا يُشاهد، وسيأتي الكلام في حقيقتهم.

﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي: القرآن عند تلاوته، وهو الظاهرُ وإن كان فيه تجوّز، وقيل: الرسول ﷺ عند تلاوته له ففيه التفات ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي: قال بعضُهم لبعض: ﴿أَنصِتُوا۟ ۖ﴾ اسكتوا لنسمعه، وفيه تأدُّب مع العلم وكيف يُتعلَّم ﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾ أتمَّ وفُرِغ عن تلاوته.

وقرأ أبو مِجلز وحُبيب بن عبد الله: «قَضَى» بالبناء للفاعل[٢]، وهو ضميرُ الرسول ﷺ، وأيِّد بذلك عَوْدُ ضمير «حضروه» إليه عليه الصلاة والسلام.

﴿وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ مقدِّرين إنذارهم عند وصولهم إليهم، قيل: إنهم تفرَّقوا في البلاد فأنذروا مَنْ رأَوْه من الجنِّ، وكان هؤلاء كما جاء في عدَّة روايات من جِنِّ نَصِيبين، وهي من ديار بكر قريبة من الشام، وقيل: من نينوى، وهي أيضًا من ديار بكر لكنها قريبة من المَوْصل، وذكر أنهم كانوا من الشيصبان وهم أكثرُ

(١) البحر المحيط ٨/ ٦٧.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٠٥، وتفسير القرطبي ١٩/ ٢٢٨، والبحر المحيط ٨/ ٦٧.

الجنِّ عددًا، وعامَّة جنود إبليس منهم، وكان الحضور بوادي نخلة على نحو ليلة من مكة المكرمة، فقد أخرج أحمد وعبد بن حُميد والشيخان والترمذي والنسائي وجماعة عن ابن عباس قال: انطلق النبيُّ ﷺ في طائفة من أصحابه إلى سوق عُكاظ وقد حِيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأُرسلت عليهم الشُّهب، فرجَعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حِيل بيننا وبين خبر السماء، وأُرسلت علينا الشُّهب. قالوا: ما حالَ بينكم وبين خبر السماء إلا شيءٌ حدثَ، فاضربوا مشارقَ الأرضِ ومغاربَها فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء. فانصرف أولئك الذين توجَّهوا نحو تِهامة إلى النبيِّ ﷺ وهو وأصحابه بنخلة عامِدين إلى سوق عُكاظ وهو عليه الصلاة والسلام يُصلِّي بأصحابه صلاةَ الفجر، فلما سَمِعوا القرآنَ استمعوا له فقالوا: هذا واللهِ الذي حال بينكم وبين خبرِ السماء، فهناك حين رجَعوا إلى قومهم[1]. وفي رواية ابن المنذر عن عبد الملك: أنهم لما حضروه قالوا: أَنْصِتوا، فلما قضى وفرغ ﷺ من صلاةِ الصبح ولَّوا إلى قومهم منذرين مؤمنين لم يشعر بهم حتى نزل: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ١][2].

وفي «الصحيحين» عن مسروق عن ابن مسعود أنه آذَنَتْه ﷺ بهم شجرة[3].

وكانوا على ما رُوي عن ابن عباس سبعةً، وكذا قال زِرّ، وذكر منهم: زوبعة.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد أنهم كانوا سبعة؛ ثلاثة من أهل حران، وأربعة من نَصيبين، وكانت أسماؤهم حسى ومسى وشاصر وماصر والأردوانيان وسرق والأحقم[4]، بميم آخره. وفي رواية عن كعب: الأحقب، بالباء[5]. وذكر

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٧٠، ومسند أحمد (٢٢٧١)، وصحيح البخاري (٧٧٣)، وصحيح مسلم (٤٤٩)، وسنن الترمذي (٣٣٢٣)، وسنن النسائي الكبرى (١١٥٦٠).

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٧٠.

(٣) صحيح البخاري (٣٨٥٩)، وصحيح مسلم (٤٥٠) (١٥٣).

(٤) الدر المنثور ٦/ ٤٥.

(٥) الدر المنثور ٦/ ٤٥، وعزاه للواقدي وأبي نعيم.

صاحب «الروض» بدل حسى ومسى: منشى وناشى[١].

وأخرج ابن جرير والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال في هؤلاء النفر: كانوا تسعةَ نفر[٢] من أهل نَصيبين، فجعلهم رسولُ الله ﷺ رُسلًا إلى قومهم[٣].

والخبر السابق يدلُّ على أنه ﷺ كان حين حضر الجنَّ مع طائفة من أصحابه. وأخرج عبد بن حُميد وأحمد ومسلم والترمذي وأبو داود عن علقمة قال: قلت لابن مسعود: هل صحب النبيَّ ﷺ ليلةَ الجنّ منكم أحدٌ؟ قال: ما صَحِبه منّا أحدٌ، ولكنّا كنّا مع رسول الله ﷺ ذاتَ ليلة ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشِّعاب، فقلنا: استُطِير، أو: اغتِيل، فبتنا بشرِّ ليلة باتَ بها قومٌ، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قِبَل حِراء فأخبرناه، فقال: «أتاني داعي الجنّ، فأَتيتهم فقرأتُ عليهم القرآنَ» فانطلقَ بنا فأَرانا آثارَهم وآثارَ نيرانهم[٤]. فهذا يدلُّ على أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن معه أحدٌ من أصحابه ولم يَشْعُرْ به أحدٌ منهم.

وأخرج أحمد عن ابن مسعود أنه قال: قمتُ مع رسول الله ﷺ ليلةَ الجنّ، وأخذتُ إدواةً ولا أَحْسِبها إلا ماءً، حتى إذا كنّا بأعلى مكة رأيتُ أَسودةً مجتمعة، قال: فخطَّ لي رسولُ الله ﷺ، ثم قال: «قُمْ هاهنا حتى آتيك» ومضى رسولُ الله ﷺ، فرأيتُهم يتثوَّرون إليه، فَسَمَر معهم ليلًا طويلًا حتى جاءني مع الفجر، فقال لي: «هل معك من وضوء»؟ قلت: نعم، ففتحت الإداوة، فإذا هو نبيذ، فقلت: ما كنت أَحْسِبها إلا ماءً فإذا هو نبيذٌ، فقال رسول الله ﷺ: «تَمْرةٌ[٥] طيِّبةٌ وماءٌ طهور» فتوضَّأ منها، ثم قام يُصلِّي، فأدركه شخصان منهم فصفَّهما خلفه، ثم صلَّى بنا،

---

(١) الروض الأنف ٢/ ١٨٠، والتعريف والإعلام ص١٥٦-١٥٧، وينظر تفسير القرطبي ١٩/ ٢٢٤. هذا وقد اختلفت رسوم بعض أسمائهم في المصادر.

(٢) في الأصل و(م) والدر المنثور ٦/ ٤٤ (والكلام منه): تسعة عشر، والمثبت من المصادر.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٤٤، وتفسير الطبري ٢١/ ١٦٥، ومعجم الطبراني الكبير ١١/ ١١٦٦٠.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٤٤، ومسند أحمد (٤١٤٩)، وصحيح مسلم (٤٥٠)، وسنن الترمذي (٣٢٥٨)، وهو عند أبي داود (٨٥) مختصراً.

(٥) في الأصل و(م): ثمرة، والمثبت من المصادر.

فقلت: مَنْ هؤلاء يا رسولَ الله؟ قال: «جنُّ نَصِيبين»[١]. فهذا يدلُّ على خلافِ ما تقدَّم، والجمع بتعدُّد واقعة الجنّ، وقد أخرج الطبراني في «الأوسط» وابن مردويه عن الحِبر أنه قال: صُرفت الجنُّ إلى رسول الله ﷺ مرَّتين[٢].

وذكر الخَفاجي أنه قد دلَّت الأحاديثُ على أنَّ وِفادة الجنِّ كانت ستَّ مرَّات[٣]. ويجمع بذلك اختلاف الروايات في عددهم وفي غير ذلك؛ فقد أخرج أبو نُعيم والواقدي عن كعب الأحبار قال: انصرف النفر التسعة من أهل نَصيبين من بطن نخلة وهم فلان وفلان وفلان والأردوانيان والأحقب جاؤوا قومَهم مُنذِرين فخرجوا بعدُ وافدين إلى رسول الله ﷺ وهم ثلاث مئة فانتهوا إلى الحَجُون، فجاء الأحقبُ فسلَّم على رسول الله ﷺ فقال: إنَّ قومَنا حضروا الحَجُون يلقونك، فواعدَه رسول الله ﷺ لساعة من الليل بالحجون[٤].

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة أنه قال في الآية: هم اثنا عشر ألفاً من جزيرة الموصل[٥]. وفي «الكشاف» حكاية هذا العدد أيضاً، وأن السورة التي قرأها ﷺ عليهم: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١][٦].

ونقل في «البحر» عن ابن عمر وجابر بن عبد الله ﵃ أنه عليه الصلاة والسلام قرأ عليهم سورةَ الرحمن، فكان إذا قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ قالوا: لا بشيء من آياتِ ربِّنا نُكَذِّب، ربَّنا لك الحمد[٧].

---

(١) مسند أحمد (٤٣٨١)، وفي إسناده: أبو زيد مولى عمرو بن حُريث المخزومي، وهو مجهول. وقال الإمام النووي في شرح مسلم ٤/ ١٦٩: حديث النبيذ ضعيف باتفاق المحدِّثين.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٤٤، والأوسط (٦).
(٣) حاشية الشهاب ٨/ ٢٥٥.
(٤) الدر المنثور ٦/ ٤٥، ودلائل النبوة لأبي نعيم (٢٦١)، وأخرجه أبو نعيم من طريق الواقدي، والواقدي متروك. وورد في الدر: والأردواينان، وفي الدلائل: والأرديبان، بدل: والأردوانيان. والحجون: جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها. معجم البلدان ٢/ ٢٢٥.
(٥) الدر المنثور ٦/ ٤٥، وتفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٩٦.
(٦) الكشاف ٣/ ٥٢٧.
(٧) البحر المحيط ٨/ ٦٧.

وأخرج أبو نُعيم في «الدلائل» والواقدي عن أبي جعفر[١] قال: قَدِمَ على رسولِ الله ﷺ الجنُّ في ربيع الأول سنةَ إحدى عَشْرة من النبوَّة. وفي معناه ما قيل: كانت القصةُ قبلَ الهجرة بثلاث سنين بناءً على ما صحَّ عن ابن عباس أنه ﷺ مكثَ بمكة يُوحَى إليه ثلاثَ عشرةَ سنة، وفي المسألة خلافٌ، والمشهور ما ذُكر.

وقيل: كان استماعُ الجنِّ في ابتداءِ الإيحاء.

﴿قَالُواْ﴾ أي: عند رجوعهم إلى قومهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا﴾ جليلَ الشأن ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ ذكروه دون عيسى عليهما السلام لأنه متفقٌ عليه عند أهل الكتابين، ولأن الكتابَ المُنزل عليه أجلُّ الكتب قبلَ القرآن، وكان عيسى عليه السلام مأمورًا بالعمل بمعظم ما فيه أو بكلِّه. وقال عطاء: لأنهم كانوا على اليهودية، ويحتاجُ إلى نَقْل صحيح.

وعن ابن عباس أن الجنَّ لم تكن سمعَتْ بأمرِ عيسى عليه السلام، فلذا قالوا ذلك، وفيه بُعدٌ، فإن اشتهار أمرِ عيسى عليه السلام وانتشارَ أمرِ دينه أظهرُ من أن يخفى لاسيما على الجنّ. ومن هنا قال أبو حيان: إنَّ هذا لا يصحُّ عن ابن عباس[٢].

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من التوراة، أو جميع الكتب الإلهية السابقة ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ من العقائد الصحيحة ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠﴾ من الأحكام الفرعية أو ما يعمُّها وغيرها من العقائد على أنه من ذكر العامِّ بعد الخاصّ.

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ أرادوا به ما سمعوه من الكتاب ووصفوه بالدعوة إلى الله تعالى بعدما وصفوه بالهداية إلى الحقِّ والطريق المستقيم لِتلازمهما، وفي الجمع بينهما ترغيبٌ لهم في الإجابة أيّ ترغيب. وجوّز أن يكون أرادوا به الرسولَ ﷺ.

---

(١) كذا في الأصل و(م) والدر المنثور ٦/ ٤٥ (وعنه نقل المصنف): عن أبي جعفر، وفي دلائل النبوة (٢٦٠): إسحاق بن عبد الله بن جعفر.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٦٨.

﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ أي: بداعي الله تعالى، أو بالله عز وجل ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: بعض ذنوبكم، قيل: وهو ما كان خالص حقِّه عز وجل، فإنَّ حقوقَ العباد لا تُغفر بالإيمان. وتعقَّبه ابن المُنَيِّر[1] بأن الحربيَّ إذا نَهَبَ الأموالَ وسفكَ الدماء، ثم حَسُنَ إسلامُه جَبَّ إسلامُه إثمَ ما تقدَّم بلا إشكال، ثم قال: ويقال: إنه لم يَرِدْ وعدُ المغفرة للكافرين على تقدير الإيمان في كتاب الله تعالى إلا مُبعَّضة، وهذا منه، فإن لم يكن لاطّراده كذلك سرّ فما هو إلا أن مقام الكافرين قبضٌ لا بَسْطٌ، فلذلك لم يُبْسَطْ رجاؤه في مغفرة جملة الذنوب، وقد ورد في حقِّ المؤمنين كثيرًا. وردَّه صاحبُ «الإنصاف»[2] بأن مقامَ ترغيب الكافر في الإسلام بسطٌ لا قبض، وقد أمر الله تعالى أن يقول لفرعون قولًا ليِّنًا، وقد قال تعالى: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] وهي غير مُبعَّضة، و«ما» للعموم لاسيما وقد وقعت في الشرط.

وقال بعض أَجِلَّة المحققين: إنَّ الحربيَّ وإن كان إذا أسلم لا تبقى عليه تَبِعةٌ أصلًا، لكنَّ الذميَّ إذا أسلم تبقى عليه حقوقُ الآدميين، والقوم ـ كما نُقل عن عطاء ـ كانوا يهودًا فتبقى عليهم تَبِعاتُهم فيما بينهم إذا أسلموا جميعًا من غير حرب، فلما كان الخطاب معهم جيء بما يدلُّ على التبعيض.

وقيل: جيء به لعدم علمِ الجن بعدُ بأن الإسلام يجبُّ إثمَ ما قبله مطلقًا. وفيه توقّف.

وقد يقال: أرادوا بالبعض الذنوبَ السالفة، ولو لم يقولوا ذلك لتَوهَّمَ المخاطَبون أنهم إن أجابوا داعيَ الله تعالى وآمنوا به يغفر لهم ما تقدَّم من ذنوبهم وما تأخَّر.

وقيل: «من» زائدة، أي: يغفر لكم ذنوبَكم.

---

(١) الانتصاف بحاشية الكشاف ٣/ ٥٢٧.

(٢) لعله الإنصاف لعلم الدين عبد الكريم بن علي العراقي، المتوفى سنة (٧٠٤هـ)، وقد جعله حَكَماً بين الكشاف والانتصاف. كشف الظنون ٢/ ١٤٧٧.

﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣١﴾ مُعَدٌّ للكفرة، وهذا ونحوه يدلُّ على أن الجن مُكلَّفون، ولم ينصّ هاهنا على ثوابهم إذا أطاعوا، وعمومات الآياتِ تدلُّ على الثواب. وعن ابن عباس: لهم ثوابٌ وعليهم عقاب، يلتقون في الجنة ويزدحمون على أبوابها. ولعلَّ الاقتصار هنا على ما ذكر لما فيه من التذكير بالذنوب، والمقامُ مقامُ الإنذار، فلذا لم يذكر فيه شيء من الثواب، وقيل: لا ثوابَ لمطيعيهم إلا النجاة من النار، فيقال لهم: كونوا ترابًا، فيكونون تراباً، وهذا مذهبُ ليث بن أبي سُليم وجماعة، ونُسِبَ إلى الإمام أبي حنيفة ﷺ، وقال النسفي في «التيسير»[(١)]: توقَّف أبو حنيفة في ثواب الجنِّ في الجنة ونعيمهم لأنه لا استحقاقَ للعبد على الله تعالى، ولم يَقُلْ بطريق الوعد في حقِّهم إلا المغفرة والإجارة من العذاب، وأما نعيمُ الجنة فموقوفٌ على الدليل.

وقال عمر بن عبد العزيز: إنَّ مؤمني الجِنِّ حول الجنة في رَبَض وليسوا فيها.

وقيل: يدخلون الجنة ويُلْهَمون التسبيحَ والذِّكر، فيصيبون من لذَّة ذلك ما يُصيبه بنو آدم من لذائذهم. قال النووي في «شرح صحيح مسلم»: والصحيحُ أنهم يدخلونها ويتنعَّمون فيها بالأكل والشرب وغيرهما، وهذا مذهبُ الحسن البصري ومالك بن أنس والضحاك وابن أبي ليلى وغيرهم[(٢)].

﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إيجاب للإجابة بطريق الترهيب إثر إيجابها بطريق الترغيب، وتحقيقٌ لكونهم منذَرين، وإظهار داعي الله من غير اكتفاء بأحد الضميرين بأن يقال: يُجبه، أو: يُجب داعيه، للمبالغة في الإيجاب بزيادة التقرير وتربية المَهابة وإدخال الروعة.

وتقييدُ الإعجاز بكونه في الأرض لتوسيع الدائرة، أي: فليس بمعجز له تعالى بالهرب وإن هرب كلَّ مَهْرب من أقطارها، أو دخل في أعماقها.

---

(١) هو كتاب التيسير في التفسير، لنجم الدين عمر بن محمد الحنفي، المتوفى سنة (٥٣٧هـ). كشف الظنون ١/ ٥١٩.

(٢) شرح صحيح مسلم ٤/ ١٦٩.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ بيانٌ لاستحالة نجاته بواسطة الغير إثْرَ بيان استحالة نجاته بنفسه، وجَمَعَ الأولياء باعتبار معنى «مَن» فيكون من باب مُقابلة الجمع بالجمع لانقسام الآحادِ على الآحاد، ويؤيِّد ذلك ما رُوي عن ابن عامر أنه قرأ: «وليس لهم» بضمير الجمع[1]، فإنه لـ «مَنْ» باعتبار معناها، وكذا الجمع في قوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ بذلك الاعتبار، أي: أولئك الموصوفون بعدم إجابة داعي الله ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ أي: ظاهر كونُه ضلالًا بحيث لا يَخفى على أحدٍ، حيث أعرضوا عن إجابة مَن هذا شأنُه.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ الهمزة للإنكار، والواو على أحد القولين عطفٌ على مقدَّر دخله الاستفهام يستدعيه المقام، والرؤية قلبيةٌ، أي: ألم يتفكَّروا ولم يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ أي: لم يَتعَبْ بذلك أصلًا، مِنْ عَيِيَ كفَعِلَ، بكسر العين، ويجوز فيه الإدغام بمعنى تعب كأعيى، وقال الكسائي: أعييتُ من التعب، وعييتُ من انقطاع الحيلة والعجز والتحيّر في الأمر؛ وأنشدوا:

عَيُّوا بأمرِهِمُ كما عَيَّتْ ببيضتِها الحمامَهْ[2]

أي: لم يَعْجِزْ عن خَلْقِهِنَّ ولم يتحيَّر فيه، واختار بعضهم عدمَ الفرق.

وقرأ الحسن: «ولم يَعِيْ» بكسر العين وسكون الياء[3]، ووَجْهُه أنه في الماضي فتح عين الكلمة كما قالوا في بَقِيَ: بقَى بفتح القاف وألف بعدها، وهي لغةُ طيِّئ، ولمَّا بُني الماضي على فَعَل مفتوح العين بُني مضارعُه على يفعِل مكسورها، فجاء يَعْيِي، فلما دخل الجازم حذف الياء فبقي يَعِي بنقل حركة الياء إلى العين فسكِّنت الياء.

---

(١) ذكرها أبو حيان في البحر ٨/ ٦٨، وهي غير المشهورة عنه.
(٢) البيت لعبيد بن الأبرص كما في أدب الكاتب ص٦٧-٦٨، والصحاح (عيي)، وزهر الأكم ٢/ ١٩٠، وهو في ديوانه ص١٣٨، وروايته:
بَرِمَتْ بنو أسد كما بَرِمت ببيضتها الحمامه
ونسب لسلامة بن جندل، وهو في ديوانه ص٢٤٨.
(٣) القراءات الشاذة ص١٣٩، والمحتسب ٢/ ٢٦٩.

وقوله تعالى: ﴿بِقَادِرٍ﴾ في حيِّز الرفع لأنه خبرُ «أنَّ» والباء زائدة فيه، وحَسَّنَ زيادتها كونُ ما قبلها في حيِّز النفي، وقد أجاز الزجَّاج[1]: ما ظننتُ أنَّ أحدًا بقائم، قياسًا على هذا. قال أبو حيان[2]: والصحيحُ قصرُ ذلك على السَّماع، فكأنه قيل هنا: أوليس اللهُ بقادر ﴿عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ﴾ ولذلك أجيب عنه بقوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٣٣﴾ تقريرًا للقُدرة على وجه عامٍّ يكون كالبرهان على المقصود، ولذا قيل: إنَّ هذا مُشيرٌ إلى كبرى لصغرى سهلة الحصول، فكأنه قيل: إحياءُ الموتى شيء وكلّ شيء مقدورٌ له، فينتج أنَّ إحياءَ الموتى مقدورٌ له، ويلزمه أنه تعالى قادرٌ على أن يحيي الموتى.

وقرأ الجحدري وزيدُ بن عليٍّ وعمرو بن عُبيد وعيسى والأعرج بخلاف عنه ويعقوب: «يقدر»[3] بدل «بقادر» بصيغة المضارع الدالّ على الاستمرار، وهذه القراءة على ما قيل موافقةٌ أيضًا للرسم العثماني.

﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ ظرفٌ عاملُه قولٌ مضمرٌ مقولُه قولُه تعالى: ﴿أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ أي: ويقال: «يوم يعرض» إلخ، والظاهرُ أنَّ الجملة معترضة، وقيل: هي حال، والتقدير: وقد قيل، وفيه نظر، وقد مرَّ آنفًا الكلامُ في العرض بطوله، والإشارة إلى ما يُشاهدونه حين العرض مِن حيث هو مِنْ غير أن يخطرَ بالبال لفظٌ يدلُّ عليه فضلًا عن تذكيره وتأنيثه إذْ هو اللائق بتهويله وتفخيمه، وقيل: هي إلى العذاب بقرينة التصريح به بعدُ، وفيه تهكُّم بهم وتوبيخٌ لهم على استهزائهم بوعد الله تعالى ووعيده وقولِهم: «وما نحن بمعذَّبين».

﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾ تصديقٌ بحقِّيَّته، وأكَّدوا بالقَسَم كأنهم يطمعون في الخَلاص بالاعتراف بحقِّيَّة ذلك كما في الدنيا وأنَّى لهم. وعن الحسن: إنهم ليعذبون في النار وهم راضون بذلك لأنفسهم، يعترفون أنه العَدْل.

---

(١) معاني القرآن ٤/ ٤٤٧.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٦٨.
(٣) قراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٥٥، والكلام من البحر المحيط ٨/ ٦٨.

﴿قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٣٤﴾ بسبب استمراركم على الكفر في الدنيا، ومعنى الأمر الإهانة بهم، فهو تهكُّم وتوبيخٌ، وإلا لكان تحصيلًا للحاصل.

وقيل: هو أمرٌ تكويني؛ والمراد إيجابُ عذاب غير ما هم فيه. وليس بذاك.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ واقعةٌ في جواب شرط مقدَّر، أي: إذا كان عاقبةُ أمرِ الكفرة ما ذكر فاصبِرْ على ما يُصيبك من جهتهم، أو: إذا كان الأمر على ما تحقَّقْتَه من قُدرته تعالى الباهرة «فاصبر». وجوز غيرُ واحد كونَها عاطفةً لهذه الجملة على ما تقدَّم، والسببيةُ فيها ظاهرةٌ. واقتصر في «البحر»[1] على كونها لعطف هذه الجملة على أخبار الكفار في الآخرة، وقال: المعنى بينهما مرتبطٌ، كأنه قيل: هذه حالهم فلا تستعجِلْ أنت واصبر ولا تَخَفْ إلا الله عز وجل.

والعزمُ يُطلق على الجِدِّ والاجتهاد في الشيء وعلى الصبر عليه. و«من» بيانية كما في «فاجتنبوا الرجس من الأوثان» [الحج: ٣٠] والجارُّ والمجرور في موضع الحال من «الرسل» فيكون «أولوا العزم» صفةَ جميعهم، وإليه ذهب ابن زيد والجُبَّائي وجماعة، أي: «فاصبر كما صبر» الرسلُ المُجِدُّون المجتهدون في تبليغ الوحي، الذين لا يصرفُهم عنه صارف ولا يعطفهم عنه عاطفٌ، والصابرون على أمر الله تعالى فيما عَهِدَه سبحانه إليهم أو قضاه وقدَّره عز وجل عليهم بواسطة أو بدونها. وعن عطاء الخراساني والحسين[2] بن الفضل والكلبي ومقاتل وقتادة وأبي العالية وابن جريج - وإليه ذهب أكثرُ المفسِّرين - أن «مِنْ» للتبعيض، فـ «أولوا العزم» بعضُ الرسل عليهم السلام.

واختُلف في عِدتهم وتعيينهم على أقوال، فقال الحسين[2] بن الفضل: ثمانيةَ عشرَ، وهم المذكورون في سورة «الأنعام»، لأنه سبحانه قال بعد ذكرهم: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٦٨.

(٢) في الأصل و(م): الحسن، وهو تحريف.

وقيل: تسعة: نوحٌ عليه السلام صبر على أذى قومه طويلًا، وإبراهيم عليه السلام صبرَ على الإلقاء في النار، والذبيح عليه السلام صبر على ما أُريد به من الذبح، ويعقوب عليه السلام صبر على فَقْد ولده، ويوسفُ عليه السلام صبر على البئر والسجن، وأيوب عليه السلام صبر على البلاء، وموسى عليه السلام قال له قومه: «إنا لمدركون» فقال: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، وداود عليه السلام بكى على خطيئته أربعين سنة، وعيسى عليه السلام لم يضع لَبِنة على لَبِنة، وقال: إنها ـ يعني الدنيا ـ مَعْبرةٌ، فاعبُروها ولا تعمُروها.

وقيل: سبعة: آدم ونوح وإبراهيم وموسى وداود وسليمان وعيسى عليهم السلام.

وقيل: ستة، وهم الذين أُمروا بالقتال، هم نوح وهود وصالح وموسى وداود وسليمان، وأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس(١).

وعن مقاتل أنهم ستة، ولم يذكُر حديثَ الأمر بالقتال، وقال: هم نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وأيوب.

وأخرج ابن عساكر عن قتادة أنهم: نوح وهود وإبراهيم وشعيب وموسى عليهم السلام(٢). وظاهره القولُ بأنهم خمسة، وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حُميد وابن المنذر عنه أنهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى(٣). وظاهره القولُ بأنهم أربعة، وهذا أصحُّ الأقوال.

وقول الجلال السيوطي: إنَّ أصحَّها القولُ بأنهم خمسة؛ هؤلاء الأربعة ونبيُّنا صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين(٤). وأخرج ذلك ابنُ أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس(٥)، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله من أئمَّةِ أهل

(١) الدر المنثور ٦/ ٤٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢١٩.
(٤) الإتقان ٢/ ١١٠١.
(٥) الدر المنثور ٦/ ٤٥.

البيت ﷺ[١]، ونَظَمهم بعضُ الأَجِلَّة فقال:

أولو العزم نوحٌ والخليلُ المُمَجَّد وموسى وعيسى والحبيبُ محمد

مبنيٌّ[٢] على أنهم كذلك بعد نزول الآية وتأسِّي نبيِّنا عليه الصلاة والسلام بمن أمر بالتأسِّي به، ولم يُرِدْ أن أصحَّ الأقوالِ أن المرادَ بهم في الآية أولئك الخمسة صلى الله تعالى عليهم وسلم، إذ يلزم عليه أَمرُه عليه الصلاة والسلام أن يصبرَ كصبره نفسه، ولا يكاد يصحُّ ذلك، وعلى هذا قول أبي العالية فيما أخرجه عبدُ بن حُميد وأبو الشيخ والبيهقي في «شعب الإيمان» وابن عساكر عنه أنهم ثلاثةٌ: نوح وإبراهيم وهود ورسول الله ﷺ رابعٌ لهم[٣]. ولعلَّ الأولى في الآية القولُ الأول وإنْ صار أولو العزم بعدُ مختصًّا بأولئك الخمسة عليهم الصلاة والسلام عند الإطلاق لاشتهارهم بذلك كما في الأعلام الغالبة، فكأنه قيل: فاصبِرْ على الدعوة إلى الحقِّ ومُكابدة الشدائد مُطلقًا، كما صبر إخوانك الرُّسل قبلَك.

﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أي: لكفَّار مكة بالعذاب، أي: لا تَدْعُ بتعجيله فإنه على شَرَفِ النزول بهم ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً﴾ يسيرة ﴿مِّن نَّهَارٍ﴾ لِمَا يُشاهدون من شدَّة العذاب وطول مُدَّته.

وقرأ أُبيٌّ: «من النهار»[٤].

وقوله تعالى: ﴿بَلَٰغٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هذا الذي وُعظتم به كفاية في الموعظة، أو تبليغ من الرسول، وجعل بعضهم الإشارة إلى القرآن أو ما ذكر من السورة، وأيّد تفسير «بلاغ» بتبليغ بقراءة أبي مجلز وأبي سراج الهُذَلي: «بَلِّغْ» بصيغة الأمر له ﷺ، وبقراءة أبي مِجْلز أيضًا في رواية: «بَلَّغ» بصيغة

---

(١) مجمع البيان ٢٦/٢٦.

(٢) قوله: مبني، هو خبر قوله: وقول الجلال السيوطي...، والبيت ذكره الشهاب في حاشيته ٨/٣٩.

(٣) الدر المنثور ٦/٤٥، وشعب الإيمان (٩٧٠٦).

(٤) البحر المحيط ٨/٦٩.

الماضي من التفعيل[١]، واستظهر أبو حيان كونَ الإشارة إلى ما ذكر من المدة التي لبثوا فيها، كأنه قيل: تلك الساعة بلاغُهم كما قال تعالى: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ [آل عمران: ١٩٧].

وقال أبو مجلز: «بلاغ» مبتدأ خبره قوله تعالى: «لهم» السابق فيوقَف على «ولا تستعجل» ويبتدأ بقوله تعالى: «لهم» وتكون الجملة التشبيهية معترضة بين المبتدأ والخبر؛ والمعنى: لهم انتهاء وبلوغ إلى وقت فينزل بهم العذاب؛ وهو ضعيف جدًّا لِمَا فيه من الفصل ومخالفة الظاهر، إذ الظاهر تعلُّق «لهم» بـ «تستعجل».

وقرأ الحسن وزيد بن عليٍّ وعيسى: «بلاغًا» بالنصب[٢]، بتقدير: بَلِّغ بلاغًا، أو بلّغنا بلاغًا، أو نحو ذلك.

وقرأ الحسن أيضًا: «بلاغٍ» بالجرِّ[٣] على أنه نعت لـ «نهار».

﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ الخارجون عن الاتعاظ أو عن الطاعة، وفي الآية من الوعيد والإنذار ما فيها.

وقرأ ابن مُحيصن فيما حكى عنه ابن خالويه[٤]: «يَهلِكُ» بفتح الياء وكسر اللام، وعنه أيضًا: «يَهْلَكُ» بفتح الياء واللام، وماضيه: هَلِكَ، بكسر اللام، وهي لغة، وقال أبو الفتح: هي مرغوب عنها[٥].

وقرأ زيد بن ثابت: «نُهلِكُ» بنون العظمة من الإهلاك «القومَ الفاسقين» بالنصب[٦].

---

(١) القراءات الشاذة ص١٤٠، والمحتسب ٢/ ٢٦٨، والبحر المحيط ٨/ ٦٩.
(٢) المحتسب ٢/ ٢٦٨، والبحر المحيط ٨/ ٦٩.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٦٩.
(٤) في القراءات الشاذة ص١٤٠، والقراءة أيضاً في المحتسب ٢/ ٢٦٨، والبحر المحيط ٨/ ٦٩.
(٥) المحتسب ٢/ ٢٦٨، والبحر المحيط ٨/ ٦٩.
(٦) الكشاف ٣/ ٥٢٨، وتفسير أبي السعود ٨/ ٩٠.

وهذه الآية ـ أعني قوله تعالى: «كأنهم» إلى الآخر ـ جاء في بعض الآثار ما يُشعر بأن لها خاصيَّةً من بين آي هذه السورة، أخرج الطبراني في «الدعاء» عن أنس عن النبي ﷺ قال: «إذا طلبتَ حاجةً وأَحببتَ أن تنجَح، فقل: لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له العليُّ العظيم، لا إله إلا الله وحده لا شريك له الحليم الكريم، بسم الله الذي لا إله إلا هو الحيُّ الحليم، سبحان الله ربِّ العرش العظيم، الحمد لله ربِّ العالمين ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥] اللهم إني أسألك مُوجبات رحمتك، وعزائمَ مَغْفرتك، والسلامةَ من كلِّ إثم، والغنيمةَ من كلِّ بِرّ، والفوزَ بالجنة والنجاةَ من النار، اللهم لا تَدَعْ لي ذنبًا إلا غَفَرْتَه، ولا همًّا إلا فرَّجته، ولا دينًا إلا قضيتَه، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة إلا قضيتَها برحمتك يا أرحم الراحمين»[١].

(١) الدعاء (١٠٤٤).